التاريخ الأوروبى الحديث

من عصر النهضة إلى أواخر القرن الثامن عشر

الدكتور
عبد الحميد البطريق

الدكتور
عبد العزيز نوار

١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى
٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر
ت : ٢٧٥٢٩٨٤ فاكس : ٢٧٥٢٧٣٥

٩٤٠,٢ عبد الحميد البطريق.

ح م ت ا التاريخ الأوروبى الحديث : من عصر النهضة إلى أواخر القرن الثامن عشر/ عبد الحميد البطريق. ـ القاهرة : دار الفكر العربى، ١٩٩٥.

٢٨٦ ص ؛ ٢٤ سم.

يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية.

تدمك : ٤ ـ ٠٧٠٨ ـ ١٠ ـ ٩٧٧.

١ ـ أوروبا ـ تاريخ ـ العصر الحديث.

أ ـ عبد العزيز نوار، مؤلف مشارك. ب ـ العنوان.

محتويات الكتاب

مقـــــدمة

يعتبر التاريخ الأوروبى الحديث من أدق أقسام التاريخ. فهو فترة الانتقال من العصور الوسطى إلى التاريخ المعاصر. وكتابنا هذا دراسة لفترة من التاريخ الحديث تمتد من عصر النهضة الأوروبية (منذ أواخر القرن الخامس عشر) إلى الثورة الفرنسية والحروب النابليونية وإعادة رسم خريطة أوروبا فى مؤتمر فينا (١٨١٥).

ونظرا لندرة المراجع فى التاريخ الأوروبى الحديث باللغة العربية، ونظرا لاضطرار القارئ العربى إلى مراجعة مؤلفات مترجمة وغير مترجمة معقدة الأسلوب وغير شاملة رأينا أن نضع أمامه هذه الدراسة لتعطى صورة واضحة عن هذه الفترة التاريخية الدقيقة من تاريخ أوروبا الحديث.

وقد عنينا بدراسة التطورات السياسية الرئيسية التى أثرت فى تطور أوروبا الحديث. وبوجه خاص: الفكر الدينى والمذهبى الجديد والتوسع الاستعمارى والتوازن الدولى بين الدول الأوروبية الكبرى وما يترتب على ذلك من صراعات متطاولة لأسباب سياسية أو مذهبية. كما عنينا بدراسة نشوء بعض الدول الأوروبية الحديثة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر مثل: هولندا وروسيا وبروسيا، إلى جانب ظهور دولة على الأسس الحضارية الأوروبية فى العالم الجديد وهى الولايات المتحدة الأمريكية. هذا بالإضافة إلى دراسة تطور انجلترا فى القرون: السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر، وفرنسا فى عصر لويس الرابع عشر.

أما الجزء الأخير من الكتاب فقد درسنا فيه الظروف التى أدت إلى نشوب الثورة والتطورات التى أدت إلى ظهور نابليون بونابرت ووصوله إلى الذروة وأسباب سقوطه وما تبع ذلك من عقد مؤتمرات فينا (١٨١٥) حيث أن هذا المؤتمر يعتبر بداية لفترة جديدة من فترات التاريخ الحديث تنتهى فى أواخر القرن التاسع عشر بظهور دولتين كبريين جديدتين هما الامبراطورية الألمانية والمملكة الإيطالية، وبظهور العوامل التى أدت إلى الحرب العالمية الأولى. وهذه الفترة الواقعة بين مؤتمر فينا والحرب العالمية الأولى هى ـ بإذن الله ـ موضوع كتابنا الثانى وذلك حتى يصبح أمام القارئ العربى سلسلة متكاملة من التاريخ الأوروبى الحديث والمعاصر حيث إن كتاب «التيارات السياسية المعاصرة» للدكتور عبد الحميد البطريق يغطى الفترة التاريخية الواقعة بين الحرب العالمية الأولى والستينيات من القرن العشرين.

ولعلنا بذلك نمكّن القارئ العربى من دراسة التاريخ الأوروبى الحديث والمعاصر ـ الذى يعتبر واحدا من ضروريات دراستنا لتاريخنا العربى.

وعلى الله قصد السبيل..

المؤلفان

الفصـــل الأول

مقدمة تاريخية
اوروبا الحديثة فى فجر عصر النهضة

نظرة عامة إلى العصور الوسطى.

يظن بعض الناس أن العصور الوسطى عصور تأخر وانحطاط وهو وصف لا يمثل الحقيقة تمثيلا صحيحا، ولعل هذه الفكرة ترجع إلى الأثر الذى أحدثه انبثاق العصر الحديث بما حمل من نهضة وتقدم فى أذهان الناس، فقد كان هذا الأثر قويا إلى الحد الذى حجب الماضى عن أعينهم، فكان فى نظرهم ظلاما كله.

وواقع الأمر أن العصور الوسطى تعتبر من أهم فترات التاريخ الأوروبى، بل هى الأساس الذى نستطيع من خلاله أن نفهم التاريخ الحديث وذلك بدراسة أهم مظاهر العصور الوسطى فى أوروبا.

وتشمل هذه العصور تلك الفترة التى بدأت بسقوط الدولة الرومانية الغربية على أيدى البرابرة بعد منتصف القرن الخامس الميلادى، واستمرت حتى منتصف القرن الخامس عشر - وهو تحديد تقريبى - وفى خلال تلك القرون حدثت تغيرات هامة فى المجتمع الأوروبى. وأول هذه التغيرات هى تلك التى حدثت بسبب محاولة رجال العصور الوسطى إصلاح ما أفسدته غزوات البرابرة والعمل على استقرار الأحوال بعد ما حدث من فوضى وارتباك. فكان عليهم أن يُخرجوا أوروبا من هذا المعترك الصاخب لِيَصِلُوا بها إلى حياة هادئة نسبيا.

وقد أفلحوا فى تحقيق الأمنية واستقرت الأوضاع ونعم الناس بفترات من الأمن والسلام، ولكن تلك الفترات لم تكن متشابهة فى مظاهرها على مدى القرون الوسطى، فالفرد الذى عاش فى القرن العاشر كان أبعد حياة مدنية عن شخص عاش فى القرن السابع أو الثامن، فقد كان هناك نمو دائم ومطرد يبشر بحياة مستقلة أرقى منزلة وأكثر وأعظم تقدما. حتى إذا وافى القرن الثانى عشر ظهر نشاط ملحوظ فى الحياة العملية، ولو أن الاهتمام بالعلوم كان محصورا بين جدران الكنائس والأديرة التى كان لها الفضل فى حفظ التراث القديم وصيانتة وتسليم هذا التراث الضخم للعصور الحديثة.

وفى القرن الثانى عشر يحدث اتصال بين حضارة الشرق والغرب وبدأ عصر الترجمة، حيث ترجمت علوم اليونان عن العرب، وتأثر المجتمع بالفلسفة اليونانية القديمة. ولكنهم فى تلك الفترة كانوا يدرسون العلوم كما وردت دون إثباتها علميا، وهذا هو الفرق بين العقليتين، عقلية العصور الوسطى وعقلية العصور الحديثة.

فأهل العصور الوسطى كانوا يأخذون العلوم على علاتها وشعارهم فى ذلك «اعتقد لأفهم»، أما عندما أشرفت العصور الوسطى على الانتهاء، وانبثق عصر النهضة سادت الفكرة التى تقول بأن لا يجوز الاعتقاد فى شئ قبل فهمه.

Nothing to be believed unless it is to be understood

وعلى ذلك بدأت العقول تتحرر، واتجه الناس إلى نقد ما كان شائعا فى العصور الوسطى حتى فى الدين نفسه، فقد وجد من ينقد الكنيسة، وظهر «الهراطقة» الذين تعرضوا لتعاليم الكنيسة الكاثوليكية بالنقد والتقريع، ونمت تلك الروح النقدية فى أوائل العصر الحديث ونتج عنها حركة الإصلاح الدينى البروتستنتى.

كذلك كان من مميزات أواخر العصور الوسطى ظهور الجامعات وما تبع ذلك من انتشار العلم وتعميق الثقافة، فنشأت جامعات بدأت باجتماع الطلبة حول أستاذ من أساتذة الفلسفة أو الرياضة، ولم يكن ضروريا وجود البناء الذى يجمع الأساتذة بطلابهم، بل كانوا يجتمعون حيث يطيب لهم المقام، إلى أن أصبحت الحاجة ملحة فى إيجاد رابطة تجمع بينهم وتحقق الغرض العلمى من اجتماعهم فنشأت الجامعات فى أماكن مختلفة، وشجعها الباباوات الذين أصدروا قرارات بإنشائها ومدها بالمال والتسهيلات، وأنشئت كليات لدراسة العلوم الإلهية ومختلف الفنون والعلوم الإنسانية والقانونية ولكن الطابع الدينى، كان قويا فى هذه الدراسات .

بداية العصور الحديثة:

ومما هو جدير بالذكر، أن الكثير من الآراء التى سادت فى العصور الوسطى عاشت أيضا بعض الزمن فى العصر الحديث، وهذا يبين صعوبة إيجاد حد فاصل

بين عصر وآخر. ولذلك يعتبر عصر النهضة الأوروبية من دلائل الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة، ويصعب على المؤرخ أن يحدد تاريخا معينا يبدأ به التاريخ الحديث. فبعضهم يعتبر سقوط القسطنطينية في يد الأتراك العثمانيين عام ١٤٥٣م بداية للتاريخ الأوروبى الحديث، فقد ترتب على هذا الحادث قيام حركة لإحياء العلوم فى أوروبا، عندما غادر القسطنطينية عدد كبير من العلماء اليونانيين إلى أوروبا حاملين معهم مخطوطاتهم الثمينة التى انبثقت منها دراسات جديدة أضاءت الطرق لظهور النهضة الأوروبية وحركة إحياء العلوم.

ويذهب البعض الآخر إلى تحديد قيام العصر الحديث فى أوروبا بنشوب الحروب الإيطالية والصراع بين الملكيتين الأسبانية والفرنسية. والواقع أنه ليس من السهل تحديد بداية التاريخ الحديث لأن التاريخ لا يعرف حدا فاصلا بين عصر وعصر، وإنما هو تطور إنسانى يعتمد فيه التطور على ما سبق من ظروف وأحداث وشخصيات، تؤثر فى سير الحوادث وتصنع التاريخ بسلوكها ومواهبها. والانتقال من العصر الوسيط إلى العصر الحديث حدث بالتدريج ولم يسر على وتيرة واحدة.

مظاهر الانتقال إلى العصور الحديثة:

وقد بدأت تظهر فى أوروبا فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر تغيرات ومعالم جديدة، ولكنها لم تبدأ ببداية عام بعينه، ولم تشرق على أوروبا دفعة واحدة ولكن بذورها بدأت تنبت فى أواخر العصر الوسيط ثم تطورت ونمت ثمارها فى العصر الحديث.

١ـ الناحية الثقافية:

وقد ظهر ذلك التطور أول ما ظهر فى الناحية الثقافية، كانت الكنيسة وحدها هى ملاذ الثقافة والتعليم، ولذلك اصطبغت الثقافة فى العصور الوسطى بالصبغة الدينية، فقد كان العلماء فى تلك العصور هم أنفسهم رجال الدين، وما يقوله رجال الدين حينئذ يتقبله الناس وما يرفضونه يرفضه الجميع، وكل تعاليمهم مسلم بها لا يقبل النقض ولا يحتمل الجدل. وكانت اللغة اللاتينية هى اللغة الأساسية التى يجب

على كل فرد أن يتعلمها ويتقنها. أما اللغات القومية فكانت لغة التخاطب المحلى. ومن أراد المعرفة فلا سبيل إليها إلا عن طريق اللغة اللاتينية، التى كانت إذ ذاك لغة الجامعات يتفاهم بها الطلبة مع أساتذتهم، لذلك نصت لوائح الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى على عدم إجازة من يثبت أن لغته اللاتينية غير سليمة. ومن هنا لم تهتم تلك الجامعات بالثقافة القومية الخالصة، بل كانت جامعات عالمية يفد إليها الطلاب من مختلف البلاد تجتذبهم إليها أسماء الأساتذة المشهورين الذين يتوقون إلى يتتلمذوا عليهم.

ثم تطورت الدراسة بالتدريج حتى اتجهت فى العصور الحديثة إلى الناحية القومية ولم تعد اللغة اللاتينية وحدها هى لغة الثقافة والأدب. ولم تلبث الجامعات أن تصدت لسيادة الكنيسة البابوية وناهضت المبدأ بخضوع جميع الكنائس فى البلاد الغربية خضوعا تاما للبابوية، وكان على رأس الجامعات المعارضة جامعة باريس التى أيدت مبدأ استقلال الكنيسة الفرنسية، وقد تحقق فعلا للكنيسة الفرنسية هذا الاستقلال واكتسبت صبغتها القومية فى عهد لويس الحادى عشر (١٤٦١ ـ ١٤٨٣).

ومن المظاهر الثقافية لانتقال أوروبا إلى العصور الحديثة عناية بعض الشعوب الأوروبية بجغرافية العالم واكتشاف أبعاده. وقد كان احتلال البرتغاليين سبته على الساحل الأفريقى عام ١٤١٥ بمثابة الحلقة الأولى فى سلسلة المغامرات البحرية التى أدت إلى دوران فاسكو داجاما حول أفريقية سنة ١٤٩٢ وتأسيس الامبراطورية البرتغالية والاستعمار البرتغالى فى الشرق. ثم أدت المغامرات إلى اكتشاف أمريكا، وانتقال التفوق التجارى من المدن الإيطالية إلى الدول التى تطل على المحيط الأطلسى أو القريبة منه. وقد بدأ ذلك التفوق فى البرتغال ثم أسبانيا فالأراضى المنخفضة ففرنسا وانجلترا. وأخذت تلك الدول كلها تتنافس وتتصارع على الاستعمار وتكوين امبراطوريات لها وراء البحار.

وقد أثبتت حركة الاستكشافات بطريقة عملية تلك الآراء التى ناهضها رجال الدين فى العصور الوسطى وأهمها إثبات كروية الأرض بعد نجاح رحلة ماجلان

حول الأرض، واتسعت دائرة المعارف الإنسانية بعيدا عن قيود الكنيسة ولزمت الكنيسة ورجالها، وقد واكب اكتشاف أمريكا نشر الكتب المطبوعة، وأدرك الناس مدى التناقض بين ما كانت تلقنه الجامعات فى العصور السالفة والحقائق الجغرافية التى تثبت عمليا فى العصور الحديثة. وهكذا ازدادت معرفة الإنسان بأن العلم لا يقف عند حد وأن الحقيقة بنت البحث.

٢- الناحية الاجتماعية والاقتصادية:

أما من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية. فقد تميز العصر الوسيط بالنظام الإقطاعى Feudal System الذى تلاشت مظاهره فى العصور الحديثة. فقد كانت الأرض موزعة بين أشراف يمتلكونها بما عليها من إنسان وحيوان، ويحكمون إقطاعاتهم بمطلق إرادتهم بين الناس بما شاء له حكمه، وبذلك كانت الأرض هى عماد الثروة الاقتصادية. لذلك انعدم وجود الطبقة الوسطى التى تعتبر عماد الحياة، أو كانت قلة معدومة الأثر فى البلاد، ولذلك كان المجتمع طبقتين: أشرافًا يتمتعون بكل شيء، وفلاحين يعتبرون أرقاء للأرض.

الملوك والأشراف:

أما عندما بدأت العصور الحديثة أخذت الأوضاع فى بعض البلاد الأوروبية تأخذ أشكالا اقتصادية متغيرة، ففى فرنسا مثلا، حيث كان النظام الإقطاعى سائدا، كان الملك نفسه يحكم إقطاعا فى باريس ولا يتعداه إلى بقية الإقطاعات على الرغم من اعتراف الأشراف به وبأسرته، إلى أن حدث تطور أضعف قدرة الأشراف بعد أن أنهكت قواهم الحروب المتتالية. وعندئذ بدأ بعض الملوك يحطمون نفوذهم ويبسطون سيطرتهم خارج باريس، فقام صراع طويل بين الملكية والأشراف انتهى بهدم النظم الإقطاعية، وتحرر الفلاحون من رق الأرض، ومنحوا حق الملكية: فكان هذا التحول الاقتصادى على أكبر جانب من الأهمية.

وقد أعان الملكية فى النصر الذى حازته على الأشراف أن الناس بدأوا يشعرون بأن الأرض لم تعد المصدر الأساسى للثروة، فقد أينعت التجارة وراجت الصناعة،

وظهرت على أثر ذلك طبقة وسطى تشتغل بالتجارة، ونالها ثراء دفعها إلى النفوذ الذى حرمت منه فى العصور السالفة، وعلى الأخص عندما اتسعت العلاقات التجارية بين أوروبا والعالم الجديد بعد حركة الكشوف الجغرافية. ومن جهة أخرى ازدادت العلاقات الأوروبية بالشرق الغنى بغلاته ومنتجاته.

وانتعشت أحوال أوروبا الاقتصادية بانتعاش تلك الطبقة الجديدة التى كان من مصلحتها تدعيم نفوذ الملكيات، ليسود الاستقرار والأمن حتى تستطيع ممارسة نشاطها ومضاعفة ثرواتها. وبذلك ارتبطت مصلحة الملوك بمصلحة الطبقة الوسطى فى الصراع ضد الأشراف ورأت الملكية أن من مصلحتها الاستعانة بمواهب رجال الطبقة المتوسطة والانتفاع بأموالهم. فعين الملوك منهم أعضاء فى البرلمان وحكاما فى الأقاليم، وقضاة، ومشرعين.

الجيوش الثابتة:

وقد غيرت تلك الظروف نظرة الملوك فى الحكم. فبعد أن كانوا يحكمون معتمدين على الجيوش التى يجمعها الأشراف فى زمن الحرب، عمدوا إلى إنشاء الجيوش الثابتة التى تبقى زمن الحرب وزمن السلم. كحارس ومدافع ضد أطماع الأشراف وضد العدو الأجنبى، وتقوم تلك الجيوش بالغزوات والفتوحات التى يفكر الملوك فى القيام بها. وجاء اختراع البارود والمفرقعات فى نهاية العصور الوسطى أكبر معين للملك ضد فروسية العصور الوسطى فساعد ذلك على دك معاقل الأشراف وتحطيم حصونهم. وقد استغرق القضاء على الأشراف زمنا ليس بالقصير.

روح الفردية Individualism :

كذلك ظهرت فى العصور الحديثة روح جديدة، وهى النزوع إلى التفكير الحر، أو ما أطلق عليه بكلمة الفردية Individualism أى انفصال الفرد عن التقيد بما لا يستسيغه أو يعتقده فى داخلية نفسه. ظهرت تلك الروح فى التفكير الدينى. وكان من نتيجتها ظهور حركة الإصلاح ومحاولة المصلحين تغيير ما يرونه ضد العقيدة الحقة والدين الصحيح. على أن ذلك لا يعنى أن الفرد كان حرا فى العصور

الحديثة. بل إنه كان مقيدا فى بلده برأى حكومته. إنما كان باستطاعته أن يهاجر إلى بلاد أخرى. فمذهب لوثر كان مذهبا عاما ودوليا ظهر فى ألمانيا، فمن لم يرق إليه من الألمان يستطيع أن يرحل من ألمانيا إلى دولة أخرى لا تعتنق هذا المذهب.

كذلك ظهرت الروح الفردية فى الحكم والسياسة. ونجدها واضحة فى الظروف التى نشأت فيها الدول القومية. ولو أنها لم تنشأ فى أوائل العصور الحديثة بل احتاجت إلى ثلاثة قرون حتى تم نضجها فى أوروبا، فإيطاليا لم تحقق وحدتها إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر. وكذلك ألمانيا. بل إن شعوبا كثيرة ظلت تجاهد من أجل قوميتها واستغرق جهادها سنين طويلة امتدت إلى نهاية الحرب العالمية الأولى. على أن روح الفردية لم تظهر فجأة فى تاريخ محدد. بل احتاجت إلى أجيال متعاقبة تنمو فيها وتتطور. فالفكرة وجدت فى بداية العصور الحديثة ولكن لم يكن الفرد حرا كل الحرية فى معتقداته السياسية. أو فى إبداء رأيه علنا. فقد بدأت العصور الحديثة ولا تزال الدولة هى صاحبة الحق فى كل شيء، والفرد خاضع لها ويسير على دربها. حتى إذا جاءت الثورة الفرنسية ، وأعلنت حقوق الإنسان، ورفعت شعار الحرية والإخاء والمساواة. بدأت الفكرة تنساب من فرنسا إلى الشعوب المتعطشة لتحقيق تلك الشعارات. ومع ذلك لم يكن تحقيقها سهلا ميسورا. وحتى فى فرنسا ذاتها احتاج الشعب إلى زمن طويل للحصول على هذه الحقوق وفى حدود ضيقة.

ظهور المدن:

وكان لظهور المدن فى أوائل القرن الحادى عشر أثره فى حياة المجتمع الأوروبى. وقد نشات المدن نتيجة لنمو التجارة والصناعة. وبعد أن تخلص عدد كبير من الناس من سيطرة الأشراف الزراعية.

وقد كان لظهور المدن أثره فى إضعاف النظام الزراعى والإقطاعى واستطاعت بعض المدن – ولا سيما المدن الإيطالية والألمانية – أن تنجح فى تدعيم جهودها حتى تطورت وأصبحت جمهوريات حرة منفصلة عن الدول الإقطاعية والتى كانت جزءا منها. وبعض المدن فى دول أخرى ساعدت الملك على تدعيم نفوذه ضد نبلاء

الإقطاع. فقد رأى سكان هذة المدن أن مصلحتهم هى تدعيم سلطة الملك، لأن قيام حكومة مركزية قوية على رأسها الملك أدعى إلى استتباب أمن الدول واستقرارها، وأصلح لهم من التقسيم الإقطاعى الذى يقف حجر عثرة فى طريق حرية التجارة ويضعف مكاسبها، وهكذا ساعدت المدن فى الدول الأوروبية على تدعيم سلطة الملكية المطلقة وعلى الأخص فى أوروبا الغربية.

هذا إلى أن المدن أصبحت مراكز للثقافة والإشعاع الفكرى حيث تجمع المفكرون والمثقفون فى مكان واحد كبيـر. يختلط بعضهم ببعض ويتبادلون الأفكار فيما بينهم. ويعملون علي تحقيق الإصلاح للشعب .

ومع أن ظهور المدن بدأ من العصور الوسطى المتأخرة إلا أن مظاهر النهضة لم تبد واضحة إلا فى المجتمع الأوروبى الحديث. عندما ازدادت الثورة عن طريق نمو التجارة والصناعة.

نمو التجارة والصناعة :

ومنذ أن ظهرت المدن حوالى عام ١٠٠٠ الميلادى، نمت التجارة والصناعة نموا مضطردا حتى ظهرت النهضة الأوروبية، وقد تميزت المدن الإيطالية بالذات عن غيرها بذلك النمو. فتلك المدن ظلت تقاليدها التجارية ثابتة منذ العهد الرومانى عندما كانت إيطاليا مركز التجارة للعالم وظلت ذائعة الصيت فى عالم التجارة. وقد ساعدها على ذلك موقعها الجغرافى فى منتصف حوض البحر المتوسط. ذلك الموقع الذى جعلها على مدى العصور الوسطى وفى عهد النهضة الأوروبية أعرق البلاد الأوروبية حضارة وأكثفها سكانا. وبذلك تفوق المجتمع الإيطالى على غيره من المجتمعات الأوروبية التى تعيش فى أسبانيا وفرنسا وإنجلترا وألمانيا.

ولعل أكبر ربح جناه الإيطاليون هو اتصالهم بالدولة البيزنطية المجاورة لهم وبالبلاد العربية التى ربط فيها الإسلام فيما بينهم، والتى كانت على جانب كبير من

الحضارة والتقدم، وقد تجلى ذلك فى تقدمهم التجارى إذ كانت تجارتهم الخارجية تنشط حتى تصل إلى الهند والصين.

وكان الإيطاليون يجمعون كل ما فى الشرق من نفائس وبضائع وثروات ولم يكن هناك بد من عقد أواصر للصداقة مع البلاد العربية حتى تصبح إيطاليا الوسيط بين الشرق والغرب فأقاموا العلاقات التجارية معها، وتكونت فى المدن الإيطالية الساحلية، مثل بيزا وجنوا والبندقية شركات تجارية كانت سفنها تبحر إلى الإسكندرية-- ويافا وعكا والقسطنطينية لجلب البضائع الشرقية من حرير وجواهر ومنتجات عاجية ومنتجات ذهبية، وكل ما كان ينقص أوروبا من نفائس الشرق وبضائعه النادرة ومنها الأصباغ والجواهر والرقيق الذى لم يكن محرما فى الأسواق الشرقية. وهكذا تخصص الإيطاليون فى جلب كل ذلك عن طريق الأسواق العربية ثم ينقلونه عبر جبال الألب إلى فرنسا وألمانيا، ومنذ القرن الرابع عشر، عندما تقدمت الملاحة عبر البحار كان الإيطاليون ينقلون تجارتهم عبر مضيق جبل طارق إلى انجلترا والبلاد الواقعة على سواحل بحر الشمال .

بذلك استغل الإيطاليون كل منفذ برى وبحرى لنشر تجارة الشرق فى أوروبا الغربية مقابل ما كانوا يحصلون عليه من نقود ذهبية وفضية، أو بمبادلة تلك البضائع ببعض المواد الخام كالكتان والجلود والصوف والفراء، تُحمل إلى إيطاليا ليقوم الإيطاليون لما عرف عنهم من مهارة فى الصناعة بتحويل تلك المواد الخام إلى منتجات رائعة تذهب بالتالى إلى الشرق ليتم بذلك التبادل التجارى المنشود .

وقد نتج عن قيام تلك التجارة العالمية على هذه الصورة حركة تقدم واسعة النطاق فى مختلف المجالات، فقد احتاج الأمر إلى إصلاح شامل فى وسائل المواصلات لتسهيل العمليات التجارية بين إيطاليا وأوروبا وجرى الإصلاح فى الطرق الرومانية القديمة، وأنشئت الكبارى فوق الأنهار. ولكى يأمن التجار على أموالهم، فكرت الحكومات المتجاورة ذات العلاقة بالتجارة الإيطالية فى عقد معاهدات واتفاقيات ومعاهدات كانت أساسا فيما بعد فى نشأة القانون الدولى، واهتدى التجار

إلى وسيلة التعاقد الكتابى فيما بينهم، وتأسست المصارف (البنوك) لتساعد على عقد الصفقات بين مختلف البلدان لتزيل صعوبة التعامل بالعملات المختلفة.

وقد ربح التجار الإيطاليون أموالا طائلة حتى إنهم كانوا يقرضون الباباوات والأمراء ما يحتاجون من المال . ولما كثرت الأموال فى أيديهم ازدادوا تعلقا بالترف والرفاهية، فصاروا يقتنون أنفس ما تخرجه أيدى الفنانين من تحف فنية مما شجع أهل الفن على الاستزادة من استغلال مواردهم ومواهبهم وابتكار المزيد من روائع الفنون. ونتج عن ذلك تطور عظيم فى ذلك المضمار، وازداد الإقبال على ما كانت تخرجه أيديهم وقرائحهم وعلى الأخص الرسوم النادرة والتى رسموها بالزيت والتى كانت تمثل صورا بشرية تنطق ملامحها بمختلف الانفعالات الواقعية ومطابقة للحقيقة، وكانوا يستعينون فى إحكامها ببعض العلوم التى تقدمت فى عصر النهضة كالرياضيات التى تعينهم على حساب قواعد الرسم والمنظور وعلم التشريح، فجاءت صورهم تكاد تنطق بالحياة حتى أصبحت أكثر تعبيرا عن الأشخاص أكثر من ذى قبل وبذلك أصبح تصويرا للوقائع، مثال ذلك الصورة التى رسمها بللى Bellini والتى تمثل رئيس عصابة من المحاربين المرتزقة، وكذلك اللوحات الزيتية المشهورة التى رسمها الفنان الإيطالى الكبير ليوناردو دافنشى Leonardo da Vinci التى تمثل العشاء الأخير للمسيح مع حوارييه والذين يظهرون حوله كمجموعة من الرجال لكل منهم خصائصه ومميزاته الشخصية. إلى غير ذلك من الصور الخالدة التى رسمها رفائيل وغيره من الفنانين التى بقيت صورهم مرموقة حتى عصرنا الحاضر.

وكانت أهم المدن التى اشتهرت بالتجارة والغنى والثروة هى المدن القريبة من ممرات الألب شمال شبه الجزيرة الإيطالية، لأن تلك الممرات الجبلية هى التى ساعدتها على نشر تجارتها فى أوروبا، لذلك استحضرت ميلان. وجنوا. بولونيا .فيرونيا. وبادوا. وفاقتها جميعا مدينتا البندقية وفلورانسا اللتان احتلتا أسمى مكانة بين المدن الإيطالية وكانت فلورنسا أهم مركز لتوزيع تجارة الشرق وكانت فلورانسا أهم المراكز الرئيسية لصناعة النسيج من صوف وحرير .

ويقابل تلك المدن الإيطالية فى الجانب الآخر مدن فرنسا الجنوبية الواقعة فى وادى الرون. والشمالية الواقعة فى وادى السين ووادى المارن، وكذلك المدن الألمانية على طول نهر الراين من استراسبورج إلى كولون وجميع تلك المدن الفرنسية والألمانية كانت على صلة وثيقة بالمدن الإيطالية. وقد امتدت الصلات بينهما جميعا وبين المدن فى شمال اوروبا .

وقد أثرت المدن الإيطالية فى التجارة وقام التنافس بينها حيث كانت كل منها تصر على الاستقلال عن جيرانها . ولذلك لم تكن إيطاليا فى بداية العصور الحديثة سوى تعبير جغرافى لا يمثل وحدة تقوم بين سكان شبه الجزيرة. بل كانت ولايات آنذاك لم تفكر فى تحقيق الوحدة القومية الشاملة كتلك التى قامت فى فرنسا وغيرها من الدول الغربية التى تمتعت بوحدتها فى ظل الملكية. ويرجع تأخير قيام الوحدة الإيطالية إلى سببين: أولهما قوة سلطان البابا الذى منع بنفوذة قيام زعيم يوحد البلاد. وكان البابا فى روما هو الزعيم الذى تهفو إليه قلوب المسيحيين فى العالم وكانت شخصيته تغطى على جميع الشخصيات وله الزعامة الدينية والسياسية. ومع ذلك عجز عن جعل إيطاليا دولة موحدة تحت حكمه. وكان البابا خلال العصور الوسطى يقحم الولايات الإيطالية فى صراعه مع الإمبراطور وقد زاد من خطورة الموقف أن بعض الباباوات كانوا يدعون فرنسا تارة. وأسبانيا تارة أخرى إلى إرسال قوات إلى إيطاليا لنصرة البابا على الإمبراطور، وأكثر من ذلك أن منح تاج نابولى إلى أنجو Anjou.

والسبب الثانى وهو التنافس التجارى الذى تحدثنا عنه بين المدن الإيطالية وجعلها تفضل الاستقلال عن جيرانها وألا تخضع لدولة أخرى أو تنضم إليها ورأت كل منها أنها لا تستطيع تدعيم جهودها إلا باتباع سياسة المنافسة التجارية. وكانت المدن التى تكون ولايات صغيرة تختلف حجما، وبعضها كان من صغر المساحة بحيث لم يكن لها أثر فى تاريخ إيطاليا. ولكن استطاعت خمس ولايات إيطالية أن تنمو وتطور نفسها حتى أصبحت مراكز قوة لتقرير مصير إيطاليا بأكملها فيما بعد. تلك كانت الولايات البابوية ونابولى، وميلان. والبندقية. وفلورانسا.

الولايات البابوية

أما الولايات البابوية فكانت تمتد فى وسط شبه الجزيرة الإيطالية من جنوب مصب نهر النير إلى مصب نهر البو وتشتمل على عدة مدن وحصون تحت سلطة حكام يعترفون بسيادة البابا ويخضعون لسلطانه، ونظرا لأهمية مركز البابا أصبح له مركز الصدارة فى قيادة السياسة الإيطالية، إذ لم يكن له مركزه الدينى فحسب بل لقد استغل عدد كبير من البابوات مراكزهم وزجوا بأنفسهم فى السياسة وعاشوا حياة الغنى والترف.

وكانت فكرة الذين يؤمنون بحكم البابا الدنيوى تنبع من اعتقادهم بأن زعامته الروحية فى العالم المسيحى لا تكون فعالة إلا إذا أيدها ملك دنيوى، ومن هنا كان تدخل البابوات فى السياسة الإيطالية والأوروبية حتى أصبحوا عنصرا فعالا فى العلاقات الدولية بين إيطاليا كلها وبين الدول الأخرى.

ميلان

وهى دوقية تمتد فى الشمال وسط سهل لمباردى الخصيب، ولذلك توفرت لديها ثروة زراعية كبيرة إلى جانب ذلك ازدهرت زراعتها والتى كان أهمها صناعة المنسوجات الحريرية.

وكانت ميلان تحت حكم أسرة كبيرة هى أسرة فسكونتى Visconti والتى سعت لجعل ميلان مركزا للتوسع نحو المدن المجاورة وتأسيس حكومة تميل إلى الدكتاتورية العسكرية. وقد قام أحد حكام أسرة فسكونتى بتحويل ميلان إلى دوقية وأطلق على نفسه لقب الدوق، وقام التنافس بين دوقية ميلان وبين الدولتين الكبيرتين المتجاورتين لها وهما البندقية وفلورانسا.

وفى عام ١٤٥٠ انتقل الحكم فى الدوقية إلى شخصية عسكرية وهو فرانشيسكو سفورزا، الذى أسس أسرة جديدة بعد أن اقتنص الحكم من آخر سلالة أسرة فسكونتى وهو صبى صغير. وكانت هناك صلة قرابة تربط بين الأسرة المالكة

فى فرنسا وبين أسرة سفورزا مما جعل لميلان أهمية سياسية قصوى بالنسبة لفرنسا، وظلت ميلان محتفظة باستقلالها إلى أن أقدم أحد أفراد هذه الأسرة واسمه لودوفيكو سفورزا على الاتصال بفرنسا لتساعده على انتزاع الحكم من ابن أخيه القاصر والذى كان لودوفيكو وصيا عليه و لذلك يعتبره المؤرخون المسئول عن غزو شارل الثامن ملك فرنسا للأراضى الإيطالية، مما دعا الأسبانيين إلى التدخل وقيام الحرب والتى عرفت فى التاريخ باسم الحروب الإيطالية.

البندقية

كانت البندقية من أهم الولايات الإيطالية، نشأت فى أول أمرها مدينة مؤسسة على الجزر الممتدة فى شمال بحر الأدرياتيك فى المياه الضحلة المتصلة بالبحر ولذلك كانت شوارعها قنوات ومواصلاتها قوارب تعرف بالجندول. وكان طبيعيا أن يشتغل أهلها بالملاحة التجارية حيث كانت سفنها تجوب البحر المتوسط وتقيم علاقات تجارية بموانئ الشرق العربى ولاسيما الإسكندرية وتنقل البضائع الآتية من بلاد الشرق الأقصى، وقد نشطت هذه التجارة منذ العصور الوسطى، وعقدت البندقية صلات سياسية واقتصادية مع سلاطين مصر المماليك عادت عليها بالخير الوفير، وكادت تحتكر تصريف تجارة الشرق فى أوروبا، وأصبحت تتحكم فى الأسعار حتى جمع تجارها ثروات كبيرة واستلزم هذا تأسيس البنوك لتدعيم العلاقات التجارية مع الدول الأوروبية، وأصبح كبار التجار هم أصحاب النفوذ فى المدينة، وكونوا طبقة هى التى انحصر فيها الحكم، حيث أسسوا ما يشبه الإمبراطورية فى المياه الشرقية ضمت ساحل دلماشيا وجزيرة كورفو وكريت وقبرص وعدد كبير من جزر بحر إيجه وبذلك أصبح للبندقية سلسلة من المواقع تمتد على طول الطريق عبر شرق البحر الأبيض المتوسط.

وكانت البندقية جمهورية أوليجاركية Oligarchy [1]، السلطة فيها فى يد مجلس مكون من عشرة، ومجلس العشرة هو الذى ينتخب الحاكم؛ وأبناؤهم

(١) الأوليجاركية هى حكم القلة أو هى حكومة تهيمن عليها جماعة صغيرة همها الاستغلال وتحقيق المنافع الذاتية.

موزعون على المناصب الكبيرة فى الدولة، وتمتعت الجمهورية فى ظل هذا النظام باستقرار لم تتمتع به جيرانها حتى أصبحت ذات مركز مرموق عند الولايات الإيطالية الأخرى التى كان بعض أمرائها يلجأون إليها لعقد القروض أو المصاهرة من طبقة الأشراف.

وظلت حدود البندقية كما رأينا مقصورة عليها وعلى قطعة صغيرة من الأرض تحيط بها وحكم الجزر الواقعة فى المياه الموصلة إلى البحر المتوسط ولم تتوسع نحو الداخل فى الاراضى الإيطالية لأن عنايتها كانت موجهة إلى البحر وهمها منحصر فى تأسيس إمبراطورية تجارية تربطها بمنطقة الشرق وذلك لتأمين خطوطها البحرية.

على أن هذا المركز الذى تمتعت به البندقية ما لبث أن تضعضع بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح. بسبب عزم البرتغاليين الوصول إلى الهند من طريق آخر لا يتحكم فية البنادقة. بذلك بدأ معين المال ينضب من يد البنادقة الذين وجدوا أن الزعامة البحرية بدأت تفلت من أيديهم، يضاف إلى ذلك سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك عام١٤٥٣ ووصولهم إلى شرق البحر المتوسط حيث الجزر التى كانت تسيطر عليها البندقية، عندئذ لم يجد البنادقة بدا من البحث عن مخرج لهذا المأزق فولوا وجوههم شطر الأرض بدلا من البحر ورأوا أن تمد البندقية حدودها داخل إيطاليا نفسها، وكانت نتيجة هذا الاتجاه أن بقية الولايات اعتبرت أن فى السياسة الجديدة التى تريد البندقية اتباعها خطراً يهدد كيان كل منها، فقد كان واضحا أن أى اتساع تحققه البندقية سيكون على حسابها. ولذلك بدأت تنظر إلى البندقية بحذر شديد، وعلى ذلك تكون فلورانسا ونابولى وميلان حلفا كان مهمته كبح جماحها إن فكرت فى التوسع على حساب أراضيها.

فلورانسا

كانت فلورانسا من أكثر المدن الإيطالية ازدهارا، لا تقل اقتصاديا عن البندقية وتفوقها من حيث الثقافة ونشر الفنون. وكانت مركزا صناعيا فى المقام الأول ولذلك تكاثف فيها السكان وعلى الأخص عمال الصناعة الذين كانوا يشتغلون بصناعة

الأقمشة الصوفية. ومنذ العصور الوسطى ظهر فيها طبقة من كبار التجار وأصحاب البنوك استطاعوا أن يتحكموا فى مقادير الشعب وأصبح لهم فى الحكومة نصيب الأسد، وحرصوا على إخماد حركة نقابات الحرف التى حاول أعضاؤها تنظيم أنفسهم والمحافظة على مصالحهم.

ورغم تلك الخلافات الداخلية التى اتسم بها هذا العهد إلا أن أهل البلاد كانوا حريصين على الحرية السياسية، وفضلت فلورانسا أن تؤسس نوعا من النظام الجمهورى طال عهده أكثر من أى نظام فى المدن الإيطالية الأخرى ...

وفى النصف الأول من القرن الخامس عشر تمكنت أسرة من التجار وأصحاب البنوك، وهى أسرة ميديتشى Midici من الاستيلاء على الحكم عندما تمكن أحد رؤسائها كوزى مودى مديتشى فى عام ١٤٣٤ أن يقوم بثورة ضد الحكم ويؤسس جمهورية توالى على حكمها رؤساء من تلك الأسرة.

وكان أشهر من حكم من أسرة مديمتشى هو لورانزوا ديمتشى (١٤٦٩-١٤٩٢) الذى كان ملقبا بلورنزو الفاخر الذى طار صيته فى أنحاء أوروبا والذى اشتهر بأنه راعى النهضة الفنية وكان شاعرا يحب الشعر ويجمع من حوله الشعراء و الفنانين وبلغت فلورانسا فى عهده قمة مجدها وشهرتها فى الفن والأدب.

مملكة نابولى

أما البلاد الإيطالية التى كانت تقع فى أقصى الجنوب فكانت تختلف اختلافا بيّنا عن غيرها من الولايات، فمملكة نابولى كانت حكومة إقطاعية يحكمها ملك، ولم تتأثر بالنهضة التى نمت فى الولايات الإيطالية فى الشمال، و احتفظ مجتمعها بطابع العصور الوسطى، ولكن نظرا لاتساع رقعته فقدكان لها أثرها القوى فى مجرى السياسة الإيطالية، وبعد أن حكمتها فى العصور الوسطى ثلاث أسرات ملكية، انتقل العرش فى القرن الخامس عشر إلى أسرة كان لها صلة قوية بالأسرة المالكة فى أرجوان الأسبانية.

وكانت نابولى – لعدة قرون – فريسة لصراع الدول الأوروبية خارج إيطاليا ويرجع ذلك إلى عام ١٢٦٥ عندما منح البابا مملكة نابولى –بما فى ذلك صقلية – إلى شارل أنجو شقيق الملك لويس التاسع ملك فرنسا (وكان ذلك من خلال صراع البابا مع الامبراطور) وفى سنة ١٢٨٢ قام الصقليون بالثورة ضد أسرة أنجو، ودعوا ملك أرجوان بأسبانيا لتولى عرش بلادهم. وظل الأمر كذلك إلى أن استطاع الملك أرجوان أن يغزو مملكة نابولى ويضمها إلى حكمه، وظلت نابلى وصقلية تحت حكم أسرة تمت بصلة القربى لأسرة أرجوان، إلا أن فرنسا لم تسلم أبدا بأحقية تلك الأسرة فى تاج نابلى وتتطلع إلى الفرصة التى تسنح لها لاسترداد عرش نابلى، وقد تجلى ذلك فى الحروب الطويلة التى نشبت بين فرنسا وأسبانيا فى القرن الخامس عشر عندما أقدم الملك شارل الثامن ملك فرنسا على غزو إيطاليا عام ١٤٩٤. وقد غير هذا الغزو وجه شبه الجزيرة الإيطالية وأحدث أثرا واضحا فى تاريخ أوروبا الحديث، وذلك عندما قام النزاع بين فرنسا وأسبانيا كل منهما تدعى حق وراثة العرش فى مملكة نابلى وتسعى كل منهما إلى التوسع فى شبه الجزيرة الإيطالية .

***

تلك هى نظرة عامة ألقيناها على إيطاليا نخرج منها بفكرتين: الأولى : أن إيطاليا لم تستطع لعدة قرون أن تحقق الوحدة القومية والتى ظلت أملا بعيد المنال نظرا للظروف السياسية والاجتماعية التى عاشتها فى فرقة وخلاف، ورغم أن أبناءها أبناء جنس واحد، ويتكلمون لغة واحدة إلا أنهم لم يستطيعوا تحقيق الوحدة إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر. الثانية: أن إيطاليا كانت مهد حضارة عريقة وكان الشعب الإيطالى فى الولايات المختلفة يتمتع برخاء اقتصادى ورقى علمى وحب عميق للفنون والآداب جعل إيطاليا مركز إشعاع للنهضة الأوروبية.

الفصـــل الثانى

النهضـة الأوروبية

عندما ندرس التاريخ، نجد أن التطور الإنسانى يسير فى تيارات فكرية تتغير معها نظرة الإنسان إلى الحياة وإدراكة لمفاهيمها وتصرفاته إزاءها، ومن العسير أن نحدد تاريخا محددا لظهور هذه التغيرات الهامة فى مجرى التاريخ، أو الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة، فلكل عصر جذور تمتد فى أعماق العصر الذى سبقه، ولابد من وجود فترة انتقال طويلة تتفاعل فيها المثل والمفاهيم القديمة والجديدة معا حتى تستقر فى أذهان الناس إرادة التغير، ويبدأ بالتدريج عصر يختلف عن الذى سبقه فى كل نواحى الحياة، وقد يظهر هذا التطور فى أمة قبل ظهوره فى غيرها من الأمم، وتسبق غيرها نحو التقدم والحياة الأفضل .

وقد حدث ذلك فى فترة الانتقال فى أوروبا فى العصور الوسطى إلى العصور الحديثة، وهى الفترة التى اصطلح المؤرخون على تسميتها باسم عصر النهضة Renaissance بمعنى البعث الجديد أو بالمعنى الحرفى (الولادة الجديدة) وقد ظهرت حركة النهضة فى إيطاليا فى بدايتها وكان ذلك قبل منتصف القرن الرابع عشر، بينما لا نجد لها أثرا فى غيرها إلا بعد ذلك بزمن ليس بالقصير، فإنجلترا مثلا لم تظهر عليها النهضة إلا فى الربع الأخير من القرن الخامس عشر ونظرا لانتقال النهضة من إيطاليا إلى غيرها من الدول الأوروبية فى بطء شديد فقد طال عصر النهضة من أوائل القرن الرابع عشر إلى القرن السادس عشر بل إن أثرها لم يظهر فى الدول الأوروبية إلا فى أوائل القرن السادس عشر، وقد اتخذت النهضة أشكالا ومظاهر مختلفة باختلاف طبيعة البلاد التى ظهرت فيها، بينما ظهرت بمظهر الإصلاح الدينى فى بعض الدول الأوروبية كما فى ألمانيا وغيرها، ونجدها تتخذ شكلا فنيا فى إيطاليا، وقد ظهرت بوادر النهضة بظهور فكرة إحياء التراث القديم أو كما سماها المؤرخون حركة إحياء العلوم Revival of Learning .

حركة إحياء العلوم :

ظهرت تلك الحركة فى القرنين الأخيرين من فترة الانتقال أى من عام ١٣٠٠ إلى عام ١٥٠٠ حيث أخذ المثقفون فى المدن ينقبون عن الآثار المختلفة والمخلفات الأدبية اليونانية والرومانية القديمة، ويحاولون دراستها والاستفادة منها ولكن حركة إحياء العلوم لم تكن هى النهضة ذاتها بل هى مظهر من مظاهرها وبداية طيبة لها.

وقد عرف المشتغلون بهذه الدراسات الإنسانية Humanists لأنهم كانوا يهتمون بدراسة الإنسان نفسه وهذا يعتبر شيئا جديدا فى التاريخ البشرى. فقد تناست العصور الوسطى إنسانية الإنسان واهتمت فقط بصفاء روحه وقربه من الله، ومن هنا تفشت أفكار التقشف والصوم وإذلال الجسد، وتجلى ذلك بأجلى معانيه فى ظهور الرهبنة، ولم يجد الفن له منطلقا فى تلك العصور لأن النظرة كانت للروح وليست للجسد، ولم يكن هناك داع لإظهار مفاتن الجسم أو الاهتمام بالإنسان فى الأدب والفنون الجميلة كالرسم والنحت.

ولم يكن من الضرورى أن تكون جماعة الإنسانيين من طبقة الجامعيين أو رجال الدين، بل كانت أغلبيتهم الساحقة من عامة الشعب الذين اعتقدوا أن كتّاب الإغريق والرومان ومفكريهم وفلاسفتهم لم يكونوا رجال دين من الخاصة، بل ينتمون إلى عامة الشعب.

ولم يكتف الإنسانيون فى إيطاليا بالدراسة العميقة للإنتاج الفكرى القديم بل بدأوا يحاولون محاكاة أولئك الكتاب القدامى فى طريقة وأسلوب الكتابة. وترفعوا عن الكتابة باللغة الإيطالية، إذ لم تكن اللغات القومية فى نظر الإنسانيين صالحة للتعبير عن الآراء الدقيقة أو العميقة. وقد سار على هذا النهج الكتاب الأولون لعصر النهضة أمثال دانتى وبوكاشيو.

وقد ظهرت حركة الإنسانيين أول ما ظهرت فى إيطاليا ومنها انتشرت إلى مدن أوروبا وخاصة فى المدن الفرنسية والألمانية والهولندية وكان يغلب على الإنسانيين -وخاصة فى إيطاليا - الاعتداد بالنفس والثقة فى الإنسان وقدرته على التغيير وعظمته وتحقيق مثله العليا، والرجل الإنسانى فى نظرهم يجب أن يكون فنانا فصيحا فيلسوفا وشاعرا أخلاقيا، سياسيا، محبا للاطلاع، باحثا عن الشهرة والإبداع، وكانوا يعبرون عن أفكارهم بلغة فنية أدبية لاتينية، موجهين اهتماما خاصا لجمال الأسلوب وانتقاء الألفاظ.

وقد اعتمدت حركة إحياء العلوم على دراسة المخطوطات الإغريقية واللاتينية التى بحثوا عنها فى الكنائس والأديرة فى شبه الجزيرة الإيطالية وفى الولايات الألمانية وغيرهما، واهتم حكام الولايات الإيطالية بإيفاد باحثين ينقبون عنها ويشترونها بل ويتنافسون فى سبيل الحصول على أكبر قدر ممكن من هذه المخطوطات.

ويعتبر بترارك أول زعيم لتلك الحركة فقد كرس حياته فى إيطاليا لدراسة الأدب. وقد ولد في فلورانسا وأمضى حياته الدراسية الأولى فى توسكانيا. فقد أرسله والده فيما بعد إلى مونيلين لدراسة القانون ولكنه لم يستسغ تلك الدراسة فوجه اهتمامه لدراسة الآداب والفنون القديمة . وشاعت عنه أفكار جديدة وجريئة ظهرت فى كتاباته، حيث أوضح فى دراساته أن الإنسان يجب أن يهتم أولا بحياته على وجه الأرض قبل أن يوجه اهتمامه إلى أشياء تختص بالحياة الآخرة وانتقد الكنيسة بقوة وصراحة وتمنى أن يبدا الشعب الإيطالى بقيادة العالم نحو فلسفة جديدة. ولكن غاب عنه فى حياته أن الشعب الإيطالى كان فى ذلك الوقت والحين نهبا للانقسام والتنافس وأنه لا يستطيع آنذاك أن يوجه جهوده لتحقيق آرائه الجديدة.

ومهما يكن من شئ. فقد تأثرت النهضة الأدبية فى إيطاليا بآرائه وكتاباته، وكانت قصائده موضع اهتمام الأدباء الإيطاليين يشرحونها ويحللونها ويحاولون محاكاتها.

النهضة الادبية

ازدهرت الآداب منذ بداية عصر النهضة. وكانت ترتكز على تقليد القدامى فى كتابة القصائد الغنائية ورسائل الحب وتدبيج الملاحم والمآسى والمراثى والهجاء والاهتمام بجمال الأسلوب وانتقاء الألفاظ. ومع ما أدخلة كتّاب النهضة من تعابير مأخوذة عن اللاتينية والإغريقية إلا أنهم إلى جانب ذلك يبتكرون ويخلعون على إنتاجهم مسحة جديدة تميزت بها النهضة الأدبية، ولم يكن الأدباء الأقدمون بالنسبة لهم إلا نماذج للتعبير عن العواطف الشخصية، ولكنها كانت عواطف أديب القرن السادس عشر.

وتميزت هذة الآداب بأنها كتبت لِتُدخِل السرور والمتعة والإعجاب والتسلية على القارئ. ولم تهتم بتعليمه أو وعظه، ولاقى المسرح اهتماما كبيرا من أدباء النهضة حيث أخذت الملهاة والمأساة تقومان مكان المسرحيات الدينية التى كانت من سمات الأدب فى العصور الوسطى. فكانت أكثر واقعية وأكثر التقاءً بالعواطف الحقيقية للإنسان.

وهكذا أصبحت الآداب قومية يعبر بها الأديب عن شخصيته وشخصية شعبه وقد بز الأدباء الإيطاليون غيرهم من أدباء الشعوب الأخرى وتفوقوا عليهم فى التعبير عن عاطفة الفن والبحث عن الجمال.

أما فى فرنسا فقد كانت عناية الأدباء موجهة نحو الإبداع فى النثر، وتجلى ذلك فى القصص والمذكرات والتحليل الخلقى والنفسى. وفى إنجلترا ظهر المسرح المتنوع الملىء بالمفاجآت والمغامرات، وتحليل الإنسان فى خلقه وطباعه. وفى أسبانيا اهتم الأدباء بعواطف الفروسية وأبرزوا المثل العليا التى يتحلى بها الفارس.

النهضة الفنية.

تجلت روح النهضة بأحلى مظاهرها ومعانيها فى الفنون الجميلة، وكانت إيطاليا مهد تلك النهضة التى بدأت فيها مبكرة منذ القرن الخامس عشر، ثم تطورت عندما بدأ الاهتمام ببعث الفن الكلاسيكى القديم، وذلك فى الثلث الأول من

القرن السادس عشر، حيث كشف عدد من الفنانين النقاب عن جمال الآثار القديمة وأخذوا فى محاكاتها فى الروح والتعبير، ولكنهم فى الوقت نفسه تميزوا بالخلق والإبداع، يريدون أن يعبروا عن عواطفهم الشخصية محاولين أن يمثل إنتاجهم الفنى شخصيتهم المستقلة وروح العصر الذى يعيشون فيه، وكان الموضوع الأساسى فى الفن هو الإنسان نفسه والاهتمام بإبراز قوته وسيطرته ومتعه. فصوروا الإنسان جميلا والفتيات عاريات، ولم يعد الفن عملية نسخ آلى لقالب معين تفرضه سلطة الكنيسة، وإنما أصبح تعبيراً حراً عن عقلية الفنان وعبقريته.

وقد لعبت المدن الإيطالية دورا هاما فى سبيل تقدم الفنون لأنها كانت مراكز للحياة الفنية، يتنافس حكامها على الظهور بمظهر راعى الفنون ومالك أكبر وأفخر مجموعة من النفائس الفنية، وكانت روما بطبيعتها على رأس المدن الإيطالية التى أعلت الفن ورعت الفنانين، فلها من تاريخها وآثارها ومجدها القديم ما جعل فنان النهضة ينهل من وحى الماضى وفكر الحاضر الحر لكى يقتبس ويبتكر. وساعد كثير من البابوات على ازدهار النهضة الفنية فى روما وتشجيع كبار الفنانين على اتخاذ روما محراباً لفنونهم، فشيدت كنيسة القديس بطرس حيث تعاقب على تزيينها وزخرفتها كبار المعماريين والرسامين والنحاتين أمثال المعمارى برامانته، والرسام رافائيل وأخيراً مشيل أنجلو، ومن أشهر البابوات الذين استدعوا أولئك الفنانين البابا جول الثانى ١٥٠٣- تم تزيين قصر الفاتيكان الذى تجلى فيه أبدع ما لدى رجال الفن من نبوغ وعبقرية وخيال، والواقع أن بعض بابوات عصر النهضة كانوا يطمحون إلى تأسيس دولة علمانية وكان الشعور السائد حينئذ فى شمال أوروبا أن هؤلاء البابوات كانوا أشبه بالأمراء الإيطاليين الذين يعملون على توطيد سلطتهم الزمنية أكثر مما هو مفروض فيهم من العناية بالحياة الروحية والسهر على مصالح العالم المسيحى.

ولم تقتصر رعاية الفنون على روما بل كانت ميلان مهدا آخر لنشاط النهضة الفنية وقد رعاها «لودوفيك لومور» وإبنه «فرانسوا سفورزا»، كذلك حملت فلورانسا لواء النهضة وخاصة فى عهد لورنزودى مديتشى الذى كان قصره بمثابة أكاديمية

فنية، حيث كان يؤمه عدد من الفنانين مهدوا الطريق أمام نوابغ الفن فى القرن السادس عشر أمثال ليوناردو دافنشى ومشيل أنجيلوا ورافائيل،. ومع أن هؤلاء الفنانين مهدوا الطريق أمام نوابغ الفن فى القرن السادس عشر إلا أنهم عالجوا رسم لوحاتهم بروح إنسانية دنيوية. فجعلوا الرغبة فى الكمال الفنى هى الأساس، ثم يأتى التعبير الدينى على هامشها، هذا فضلا عما تميز به إنتاجهم من إبراز جمال الوجه وتناسق الجسم، والعناية بجمال الطبيعة، والقدرة الفائقة فى توزيع الألوان والظلال والأصباغ. والإهتمام بتوضيح العواطف الإنسانية المختلفة بدلا من التزمت فى إضفاء الجلال والتدين والمهابة على صور الأشخاص.

ونستطيع دراسة تطور فن التصوير فى إيطاليا من خلال دراستنا لحياة وإنتاج بعض فنانى ذلك العصر.

ليوناردو دافنشى (١٤٥٢-١٥١٩).

ولد ليوناردو دافنشى فى بلدة فنشى الجبلية على مقربة من فلورنسا، وقد نشأ مغرما بدراسة الرسم والنحت والمعمار والرياضة والهندسة، وفى الوقت نفسه كان يهوى الأدب والموسيقى والشعر والجيولوجيا وعلم وظائف الأعضاء وعلم التشريح. قد درس الفن فى فلورنسا فى مرسم أحد كبار الرسامين والنحاتين. ثم التحق بوظيفة لدى لودفيكو سفورزا فى ميلان (عام ١٤٨٢). وقضى فى ميلان حوالى عشرين عاما رسم خلالها صورتيه الشهيرتين عذراء جروتو Virgin of the Grotto والعشاء الأخير Last Supper وقد دل بصورة العشاء الأخير على أنه متعمق فى إدراكه للنفس البشرية وانفعالاتها وردود أفعالها، وذلك فى المنظر الرائع الذى جمع بين المسيح وحوارييه الإثنى عشر، وهو يعلن لهم أن أحدهم سوف يخونه، وقد ظهر وجه المسيح بصفائه الروحانى وهدوئه الكبير بينما الانزعاج على وجوه أتباعه.

وقد واصل ليورناردو دراساته وأعماله فى ميلان فقد كان مهندسا إلى جانب مواهبه الفنية، وعندما اضطر لودفيكو سفورزا إلى مغادرة ميلان فى طريقه إلى المنفى أيام الغزو الفرنسى لها عام ١٤٩٩، عاد ليوناردو إلى فلورنسا، وهناك بدأ رسم رائعته

الشهيرة «موناليزا» أو «جيو كوندا» (١٥٠٦) وهى صورة لسيدة شابة جميلة، وهى زوجة لضابط يكبرها اسمه «فرانشسكوا دل جيو كوندا»، وكان حاكم فلورانسا معجبا بجمالها الهادىء الحزين فأمر ليورنادو برسمها، فوضع الأخير كل طاقاته ونبوغه ومواهبه فى إبداع تلك الصورة بما كانت تحمله موناليزا من مشاعر عميقة وعواطف دفينة، وقد استغرقت الصورة منه أربع سنوات حتى خرجت رائعة خالدة لا تزال موضع الإعجاب حتى اليوم[١].

وفى أيامه الأخيرة، كرس ليوناردو معظم وقته للدراسات العلمية، وقد أمضى السنين الأخيرة من حياته فى بلاط فرانسوا الأول حتى قضى عام ١٥١٩.

ميشيل أنجلو ١٤٦٤-١٥٧٥م

كان ميشيل أنجلو من عمالقة الفن فى عصر النهضة. ولد فى كابريسه Caprese بالقرب من فلورانسا، وقد كرس وقته عندما كان شابا فى فلورانسا لفن النحت حيث ذاع صيته وخصوصا عندما قام بنحت المجموعة الرخامية الشهيرة التى تمثل العذراء والطفل. رغم أنه كان يفضل فن النحت على أى فن آخر إلا أنه كان متفوقا فى التصوير وهندسة البناء ومغرما بكتابة الشعر.

وقد دعاه البابا يوليوس الثانى إلى نحت ورسم سقف كنيسة سيستين **Sistine** فى الفاتيكان، وقد أمضى ميشيل أنجلو أربعة أعوام ونصف العام يقوم بتلك المهمة التى كرس كل وقته وبذل فيها كل جهده الفنى. وقد كان يعمل مستلقيا على ظهره فوق منصة عالية حتى أتم ذلك الإنتاج الرائع الذى يعتبر أعجوبة من أعاجيب الفن فى التاريخ، وله آثار أخرى فى النحت تنطق بعبقريته كتمثال العذراء مع المسيح المقام فى كنيسة القديس بطرس فى روما، وتمثال داود العظيم المنحوت من الرخام، وقد نصب هذا التمثال أمام قصر الإمارة فى فلورانسا.

---

(١) إن الذى رفع من شأن هذه الصورة وخلد شهرتها هى تلك الابتسامة الغامضة وما يصحبها من بريق فى عينيها، وانثناء إلى أعلى من شفتيها ينم عن السرور الذى لم تحاول كبته ولا تزال تلك الابتسامة موضع نقاش واجتهاد الفنانين فى تفسيرها.

رافاييل ١٤٨٣- ١٥٢٠م

ويعتبر رافاييل ثالث الثلاثة الكبار عمالقة الفن، درس التصوير فى فلورانسا واشتهر اسمه رغم صغر سنه. وقد تلقى أول دروسه على والده جيوفانى سانتى. ثم تلقى قواعد الفن على يد «بيروجينو» وهو فنان كبير من بيروجيا Perugia وأخيراً ذهب إلى روما حيث سحرته أعمال ليوناردو وأنجلو الفنية. وقد تعلم رافاييل من «يبيروجينو» إدراك الأبعاد. ومن ليوناردو استوعب أساليب توزيع الضوء والظل فى إبداع الصور، وتأثر بعبقرية ميشيل أنجلو فى دراسة الجسد الإنسانى، ولكنه فاقهما فى توافق الألوان، ولم يكن تلميذاً يقلد أساتذته بل لقد استفاد منهم ثم بزهم فى الابتكار والإبداع. واختلف عنهم فى أنه لم يكن واقعيا يرسم نماذجه كما هى فى الطبيعة، بل كان يبدع فيها طبقا للفكرة التى كونها فى ذهنه.

وقد دعاه البابا يوليوس الثانى للإشتراك فى تزيين قاعات الفاتيكان، وقد استطاع فى ستة أشهر أن يبدع بالتصوير الجصى على الجدران روائع فنية تنطق بنبوغه وعبقريته. منها «مدرسة أثينا» التى أوضح فيها خلاصة تاريخ الفلسفة، و«السر المقدس» لخص فيها «تاريخ الكنيسة».

وله روائع أخرى يجل عنها الوصف. ولكنه مات فى شرخ شبابه قبل أن تستفيد النهضة الفنية منه كل طاقاته.

النهضة العلمية.

كانت الحياة العلمية فى العصور الوسطى مقيدة بقيود الكنيسة ولذلك كانت الكشوف العلمية نادرة، ولم يستطع المشتغلون بالعلم أن يفكروا بطريقة فردية، بل كانوا يعتقدون فيما قاله أسلافهم، واضعين نصب أعينهم تطابق العلم بما ترضى عنه الكنيسة. بينما كان بعض البابوات يحاربون أية دراسة حرة إذا لم تتمش مع الدراسات الدينية. على أن اتصال الأوروبيين- وعلى رأسهم الإيطاليون- بالحضارة الإسلامية منذ القرن الحادى عشر ساعد أوروبا على أن تبدأ نهضة علمية بلغت أوجها فى أوائل القرن الثالث عشر. وقد غزت الحضارة الإسلامية أوروبا من خلال

وصول العرب إلى أسبانيا، وجزيرة صقلية. ومن خلال الحروب الصليبية، ونزوح طلاب العلم من غرب أوروبا إلى مراكز الحضارة الإسلامية.، وكانت تلك الاتصالات بداية لظهور التفكير العلمى الحر. فقد كان العرب قد نهلوا من التراث الإغريقى، فدرسوه ونقدوه وصححوه وأضافوا إليه من نتاج بحوثهم ومكتشفاتهم.

ولم تكن تلك البداية نهضة علمية حقيقية ولكنها كانت بذورا نمت وترعرعت من القرن السادس عشر ثم بلغت عظمتها فى القرن السابع عشر، وقد ساعدت الحركة الإنسانية على ظهور النهضة العلمية فقد كان معظم علماء النهضة ينتمون إلى تلك المدرسة. يهتمون بتحقيق النظريات العلمية ووصف ظواهر الطبيعة وصفا جديداً قائما على الملاحظة والعلوم الرياضية. ففى علم الفلك ظهرت نظرية الفلكى كربرنيك التى محت الفكرة القديمة بأن الأرض ثابته والشمس والكواكب تدور حولها، وأثبت بما لا يدع مجالا للشك أن للأرض حركة دائرية كسائر الكواكب وأنها تدور حول الشمس.

وقد شهد القرن السادس عشر أيضا نهضة فى علم الطبيعة (الفيزياء) والرياضيات والطب والعلوم الطبيعية والتجريبية وعلم التشريح (الفسيولوجيا).

وبالجملة فإن عصر النهضة يعتبر عصر تحليل وانتقال من قيود العصر الوسيط. وفيه أصبحت التجارب العلمية شرطاً أساسياً لتثبيت قواعد العلم الصحيح ووضع النظريات فى مستوى القوانين العامة.

أما العلوم الاجتماعية والسياسية فقد ازدهرت فى إيطاليا بعد أن تحرر الفكر وظهرت مفاهيم جديدة للإنسان، وظهر مفكرون درسوا أصول الحكم والسياسة والاجتماع، وكان أشهرهم فى تاريخ الفكر السياسى ماكيافيللى (١٤٦٩-١٥٢٧).

ماكيافيللى (١٤٦٩-١٥٢٧) Machiavelli:

نشأ نيقولا ماكيافيللى فى فلورانسا. فى عهد أميرها «لوران الفاخر». وكان حريصا منذ صباه على تثقيف نفسه ثقافة تاريخية وسياسية، قرأ خطب شيشيرون

وكتبه فى السياسة. والياذة فرجيل. وكتابات أرسطو. وقد تدرج فى المناصب الحكومية فى فلورانسا منذ أن التحق بخدمة حكومتها عام ١٤٩٨ أمينا لمجلس العشرة الذى كان مكلفا بتأمين العلاقات الإدارية مع المدن التابعة لفلورانسا. وعهد إليه فى الوقت نفسه بأمانة سر إدارة الجمهورية.

وكان ماكيافيللى يؤيد نظام الحكم الجمهورى ويندد بالحكم الإستبدادى بعد أن تعمق فى الموازنة بين الحكم الجمهورى فى روما القديمة وعصر الإمبراطورية الرومانية الألمانية التى عاصرها ماكيافيللى، وكان يكره رجال الكنيسة ويحتقر الرهبان لأنهم فى نظره مراءون مخادعون، ولكنه لم يكن يكره السياسى المخادع إذا خدع الشعب لمصلحة الشعب.

وقد اشترك فى أعمال سياسية كثيرة كُلِّف بها من قبل الحكومة عندما كان أمين سر الدولة، فقد أوفدته حكومة فلورانسا فى عدة مهمات سياسية خارج فلورانسا، وعلى الأخص لدى بلاط فرنسا فى عهد لويس الثانى عشر فى عامى ١٥٠٠ و١٥٠٤، وإلى روما سنة ١٥٠٣، وقد أفادته كثيراً تلك البعثات السياسية وأطلعته على أسرار السياسة الأوروبية والعلاقات الدولية.

وحاول أن يبشر بآرائه فى جمهورية فلورانسا، حيث كان يراها ضعيفة تتسلط عليها الأطماع الشخصية وتتنازع فيها الأحزاب وأنها تعيش بغير جيش وطنى يجمعها بدلا من الاعتماد على الجنود المرتزقة، ولكن ذهبت صيحاته أدراج الرياح. وضعف شأنه عندما عاد آل مديشى إلى الحكم فى صيف عام ١٥١٢ وسقطت الجمهورية الفرنسية، ولم تعد له حظوة فى البلاط الجديد. عندئذ تفرغ للتأليف، ووضع كتابه «الأمير»، ضمنه كل أفكاره عن أصول الحكم وفن السياسة مستوحياً آراءه من دراساته التاريخية عن الحكم اليونانى والإمارات الإيطالية منذ العصور الوسطى حتى العصر الذى عاش فيه. وقد انتهى فى كتابه إلى أن خير حكم يرجوه لبلاده هو الحكم الاستبدادى المستنير الذى يتجاهل المثل الخلقية والدينية إن كان فيها ما يعرقل نجاحه أو يوقف تقدمه.

وقد رأى ماكيافيللي أن يكون كتابه عن أمير وطني يتخيله منقذاً لإيطاليا من الانقسام والغزو الأجنبي. فيقدم له النصح والإرشاد والحكمة السياسية. واضعا نصب عينيه مبدأ الغاية تبرر الوسيلة حتى ولو اختلفت الوسيلة مع المبادىء الخلقية المتوارثة، وليس معنى هذا أن تطبق تلك النظرية في كل الظروف إذ نجد في كتابه بعض الإرشادات التي تتمسك بالمبادىء الخلقية ما دامت هذه المبادىء لا تقف حجر عثرة في سبيل تأسيس الدولة القوية، وبذلك كان يميل إلى الواقعية، وبذلك تتكون الدولة التي يقوم فيها الأمير بتوحيد البلاد ورأب الصدع وجمع شتات الوطن الإيطالي الممزق، وأن يكون هدفه المصلحة العليا للبلاد. وينتهي ماكيافيللي إلى نصح الأمير بأن يكون إنسانا وطاغية في وقت واحد معا، وإن لم يكن كذلك (فلا بقاء له)، وعليه أن يكون مخادعاً عند اللزوم، ولا يرتبط بوعد بذله ولا بعهد قطعه على نفسه. وألا يعطي الحرية للناس إلا بقدر، لأنهم في كثير من الأحيان يسيئون استعمال الحرية، ويستغلون مركزهم، كذلك يطلب من «الأمير» أن يتخذ الحزم والقسوة أسلوبا يحكم به الرعايا حتى يخشوا بأسه ويحذروا بطشه، وفي الوقت نفسه يعمل على إسعادهم بالسعي في إقامة مشروعات نافعة تدر عليهم الخير الوفير. وبذلك يرهبونه ويحبونه في وقت معا. ولكنه أصر على ألا يحرم الناس من ممارسة الحرية في ظل طاعة الحاكم، حتى يأمن كراهيتهم من المؤمرات التي قد تدبر ضده.

وأخيراً، يعود إلى رأيه الذي طالما نادى به، وهو أن الدولة التي لا جيش لها، ليست في مأمن من الخطر الداخلي والعدوان الخارجي، فعلى «الأمير». أن يجند جيشا وطنيا يرهبه ويخلص له، وأن يختار وزراءه وحاشيته من أفاضل الرجال وحكمائهم ويفتح بابه لأصحاب المواهب والكفايات حتى تصبح حكومته جمهورية مثالية تخشاها الرعية وتلتف حولها.

وقد انتشرت آراء ماكيافيللي في عدد من الدول الأوروبية التي حاول ملوكها تطبيق نظرياته كفرنسا في عهد الملكة الوالدة كاترين دي مديتشي ولويس الرابع عشر، وبروسيا في عهد فردريك الأكبر، وغيرهم من حكام أوروبا في القرنين السادس عشر والسابع عشر.

الفصل الثالث

التوسع الأوروبي
وحركة الكشوف الجغرافية

بدأت حركات التوسع الإستعمارى منذ العصور القديمة، وقد مارستها أوروبا منذ أن قام الإسكندر الأكبر يسوق الإغريق إلى حروب توسعية وصلت إلى حدود الصين. وسار الرومان على نفس الطريقة فى تأسيس إمبراطوريتهم التى امتدت من بريطانيا شمالا. وشملت غرب أوروبا، وحوض البحر الأبيض المتوسط ، وغربى آسيا حتى البحر الأحمر. ثم تلا ذلك ما حدث من حركات الغزو التى تعرضت لها أوروبا وكان لها أخطر النتائج فى المجتمع الأوروبى وتغيير نظمه وحياته، وقد سجل التاريخ تلك الغزوات التى تقاطرت على أوروبا كغزوات القبائل الجرمانية لوسط أوروبا وغربها، والمجريين والصقالبة لشرقى أوروبا ووسطها، وقبائل الشمال الإسكندنافيين لشمال أوروبا، ثم غزوات المسلمين لشبه جزيرة إيبريا ومحاولتهم التوغل فى جنوب أوروبا.

وبعد فترة طويلة استقرت الغزوات والهجرات، وعندئذ اتخذت أوروبا تشكيلها السياسى الذى ظهر فى العصور الوسطى، وبدأت العلاقات بين الدول الأوروبية تتطور وتتنظم. وجاء دور أوروبا لتستجمع قواها وتوجه نشاطها نحو التوسع والاستعمار الخارجى. تبدؤه بحوض البحر الأبيض المتوسط الذى ظل مركز النشاط السياسى والاقتصادى فى العالم.

وكانت الروح الدينية - أو الصليبية- هى الدافعة إلى حركات التوسع الأوروبى فى العصور الوسطى ولذلك دامت تلك الحروب نحو قرنين من الزمان- وظلت تلك الروح تسيطر على أوروبا، ولكنها كانت كامنة لا تحمل الاسم الصليبى إلى أن حركتها دوافع الكشف الجغرافى والتوسع فيما وراء البحار وألهبها كفاح الأسبان والبرتغال لاستخلاص بلادهم مما بقى فى أيدى المسلمين.

وقد كان من أهم النتائج الاقتصادية للحروب الصليبية أنها فتحت أبواب الأسواق التجارية فى الشرق ومهدت لقيام العلاقات التجارية والاقتصادية بين الشرق والغرب وسعت المدن الإيطالية- وخاصة البندقية- إلى احتكار تلك التجارة وعادت عليهم بالأرباح والثروات.

وخلال قرنين من الزمان بعد عام ١٤٥٠ وقعت مناطق واسعة من العالم تحت النفوذ الأوروبى، فقد استطاع رواد مغامرون من أوروبا أن يكتشفوا ساحل أفريقيا، وشمال وجنوب أمريكا، وجميع المنافذ المائية التى توصل إلى الهند، وجزر عديدة فى المحيط الأطلنطى والمحيط الهادى، وبذلك وضع الأوروبيون أيديهم على معظم أنحاء العالم وكان ذلك أساسا للإستعمار الأوروبى الذى استمر قرونا وكان سببا فى تغير مجرى التاريخ الحديث.

وقد كانت أجزاء كبيرة من العالم مجهولة لا يعرف الأوروبيون عنها شيئا فى بدء القرن الخامس عشر، فلم يعرف أحد شيئا عن وجود قارة بأكملها فى الغرب، وكانت معلوماتهم عن وسط وشرق آسيا غامضة باهتة عن طريق ما وصلهم من قصص الرحالة أمثال ماركو بولو، وكل ما أراده الأوروبيون فى أفريقيا لم يتعد السواحل الشمالية والشرقية ورغم أن قدماء الإغريق قدروا أن الأرض كروية، إلا أن الفكرة التى كانت سائدة بين سكان العالم أنها مسطحة، وكانت فى أذهانهم أصغر بكثير من حقيقتها التى أوضحها المكتشفون فيما بعد وكانوا يتصورون آسيا فى ثلثى مساحتها وأن الهند تحتل أكبر مساحة فى جنوب شرقى تلك القارة.

وكان الدافع الاقتصادى هو أول الدوافع التى أوحت للأوروبيين بالاتجاه نحو الكشف عن تلك البلاد المجهولة والطرق البحرية الجديدة بين أوروبا والهند، فقد كانت تجارة الشرق لا تصل إليهم إلا بعد أن تمر فى عدة احتكارات ترفع أسعارها وتجعلها فى بعض الأحيان نادرة. فهم يدفعون رسوما جمركية فادحة يفرضها حكام مصر والشام. بالإضافة إلى احتكار تجار جمهورية البندقية نقل تلك البضائع من الموانى السورية والمصرية إلى أوروبا، وهكذا لجأت الدول الأوروبية الحديثة إلى حل

المشكلة حتى تحقق هدفين: أولهما التخلص من احتكار البنادقة بالوصول إلى أسواق الشرق مباشرة دون أية وساطة، والثانية ترمى إلى مهاجمة القوى الإسلامية والعربية، ورأت تلك الدول أن البحث عن طرق بحرية جديدة تحقق رجاءهم هو السبيل الوحيد للوصول إلى طرق جديدة لا تملكها مصر أو الدولة العثمانية أو تحتكرها البندقية ليحصلوا على المنتجات الشرقية بأقل الأثمان.

ولا شك أن الدافع الدينى كان له أثره الفعال أيضاً فى نشاط المغامرات الاستكشافية فقد كان الأوروبيون- وعلى الأخص الأسبان- تصلهم معلومات عن بلاد يستطيعون جعلها ميداناً للتبشير بالمسيحية الكاثوليكية والتوغل فيها عن طريق الدين. وفى الوقت نفسه كانت لهم أهداف انتقامية موجهة نحو المسلمين، ومن دلائل ذلك الطابع الدينى أن الملاح البندقى خرستوف كولومبس الذى كلفه الأسبان بالقيام برحلته غربا حتى يصل إلى الهند وأسواق الشرق، راح يتحدث عن عزمه على استخدام ثروة الشرق التى ستقع بين يديه فى استخلاص بيت المقدس من المسلمين. كذلك كان الأمير البرتغالى «هنرى الملاح» وهو الذى قام بحروب تشبه الحروب الصليبية ضد المسلمين فى شمال أفريقيا عام ١٤١٥- يأمل فى أن يؤدى ارتياد الساحل الغربى لأفريقية إلى هدفين، أولهما الوصول إلى أسواق الهند والشرق وثانيهما الوصول إلى مملكة القديس يوحنا فى شرق أفريقيا، وهى المملكة المسيحية التى كان الأوروبيون يتسامعون عنها ويتناقلون أخبار قوة حاكمها ويؤملون من محالفتها لعلهم يتخذونها قاعدة فى قلب أفريقيا للانقضاض منها على الدول الإسلامية التى كانت تحتكر التجارة.

الكشوف البرتغالية:

كانت دولة البرتغال أول دولة بحرية قامت بسلسلة من المغامرات التى انتهت بكشف مواقع هامة وبلاد جديدة، وساعدها على النجاح أن توافرت لها الأدوات اللازمة من علم وخبرة وسفن متطورة هذا بالإضافة إلى الانتفاع باختراع البوصلة البحرية والتعمق فى إدراك حركات الكواكب والنجوم واختلاف الأجواء والاعتقاد بكروية الأرض وزيادة الاهتمام بعلم الجغرافيا.

الأمير هنرى الملاح (١٣٩٤-١٤٦٠):

وترتبط حركة الكشف والتوسع البرتغالى بحياة الأمير هنرى الملاح الابن الثالث لملك البرتغال «يوحنا الأول»، وقد كان هنرى متديناً شديد التعصب، اهتم منذ صباه بالدراسات الجغرافية والفلكية، فكان يجمع الخرائط الجغرافية ويدرسها دراسة دقيقة، ويدرس الأجرام السماوية والطرق البحرية وحركات الرياح التى تساعد على الملاحة التى كانت معروفة فى تلك الأيام وهى الملاحة الشراعية، وعنى عناية قصوى بالعمل على تطور بناء السفن تطوراً يساعد الملاحين على الاطمئنان عند الإبحار إلى المحيطات والتوغل فيها.

وقد اشترك فى عدة مغامرات حربية ضد بلاد المغرب فى شمال أفريقية بحجة القضاء على القرصنة فى شمال أفريقيا، ولما نجح فى الاستيلاء على مدينة (سبتة) على الشاطىء الشمالى الإفريقى عينه أبوه حاكما عليها. وحاول التقدم نحو طنجة للاستيلاء عليها وانتزاعها من المجاهدين المغاربة إلا أنه فشل فى احتلالها، فحول جهوده نحو الشواطىء المراكشية على المحيط الأطلسى وتم له إخضاع أفريقية الشمالية الغربية من نهر السنغال إلى غانا. وتطبيقا لمبادئه، اهتم بنشر المسيحية فى تلك الأرجاء، فقد كانت الروح الصليبية مسيطرة عليه، تقوده إلى المغامرات التى قام بها لنشر المسيحية فى أفريقيا، ولما كانت مشروعات التوسع البرتغالى فى تلك المناطق تحتاج إلى المال الوفير، رأى أن يسعى للحصول على النفقات التى تكفل نجاح مشروعه، ووجد فى اقتناص الرقيق من القارة الإفريقية والاتجار به بابا يدر الأموال على حكومته لتستطيع إنشاء إمبراطورية برتغالية وتحقيق تلك الرغبة الدينية التى ملكت حسه حتى اعتقد كثير من المؤرخين أن هنرى كان يرغب فى عقد أواصر الصداقة والصلات الدينية مع القديس يوحنا حاكم الحبشة المسيحى، وكان لهذا الحاكم شخصية أسطورية تناقلتها الشعوب المسيحية فى أوروبا فى ذلك الحين، وأن مملكته فى قلب أفريقيا تعتبر حصنا للمسيحية فى تلك الأقطار النائية المجهولة لهم. وكان هنرى يهدف إلى الاستعانة به فى نجاح مغامراته الأفريقية، ويعتقد أن باستطاعة البرتغاليين -إذا تم لهم عقد الصلات مع الملك يوحنا- أن يؤمنوا أنفسهم عندما

يتقدمون عن طريق نهر السنغال ويصلون إلى مملكته. ثم يتقدمون منها إلى البحر الأحمر وموانى بلاد العرب ثم إلى الهند والصين. وبذلك يحقق الهدف الأكبر بوصولهم إلى الشرق الأقصى من أقصر طريق وذلك يبعدهم عن الطرق التجارية القديمة وأخطارها.

ومهما يكن من شيء، فقد نجح هنرى فى ارتياد جانب كبير من المحيط الأطلسى وبدأت الكشوف الجغرافية بالكشف عن بعض الجزر فى ذلك المحيط، وهى جزائر ماديرا وجزر آزور Azor وكنارى Canary، وتحقق له هدف آخر وهو مواصلة ارتياد الساحل الغربى لأفريقيا، وذلك عندما واصلت بعوثه جهودها وتحقق فى عام ١٤٤١ للبرتغاليين الاتصال الحقيقى بالبقاع الأفريقية واستغلوا الأراضى الغنية بغاباتها. وأتموا ارتياد الساحل الأفريقى ورسموا له الخرائط وعينوا عليها المعالم الجغرافية الهامة.

وفى عام ١٤٦٠– وهو العام الذى توفى فيه الأمير هنرى الملاح – اكتشف البرتغاليون جزائر خليج الرأس الأخضر، ورسموا خرائط لساحل السنغال وغمبيا، وهكذا استطاع هنرى أن يحقق– قبل وفاته – إرتياد نحو ثلث الساحل الأفريقى الغربى، وأقاموا عليه نقطاً حصينة اتخذوها مراكز حربية وتجارية لهم.

ومات هنرى الملاح قبل أن يشهد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ووصول البرتغاليين إلى الهند عن طريق البحر.

وعمل الملك جون الثانى (يوحنا الثانى) على مواصلة جهود الأمير هنرى الملاح، فأرسل فى عام ١٤٦٢ بعثة بحرية إلى ساحل ليبيريا، ثم وصل البرتغاليون إلى ساحل الذهب، ونيجيريا، والكمرون، ووصلوا إلى مصب نهر الكونغو، وأصبحوا يحتكرون الملاحة على الساحل الأفريقى الغربى بحيث لم يسمح لبحارة الدول الأخرى بالملاحة هناك إلا بتصريح خاص تمنحه حكومة البرتغال.

وقد ساعد على نجاح البرتغاليين أنهم استعانوا بالمعلومات الملاحية التى عرفها العرب وسبقوا بها الأوروبيين عدة قرون، فقد كان ملاحوهم يجوبون أرجاء المحيط

الهندى ومياه الملايو وبحر الصين. بالإضافة إلى تجاربهم الملاحية الأصيلة فى البحر الأحمر، بل وفى الساحل الأوروبى والأفريقى للمحيط الأطلسى وغرب أفريقيا. ولذلك اهتم البرتغاليون قبيل قيامهم بالمغامرات الكشفية بالحصول على هذه المعلومات بإرسال بعثات إلى البلاد العربية استطاعت الحصول على بعض الخرائط التى رسمها العرب للمحيط الهندى وبحر الصين بالإضافة إلى ما جمعوه من دراسات عربية عن التيارات البحرية ومواعيد الرياح والحاصلات الشرقية.

وقد تعطلت جهود البرتغاليين فى الكشف الجغرافى بسبب قيام الحرب بين الأسبان والبرتغال فيما بين عامى ١٤٧٥و ١٤٧٩، وكذلك ما حدث من اضطرابات داخلية أوقفت الحملات الكشفية عدة سنين.

ولكنهم عاودوا نشاطهم فى عام ١٤٨٧ عندما أرسل الملك يوحنا الثانى بعثة كشفية يرأسها الملاح الكبير برثلميودياز.

برثلميودياز Bartholomeo Diaz :

وكان هدف بعثة برثلميودياز ارتياد بقية الساحل الأفريقى بالدوران حول القارة بقصد الوصول الى الهند عن طريق البحر مباشرة (وذلك بدلاً من الطريق القديم، طريق البحر المتوسط مارا ببلاد الشرق العربى) وقد نجح دياز فى ارتياد الساحل نحو الجنوب حتى وصل إلى خليج ألجوا Algoa فى جو عاصف. وسماه خليج الزوابع. ثم فى عام ١٤٨٨ إلى البرتغال مبشرا بأن الطريق إلى الهند أصبح واضح المعالم ولذلك رأى الملك أن يغير اسم الخليج وسماه (الرجاء الصالح) لأنه بعث الرجاء فى كشف الطريق البحرى المباشر إلى الهند.

وفى الوقت الذى نجح فيه البرتغاليون فى مغامراتهم الكشفية، كانت أسبانيا تسعى من جانبها فى الوصول إلى الهند عن طريق الاتجاه غربا، وعهدت بذلك إلى الرحالة الجنوى (خرستوف كولمبس) فى عام ١٤٩٢ كما سنرى.

وسرعان ما نشب الصراع بين أسبانيا والبرتغال. إذ كانت كل منهما تسعى إلى تأمين حقها فى الأراضى الجديدة التى كشفتها. والطرق الملاحية التى اهتدت إليها، والثروات التى توقعت أن تهبط عليها.

ولما اشتد النزاع بين الدولتين، اتجها إلى تحكيم البابا «اسكندر السادس» وقررا قبول حكمه، ونظر البابا فى الأمر، ثم أصدر حكمه بأن «تقتسم أسبانيا والبرتغال كل الأراضى والجزر التى تم كشفها بالفعل. والتى سوف تكتشف بعد ذلك فى الغرب وباتجاه الهند أو اتجاه المحيطات»[1].

وكان هذا الحكم البابوى أساسا للمعاهدة التى عقدت بين البلدين وهى معاهدة «توردسيلاس» (١٤٩٤) Tordessillas التى قضت بأن تستولى البرتغال على كل المكتشف شرقى خط وهمى يرسم بطول المحيط الأطلسى على بعد ٣٧٠ ميلا غربى جزائر الرأس الأخضر، على حين يعطى لأسبانيا كل شيء يقع غربى هذا الخط، وهكذا مكن هذا الخط الذى قرره البابا البرتغال من المطالبة بأن تكون البرازيل من نصيبها وحدها.

بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح (فاسكوداجاما).

ومضى البرتغاليون بعد كشف رأس الرجاء فى مغامراتهم فى الشرق لاحتكار منتجاته ومحاولة ضرب القوى الإسلامية بحرمانها من أسباب نموها وتطورها الاقتصادى فأعدت حملة بحرية بقيادة (فاسكودا جاما) لتكملة ارتياد الطريق الجنوبى الأفريقى، ومواصلة الرحلة الى الهند، ونجح الملاح من تحقيق هذا الهدف، وتمكن من إتمام الدوران حول جنوبى أفريقيا، ووصل إلى ساحلها الشرقى نحو موزمبيق، وهناك تعرف ببعض الملاحين العرب، وأخذ منهم مرشدا بصيرا بأمور الملاحة وطرقها وأسرارها اسمه (أحمد بن ماجد). وساعده ابن ماجد على الوصول

(١) عارضت شعوب فرنسا وهولندا وانجلترا صدور هذا التحكيم البابوى باعتباره اعتداءً صارخا على حرية البشر وتساءلوا بأى حق يتولى البابا (وهو من أصل أسبانى) تقسيم العالم الجديد بين الأسبان والبرتغاليين.

إلى الساحل الغربى للهند، وهناك استطاع الاتصال بالأمراء الهنود وعقد معهم الاتفاقات التجارية، ثم عاد إلى بلاده سنه ١٤٩٩ وسفنه مشحونه بالتوابل والمنتجات الشرقية، وبذلك تحقق للبرتغال كشف طريق بحرى مباشر إلى الهند.

وكان هكذا الكشف أكبر ضربة اقتصادية وجهت للعالم الاسلامى وخصوصا فى مصر، اذ انتقل المركز التجارى العالمى من حوض البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الأطلسى، وكان لهذا الانتقال أسوأ الأثر فى تجارة الدول التى سواحلها حوض البحر المتوسط كالبندقية ومصر. وكانت مصر المملوكية قد بلغت فى العصور الوسطى انتهاء ببداية القرن السادس عشر درجة من الثراء، وكانت خزائن حكامها تفيض بأموال التجار الإيطاليين من البندقية وجنوة الذين كانوا ينقلون متاجرهم من الشرق إلى أوروبا عن طريقين تتحكم فيهما مصر المملوكية: طريق الفرات وحلب واسكندرونة ومنها إلى أوروبا. وطريق البحر الأحمر والسويس ومنها بطريق القوافل إلى القاهرة، ثم على السفن فى رشيد إلى قرب الرحمانية على النيل، ومنها إلى الإسكندرية. وبعد ذلك تنقل إلى الموانى الإيطالية فى طريقها إلى الدول الأوروبية المختلفة.

وهكذا انتهى العهد الذى در على العرب ثروات كبيرة، أيام أن كانوا وسطاء ملاحة وتجارة بين الهند والصين من ناحية، وأوروبا من ناحية أخرى. وحتى نهاية القرن الخامس عشر، كانت السفن العربية تمخر عباب المحيط الهندى، وتشاهد دائما فى موانئه، انتهى كل ذلك ليحل البرتغاليون محلهم فى احتكار التجارة الشرقية ويطردوهم من البحار الشرقية، بعد الاستيلاء على مراكز حصينة كبعض الموانى والجزر التى يستطيعون منها إغلاق البحر الأحمر والخليج العربى فى وجه الملاحة العربية، أما فى الهند نفسها فقد عمد البرتغاليون الى إمتلاك أجزاء من الساحل. ووضعوا فيها بعض قواتهم البحرية والبرية ليخضعوا أمراء المسلمين فى الهند، ويجبروهم على توقيع معاهدات تلزمهم بقصر التجارة على البرتغاليين.

واستصرخ أمراء وسلاطين الهند المسلمون حكام البلاد العربية الإسلامية ليمدوا لهم يد المساعدة فى تلك الحرب المقدسة، ووجد استصراخهم صدى لدى

سلطان مصر المملوكى، الذى أعد أسطولا ضخما لمنازلة البرتغاليين فى أعالى البحار الشرقية ولكن تمكن الأسطول البرتغالى بقيادة ألمبيدا من أن يهزم الأسطول المصرى فى معركة (ديو) البحرية عام ١٥٠٩ .

البوكيرك والإمبراطورية.

وواصل البرتغاليون تدعيم تفوقهم البحرى وسيطرتهم التجارية فى البحار الشرقية والمضى فى تنفيذ سياستهم التوسعية. فكلفوا أحد كبار قوادهم البحريين وهو (ألفونسو البوكيرك) الذى كان معروفا بنزعته الاستعمارية وتعصبه ضد المسلمين ليواصل تحقيق الأهداف الاستعمارية الجديدة، فاستولى البوكيرك على «هرمز» على الخليج العربى (١٥٠٩). وعلى «سقطرة» عند مدخل البحر الأحمر. وعلى جوا Goa حيث أقام أول محطة ثابتة للبرتغال ثم استولى على ملقا قرب سنغافورة (١٥١١) وأصبح البوكيرك أول حاكم برتغالى على المناطق الساحلية التى احتلها البرتغاليون فى الهند. ولما كان الشرق العربى قد وقع منذ عام ١٥١٦ فى حوزة الأتراك العثمانيين وقع عبء الكفاح ضد الإقدام البرتغالى من البحار الشرقية على عاتق الحكومة العثمانية، إلا أنها فشلت فى انتزاع التفوق البحرى من البرتغاليين. ومضى هؤلاء فى توسعهم متخذين الشرق الأقصى مجالا للتقدم شرقا، فاستولوا على الملايو، وانفتح الطريق أمامهم إلى سيام وجاوة وبلغ نشاطهم ساحل الصين. وهكذا تطورت جهود البرتغاليين من فكرة كشف الطريق البحرى المباشر إلى الهند، إلى احتلال الأراضى وتكوين امبراطورية فى أجزاء من أفريقيا وآسيا.

استعمار البرازيل.

كان الملاح البرتغالى كبرال Pedro Alvaroes Capral فى طريقه إلى الهند فى سنة ١٥٠٠ دفعته الريح إلى الغرب حتى نزل بساحل البرازيل.

ولكن الجهود التى كان البرتغاليون يبذلونها فى الشرق صرفتهم عن الاهتمام بالبرازيل مدة طويلة. ثم لما لاحظ البرتغاليون أن آمالهم فى احتكار التجارة الشرقية لم تتحقق تماما، وأن أسبانيا قد بزتهم فى سياستها الاستعمارية فى أمريكا وما حظيت به أسبانيا من الكنوز النفيسة من الذهب والفضة، لما أدركوا ذلك عادوا إلى الاهتمام باستعمار البرازيل.

فبدأت تتوغل فى البرازيل منذ عام ١٥٢٥ . وتنظيم استغلالها واتبعت فى ذلك نظام الإقطاع. فأقطعت المغامرين من البرتغاليين إقطاعات من أرض البرازيل. يرتكز كل إقطاع على قاعدة الساحل ثم يتوغل صاحب الإقطاع نحو الداخل مختلطا بالأهالى الوطنيين العاملين وهكذا استمرت البرتغال أرض البرازيل. فطبقت عليها سياسة اقتصادية معينة ونشرت بها لغتها ونظمها، كما نشرت بها المسيحية على المذهب الكاثوليكى (بعثات الجزويت).

ولكن أصحاب الأراضى البرتغاليين أرهقوا الأهالى بالعمل فى مزارعهم. وهو أمر لم يألفوه . وتطلب التوسع فى زراعة قصب السكر زيادة فى الأيدى العاملة، فوق طاقة الوطنيين فاضطر أصحاب المزارع إلى جلب العبيد من غربى أفريقية على نحو ما فعل الأسبان فى استغلال مزارعهم الواسعة فى مستعمراتهم الأمريكية.

وبذلك بدأت هذه الحركة الواسعة: حركة نقل آلاف العبيد من وطنهم من أفريقيا الى أمريكا ليعملوا فى مزارعها ومناجمها أرقاء لأصحاب الأراضى وبفضل سواعد هؤلاء السود عمرت الأراضى وازداد الانتاج وبنيت المدن وازدهرت الحياة.

وما كاد القرن السادس عشر يشرف على نهايته حتى كان بالبرازيل وحدها حوالى ٢٥٫٠٠٠ من العناصر البيضاء أو المختلطة و ١٨٫٠٠٠ من الوطنيين الذين انتشرت بينهم المدنية الأوروبية والتعاليم المسيحية، و١٤٫٠٠٠ من العبيد الأرقاء المسخرين فى زراعة الأرض وغيرهم من الأعمال اليدوية.

نظام الاستعمار البرتغالى:

تنوعت سياسة التوسع البرتغالى بتنوع أهدافها واتجاهاتها: وقد انحصر التوسع البرتغالى فى ميدانين: الأول، العالم الجديد الذى كانت البرازيل فيه من نصيب البرتغال، وكانت سياسة البرتغال متجهة إلى تشجيع البرتغاليين على الاستيطان وتحقيق الاستغلال وتدعيم الاستعمار حتى أصبح البرتغاليون الذين استوطنوا البرازيل يشعرون أنها بلادهم لهم فيها مصالح ثابتة يدافعون عنها. ولذلك استطاعت البرازيل

أن تدافع عن نفسها كمستعمرة برتغالية فى أول الأمر حتى اذا استكملت البرازيل مقوماتها استقلت عن البرتغال فى القرن التاسع عشر (وعندئذ تطلعت هولندا إلى محاولة النزول بالبرازيل والتوغل فيها).

أما الميدان الآخر الذى اتجه إليه التوسع البرتغالى فكان الميدان الشرقى فى أفريقية وآسيا حيث احتل البرتغاليون المراكز والمحيطات التجارية والسعى لاحتكار التجارة الشرقية. فالتوسع البرتغالى فى الشرق لم يتجه إلى الأرض يفلحها وإلى المناجم يستخرج معادنها. وإلى السكان يجنى منها الضرائب إنما تطلع إلى التجارة فقط يسعى لاحتكارها والحصول على أرباحها، فالتوسع البرتغالى فى الشرق لم يكن قائما على قواعد وأساليب استعمارية بما تحمل من نظم الاستيطان والإستقرار والاستغلال والتعمير. ولهذا لم تستطع «الامبراطورية» البرتغالية الشرقية أن تصمد فى معترك التنافس الاستعمارى بين الدول الأوروبية، بل سرعان ما انهارت، وحلت محلها «امبراطوريات» أوروبية أخرى.

ذلك أن الاستعمار البرتغالى كان يتجة قبل كل شىء إلى التجارة وأرباحها دون أن يعنى بالتنظيم السياسى والحكومى. ثم إن أمبراطوريتهم الشرقية لم تكن متماسكة الأجزاء خاضعة لحكم واحد، وإنما كانت لا تعدو أن تكون شريطا ساحليا ممتدا فى أفريقية وآسيا أو جزائر متناثرة فى البحار الشرقية.

وإذا كانت البرتغال قد استطاعت أن تسيطر على الطريق البحرى الجديد وتنال التفوق البحرى فى المياه الشرقية فى مدى قرن ونصف إلا أنها عجزت عن احتكار تجارة الشرق فى أيديها احتكارا تاما، فقد كان التجار العرب يجدون مجالات للإفلات من الحصار البرتغالى فيحملون فى سفنهم الخفيفة ما استطاعوا حمله من المنتجات الشرقية وينفذون بها إلى البحر الأحمر أو الخليج الفارسى وينقلونها إلى مصر أو عبر إيران والعراق إلى موانى الشام حيث يبيعونها للتجار البنادقة حتى لم تأت سنة ١٥٤٠ إلا وعادت التجارة الشرقية ترد بكميات وفيرة إلى الإسكندرية وحلب، حيث ينقلها تجار البنادقة وغيرهم إلى موانى إيطاليا وفرنسا.

كان فليب الثانى ملك أسبانيا يعمل دائما على بسط سيادة أسرته فى أوروبا وفى عام ١٥٧٨ سنحت له الفرصة لضم البرتغال إلى أملاكه، فأصبحت شبه جزيرة أيبيريا تحت سلطانه، وقد مهد له الطريق إلى ضمها موت ملكها «هنرى الكردينال» فطالب فليب بعرشها بحق الوراثة وأرسل إليها جيشا بقيادة « دوق ألفا » فاستولى عليها بمساعدة أسطول كبير من الساحل وبقيت فى يد الأسبان مدة ستين عاما إلى أن استقلت ثانية عام ١٦٤٠.

ولهذا الفتح أهمية تاريخية هامة فإنه لم يكن مجرد توسيع رقعة أسبانيا فى أوروبا بل كان أهم منه بسط نفوذها على المستعمرات البرتغالية فى أمريكا الجنوبية وأفريقيا وجزائر الهند الشرقية واستقلالها فى وقت كانت خزائن أسبانيا خاوية.

وأخيرا سارت امبراطورية البرتغاليين فى الشرق إلى الانحلال عندما فقدت البرتغال نفسها استقلالها ووقعت تحت حكم أسبانيا، حين آل عرش البرتغال من بعد وفاة الملك (سبستيان Sebastian) آخر ملوك البرتغال فى القرن السادس عشر إلى فيليب الثانى ملك أسبانيا فى ١٥٨٠.

واستمرت الدولتان تحت تاج واحد من سنة ١٥٨٠ إلى ١٦٤٠. على أن ضعف الإمبراطورية البرتغالية قد بدأ من منتصف القرن الخامس عشر وزاده ضعفا استيلاء الأسبان على البرتغال، على يد ملك أسبانيا فليب الثانى الذى أهمل امبراطورية البرتغال، ولم يهتم بها وأصبحت مصالح البرتغال وأملاكهم نهبا للدول الأخرى. ففى الوقت الذى كانت البرتغال فيه تجاهد من أجل استعادة كيانها والفوز باستقلالها، كانت الدول الأوروبية الأخرى وهى هولندا، وانجلترا ثم فرنسا ـ قد نزلت ميدان التنافس الاستعمارى ووجدت فى أملاك البرتغال مجالا خصبا للتوسع.

انهيار الامبراطورية البرتغالية.

وقد ساعد على انهيار امبراطورية البرتغال نظام الحكم الذى اتبعوه فى أملاكهم، كان كل همهم الاستحواذ على تجارة التوابل واحتكارها، ورأوا أنهم ليسوا فى حاجة إلى تدعيم حكمهم إلا عن طريق إنشاء محطات مسلحة تستطيع أن تمون

أساطيلهم وتكون فى الوقت نفسه بمثابة قواعد ثابتة لمراقبة منافذ البحار الهندية. واتخاذ هذه المحطات مراكز مهمة لتجارة التوابل فأقاموا فى الشرق مراكز استعمارية على ساحل الملابار حيث تركوا أكثرية الحكام الوطنيين فى مراكزهم وحصّلوا منهم الجزية. ومنعوهم من التجارة. واكتفوا بإقامة الحصون والقلاع، وبعض محطات مسلحة فى سومطرة ومسقط وعدن وهرمز وملقا، أى فى المحطة الرئيسية الواقعة على منافذ البحار ومسالكها. وقد أقام البرتغاليون فى الجهات النائية من الشرق الأقصى نظاما من الحكم كان فى النهاية من أسباب انحلال امبراطوريتهم لأنهم جمعوا السلطة كلها فى شخص نائب الملك المقيم فى (جوا) والذى تمتع بسلطة مطلقة ولم يكن مسئولا إلا أمام الملك البرتغالى نفسه. ،وكانت مدة هذا الحاكم فى منصبه قصيرة لا تتعدى ثلاث سنوات ولذلك نجده يشتط فى معاملة الأهالى ويبتز الأموال ليكوّن لنفسه ثروة، وفى الوقت نفسه كان لا بد من فرض الضرائب للإنفاق على الإدارة التى صارت لاتساعها المستمر فى حاجة متزايدة إلى المال أضف إلى ذلك إقدام البرتغاليين على نشر المسيحية فى هذا السبيل فأنشأوا فى (جوا) محاكم التفتيش سنه ١٥٦٠.

على أن بلاد البرتغال نفسها لم تستفد كثيرا من امبراطوريتها، فمع أن (لشبونة) العاصمة كانت مزدهرة فى القرن السادس عشر لأنها كانت مركز التجارة فإن داخل البلاد كان يشكو الإهمال والتأخر وذلك لأن الزراعة قد أهملت، وكثرت الأراضى البور. بسبب هجرة الزراع واشتراكهم فى الحملات والرحلات والانخراط فى سلك الجندية، واضطر البرتغاليون إلى الاستعانة بالرقيق.. وانتشر البؤس داخل البلاد، وعلى ذلك كانت عظمة البرتغال الخلابة الظاهرية تخفى وراءها فى الحقيقة بؤسا وتعاسة فى داخل البلاد.

الكشوف الأسبانية

شاركت أسبانيا البرتغال فى ميدان الكشف الجغرافى متأثرة بنفس المؤثرات التى دفعت البرتغال إلى هذا الميدان: وهى الرغبة فى الاتصال بدول الشرق بطريق بحرى مباشر والاستيلاء على التجارة الشرقية، والتحرر من سيطرة البندقية الاحتكارية.

وبينما اتجه البرتغاليون إلى الشرق لتحقيق تلك الأهداف، اتجه الأسبان إلى الغرب فأعدوا فى سنة ١٤٩٢ بعثة يرأسها الملاح الجنوى «كرستوف كولمبس» فخرج إلى المحيط، وظل يبحر غربا حتى وصل إلى أرض يابسة، فاعتقد أنه وصل إلى جزء من ساحل الهند، ثم توالت رحلاته.

ففى رحلته الأولى والثانية اكتشف جزائر الأنتيل الكبرى، وجزائر الأنتيل الصغرى وجزيرة Watling التى هى إحدى جزائر البهاما وأطلق عليها اسم سان سلفادور.

وفى رحلته الثانية كان ينوى استعمار الأراضى الجديدة ونشر المسيحية بين السكان الأصليين الذين سماهم كولومبس بالهنود.

وفى رحلته الثالثة (١٤٩٨) وصل إلى مصب نهر أورينوكو واكتشف أجزاء من أمريكا الوسطى. ولكن حظ كولمبس كان سيئا مع الأسبان فظهر منهم الحاقدون والوشاة المقربون إلى الحكام الأسبان الذين أظهروه بمظهر الرجل الأفاق الذى أضاع أموال الدولة على رحلات لم تجن منها الدولة إلا استرقاق عدد من العبيد يستخدمهم فى تلك الممتلكات الجديدة، ولم تحصل أسبانيا على ما كان منتظرا من الذهب الكثير، بل إن ما كسبته أسبانيا حتى ذلك الوقت لم يتناسب مع ما كان يؤمله الأسبانيون من توابل الشرق، فأقصى الملاح العظيم عن قيادته وأعيد إلى أسبانيا مكبلا بالأغلال، نتيجة لحقد المستثمرين الذين خابت آمالهم، والمستعمرين العائدين إلى أسبانيا. ومات كولمبس فى عام ١٥٠٦ .

كان لرحلات كولمبس آثار منها:

١ـ إن الملوك الكاثوليك عملوا على تثبيت ملكيتهم لهذه الأراضى الجديدة وخصوصا عندما نشط البرتغاليون من كشوفهم.. ويقول المؤرخ فيشر:

«لا يمكن القول بأن الدافع لاكتشاف العالم الجديد لا يتعدى الرغبة فى الحصول على التوابل والذهب، اذا اختلطت المشاعر الدينية بالمطامع الاقتصادية. ففى الفاتيكان ـ وخصوصا لدى الفرنسسكان الذين كانت مشروعاتهم التبشيرية تمتد إلى

العالم بأسره ـ كانت مشروعات البرتغال وأسبانيا تثير أكبر قسط من الاهتمام، لا لأنها ستكون وسيلة إلى تنصير الوثنيين فحسب، بل ستفضى أيضا إلى شن هجوم على المسلمين من ناحية الشرق، وكان المعروف أن نجاشى الحبشة مسيحى، وكان المعتقد أنه لا تزال توجد فى الهند، نتيجة لبعثة القديس توما، دولة مسيحية يحكمها عاهل يعرف بالخان الأكبر، وكان يداعب أوروبا الكاثوليكية أمل كبير فى أن تتلقى من هؤلاء الملوك المسيحيين الشرقيين البعيدين مساعدة فعالة فى حرب صليبية ضخمة أخيرة تشنها على المسلمين. تلك هى الخطة التى رسمها البابا نقولا الخامس منذ عام ١٤٥٤ فى مرسوم بابوى أرسله إلى ملك البرتغال. وفى هذا الجو المفعم بالآمال الكبار أقلع كولمبس ليكشف الطريق إلى الهند غربا.

لا ننسى فى هذا الصدد اهتمام البابا اسكندر السادس فى سنه ١٤٩٢ بتقسيم الكشوف الجغرافية بين الملوك الكاثوليك، وهو القرار الذى أدى إلى معاهدة torديسلاس التى أشرنا اليها.

٢ـ الأثر الذى أحدثته رحلات كولمبس أنه فتح الطريق لرحلات الأفراد والمغامرين، واستطاع الرحالة الجدد بين سنتى ١٤٩٩ و١٥٠٨ أن يصلوا إلى جزر بهاما ثم إلى مصب نهر الأمزون وبرزخ بنما وحول كوبا وتلا ذلك توطيد حكم الأسبان فى أمريكا الوسطى والجنوبية، وفى مقدمة هؤلاء المغامرين الجدد بالبوا Balboa الذى عبر برزخ بنما حتى شاهد المحيط الهادى. وأعلن امتلاكه لتلك الجهات باسم ملك أسبانيا (١٥١٨).

ماجلان ١٥١٩ ـ ١٥٢٢م

وقد وقعت أهم حوادث هده الفترة فى عهد الإمبراطور شارل الخامس وهى الرحلة حول العالم، وفتوحات الأسبان فى المكسيك وبيرو فى أمريكا الوسطى والجنوبية.

أما الرحلة حول العالم، فقد كان الدافع إليها أن الامبراطور شارل الخامس كلف فرديناند ماجلان Magellan بالبحث عن الطريق الغربى للهند (١٥١٩ ـ ١٥٢٢)، وهو ملاح برتغالى دخل فى خدمة أسبانيا ـ فخرج ماجلان فى سبتمبر

١٥١٩ حتى وصل إلى شاطئ البرازيل عند «ريودى جانيرو» ثم إلى مصب نهر لابلاتا ثم دار حول أمريكا الجنوبية، ودخل فى نوفمبر سنه ١٥٢٠ فى المحيط الذى سماه تفاؤلا بالهادى وواصل سيره فيه حتى وصل إلى جزائر الفلبين التى كان البرتغاليون قد وصلوا إليها عن طريق الشرق وبذلك استقرت المعلومات الجغرافية عن كروية الأرض وعلى مدى امتداد العالم.

المغامرات الاستكشافية فى عهد شارل الخامس:

كانت السفينة الأسبانية التى قادها « جون سباستيان دل كانو » John Sebstian del Cano شقت طريقها بعد موت ماجلان فى جزر البهار عبر المحيط الهندى إلى الطرف الجنوبى لأفريقية ومن هناك عادت إلى أسبانيا وبذلك كانت هذه السفينة قد دارت حول العالم بعد أن بدأت رحلتها كواحدة من أسطول يتكون من خمس سفن يتولى فردناند ماجلان قيادته العامة.

وقد انتشى الامبراطور شال الخامس بهذا النصر، واعتبره نصرا إلهيًا اختص به الله به أسرة الهابسبرج النمسوية الكاثوليكية والتى كان شارل على رأسها تبشر بتحقيق الأمل الذى راود الأسرة وأنصارها من الكاثوليك الذين كانوا يعتقدون أن القدر سيجعل النمسا تبسط سلطانها على العالم أجمع لأنها «امبراطورية كل الوجود» Austriae est imperare universo وقد تراءى لناظرى شارل أن النمسا الكاثوليكية سوف تحكم العالم الكاثوليكى كله.

هرندو كورتز Herndo Cortes

كانت كوبا قد دخلت فى حوزة أسبانيا. وكان كورتيز قد أبحر منها وضم المكسيك إلى أملاك أسبانيا بعد أن تغلب على السكان الأصليين الملقبين بالأزتك Aztecs. وكان كورتيز قد خطف ملكهم مونتزوما ونصب نفسه حاكما على بلادهم. أما الأهالى فقد وجدوا فيه وفى نظام جيشه بما فيه من مدافع وخيول أشياء جديدة خارجة عن عالم تجربتهم. وكانوا على استعداد لتصديق الأسطورة التى دبر كورتيز إذاعتها وهى الأسطورة القائلة أن الأجانب المحاطين بالأسرار والذين هبطوا من المجهول بحيواناتهم الخارقة للعادة. هم أنصاف آلهة لا يمكن إغضابهم أو مقاومتهم.

بيزارو يستولى على بيرو،

أمكن Pizzaro الحصول على كميات وافرة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة التى كانت فى نظر الأسبان ـ الذين سيطر على تفكيرهم الربح المادى ـ الهدف الرئيسى للمغامرة الاستعمارية. وكان بيزارو رجلا غير مثقف احترف ركوب البحر كغيره من فقراء الأسبان فى ذلك الوقت. وفى خريف سنة ١٥٢٢ كان يبحث عن رزقه فى بنما، وهناك اجتمع يوما بأحد الملاحين الأسبانيين الذى أخبره أن أرضا غنية فى أمريكا الجنوبية على ساحل المحيط الهادى يسكنها أقوام يعرفون باسم الانكا Incas وكان بيزارو متعطشا للمغامرة من أجل الذهب، فجمع معه مائة ملاح مغامر وأقلع إلى المكان الذى سمع عنه على ظهر سفينة واحدة، ورغم أن المحاولة انتهت بالفشل، إلا أنه جدد المحاولة بعد سنتين (١٥٢٦). واذا به يرسو على أرض مزروعة، فلحت خير فلاحة، ورأى أمامه السكان الوطنيين وقد تحلوا باللآلىء وزينة الذهب، ومنذ تلك اللحظة رأى أن يستعمر هذه الأرض ويقطع صلته بـ «بناما» .

وقد تبين له أنه اكتشف فوق هذه الأرض دولة زراعية منظمة، تتميز بمدنية خاصة. ولسكانها أساليبهم المتقدمة فى الزراعة وتمهيد الأرض وحفر القنوات، وهناك القصور والمعابد وغيرها من معالم متطورة.

وبعد أن تم لبيزارو اكتشاف مناطقها المختلفة عاد إلى أسبانيا حيث حصل على تفويض من الإمبراطور (٢٦ يوليه ١٥٢٩) خوله سلطة نائب ملك فى البلاد التى كان لا يزال عليه أن يضمها.

وقد استعمل بيزارو منتهى القسوة والعنف مع حاكم بيرو الوطنى، فقد خطفه وجرده من ثروته وأحرقه على ملأ من الناس بل ومن الرهبان الأسبان المبشرين الذين أبدوا موافقتهم ولم يستنكروا إحراق الرجل. ولو أن التاريخ لا ينسى لبعض الإرساليات التبشيرية فى أماكن أخرى من المستعمرات الأسبانية ما قاموا به من محاربة المظالم التى كان يقترفها مواطنوهم فى المستعمرات الأسبانية ومحاولة الحد من طغيانهم على

أهل البلاد الأصليين، وكان الإمبراطور شارل الخامس ينحاز إلى جانب الرأفة والاعتدال، وكان إذا ما نشب النزاع بين الإرساليات التبشيرية العاملة لخير الإنسان وبين المستعمرين المستغلين كان ينحاز إلى جانب الإرساليات.

الاستعمار الأسباني:

اتصفت أعمال الغزاة الأسبان بالنهب والسلب والقسوة والعنف، وهو أمر قد دعت إليه نشوة الغزو وحب الكسب العاجل، ولكنه ألحق ضررا بليغا بالاقتصاد القومى وسبب اضطرابا وانهيارا فى حياة السكان الأصليين، ولكن عندما استقرت الأحوال وتجددت حركات الارتياد اتجه الأسبان إلى الأخذ بسياسة استعمارية تقوم على الاستقلال المنظم فأقبلوا على البحث عن المعادن النفيسة واستخدموا الأهلين فى تعدين الذهب والفضة. وهكذا بينما اتجه البرتغاليون إلى احتكار التجارة الشرقية اتجه الأسبان إلى الاستحواذ على كنوز العالم الجديد فى أمريكا من ذهب وفضة.

وعمل الأسبان على إدخال حضارتهم البلاد الأمريكية التى استولوا عليها كما فعل الاستعمار البرتغالى فى أفريقية وآسيا، أما الأسبان فقد أدخلوا حضارتهم ولغتهم وثقافتهم وديانتهم إلى القارة الجديدة، وكان لذلك أثره فى تطور المدنية فى تلك الأصقاع. على أن الوطنيين ـ أو السكان الأصليين ـ لم يتقبلوا فى أول الأمر هذه السياسة الأسبانية قبولا حسنا فقد كانوا متأثرين بموجات الغزو الأولى وما صحبها من الاعتدال والسلب والتسخير مما جعلهم ينظرون إلى الغزاة الأسبان نظرة عدائية ولكن البعوث الدينية التبشيرية التى أرسلتها أسبانيا سارت جنبا إلى جنب مع حركات الغزو والاستعمار وأخذت تنشر الكاثوليكية بين الوطنيين وتسعى إلى حمايتهم من الاعتداء والتسخير، ونجحت فى ذلك إلى حد بعيد ... ومن هنا بدأت معالم الحياة الأسبانية تبدو فى تلك المستعمرات الأمريكية. وقامت مدن جديدة بجوار مناطق المناجم والتعدين وازدحمت بالسكان، وكان السكان الأصليون يسخرون فى الأعمال ولكن اضطر المستعمرون إلى دفع أجور العمال.. ثم لما تطلب التوسع زيادة فى الأيدى العاملة أخذ المستعمرون يجلبون العبيد من أفريقية (٢٠ مليون نسمة من الزنوج فى مدى ثلاثة قرون بين القرنين ١٥ ١٨).

ثم ما لبث المستعمرون أن أدركوا أن إنتاج المناجم يتناقص وأنها لابد آيلة إلى الفناء، ورأوا أن الأجدر بهم أن يتجهوا إلى فلاحة الأرض، فجلبوا الأعداد الغفيرة من الزنوج وسخروهم فى زرع الغلات الزراعية الجديدة. ولكن التفوق فى الميزان التجارى ظل ردحا من الزمن فى جانب الذهب والفضة. ففى سنة ١٥٩٤ قدرت صادرات المستعمرات الأسبانية فى أمريكا إلى أسبانيا من الذهب والفضة بنحو ٩٥٫٦٢٪ من مجموع الصادرات بينما كانت الصادرات الأخرى من المنتجات الزراعية والحيوانية لا تصل إلى ٥٪.

ثم أخذت كميات الصادرات من الذهب والفضة تقل بينما يزيد الصادر من المنتجات الأخرى. فى أوائل القرن ١٧ كانت نسبة المعادن ٨٤٪ وهذا يدل على تناقص كميات المعادن المستخرجة ويقابله ازدياد الاهتمام بالزراعة.

الفصـــل الرابع

فرنسا والحروب الإيطالية

١- الدور الأول

شارل الثامن يغزو إيطاليا عام ١٤٩٤.

فى أواخر القرن الخامس عشر كانت إنجلترا، وفرنسا، وأسبانيا، أقوى الدول فى أوروبا على الإطلاق، وتمتاز بوحدتها تحت حكم ملوك أقوياء يتوارثون العرش. أما ألمانيا وإيطاليا فقد كانتا نهبا للانقسام مما أدى إلى ضعفهما وانحلالهما.

على أن إيطاليا- مع ضعفها وانقسامها- تمكنت فى عصر النهضة من أن تصبح من أغنى الشعوب الأوروبية وأقواها نهضة فى الفن والأدب إلا أنها لم تهتم بأن تكون لديها قوات مسلحة تدافع عن كيانها، هذا فضلا عن الانقسام السائد بين ولاياتها المختلفة والتنازع فيما بينها حتى أصبحت كالثمرة الناضجة تسقط بسرعة فى أيدى قاطفيها.

وكانت فرنسا أقوى وأقرب جيرانها. فكان من الطبيعى أن تكون إيطاليا هى المجال الحيوى الطبيعى للتوسع الفرنسى. بعد أن أصبحت فرنسا هى الدولة الموحدة الكبرى من النصف الثانى من القرن الثالث عشر. بينما كانت المدن والدويلات الإيطالية تدأب على التنافس والتنابذ ومحاربة إحداها الأخرى ولم يكن لأى منها جيش ثابت يدافع عنها بل كانت تلجأ عند الحرب إلى الاستعانة بالقوات المرتزقة للدفاع أو مهاجمة غيرها.

كان الحال هكذا عندما اعتلى شارل الثامن عرش فرنسا بعد وفاة الملك لويس الحادى عشر عام ١٤٨٣ . وكان الملك الجديد طموحاً ذا روح خيالية، قرأ كثيراً من القصص والروايات التى تمجد الأعمال الفروسية فتشبع بها وعزم على التشبه بأبطال قصصه- وتهيأت له الظروف لاعتبار إيطاليا مسرحا لمغامراته، فلطالما أتته وفود من

الدول الإيطالية تعرض عليه أن يقف إلى جانبها فى نزاعها مع جيرانها، وتوهمه بأن قواته ستقابل فى بلادها بالترحاب كمحرر لا كفاتح. وسرح به خياله إلى إمكان القيام بمغامرات أخرى بعد فتح إيطاليا. فيستطيع بعد ذلك أن يتوغل بجيوشه نحو أراضى الدولة العثمانية، فيبدأ بطرد الأتراك من أوروبا فيكسب عطف المسيحيين فى أوروبا كلها، ثم يتابع سيره إلى بيت المقدس لطرد المسلمين.

وبدأ فى عام ١٤٩٤ فى مغامراته الأولى، فقد كان البيت المالك فى فرنسا يدعى دائما أن نابلى حق من حقوق فرنسا وكان يحكمها فرع من أسرة أنجو الفرنسية واغتصبتها أسرة أرجون الأسبانية ولما كانت حقوق أسرة «أنجو» قد انتقلت إليه من أسرة «فلوا» فقد رأى أن يكون ذلك ذريعة دبلوماسية يتخذها للعدوان على الأراضى الإيطالية.

وجاءت فرصة ذهبية أخرى يتذرع بها شارل الثامن لاقتحام الحدود الإيطالية، وذلك عندما تقدم حاكم ميلان «لودوفيجLodovico يطلب مساعدة فرنسا لحمايته من «فلورنسه» الذى هدده بالغزو، وفى الوقت نفسه كان عدد من المصلحين يحثونه على العمل على خلع البابا إسكندر السادس الذى يتمتع بسمعة دينية حسنة.

بدأت الحروب من سبتمبر ١٤٩٤ عندما عبر شارل الثامن بقواته جبال الألب، واقتحم الأراضى الإيطالية حيث رأى الإيطاليون لأول مرة مدى قوة الجيش الفرنسى ونظامه وأسلحته الحديثه، فلم يحاولوا مقاومة ودخلت قوات شارل الثامن ميلان، وفلورنسا وروما ونابلى فى سهولة ويسر، بل لقد استقبل فى بعضها استقبال الحليف لا استقبال الفاتح، بسبب كراهية الشعب الإيطالى لحكامه، وتوج ملكا فى نابلى ذاتها.

على أن هذا التقدم السريع والحفاوة الكبيرة التى قوبل شارل الثامن سرعان ما تحولت إلى كراهية بعد أن استقر الحكم الفرنسى وبدأ فى فرض الضرائب الفادحة لمواجهة نفقات الاحتلال، واستفاق الإيطاليون إلى أنهم كانوا كالمستجير من الرمضاء

بالنار، وهكذا واجه شارل الثامن أزمة داخلية إذ أدرك الايطاليون سريعاً أن الوقت قد حان لكى يتحدوا ضد الغزاة، وأدرك شارل الثامن أن الغزو كان سهلا ولكن الاحتفاظ بالأراضى المفتوحة أصبح من أشق الأمور.

وبينما كان شارل الثامن يحلم بأن إيطاليا أصبحت فى يده، إذا بحلف يتكون ضده فى شمال إيطاليا تحت زعامة البنادقة Venetians

وفى الوقت نفسه ظهر فى الوسط الأوروبى مذهب جديد هو «مبدأ التوازن الدولى». وهو شعار غير محدد من وجهة نظر الدول، إلا إنه – على وجه العموم– ينص على ألا يحدث تغيير من شأنه أن يغلب دولة على أخرى نتيجة الغزو أو التوسع، وإذا حدث شيء من هذا وجب على بقية الدول أن تتضامن لمنع ذلك.

لذلك كان الانتصار الذى أحرزه شارل الثامن فى إيطاليا نذيراً بوقوف الدول ضده. وانتهزت الولايات الإيطالية تلك الفرصة، فضاعفت حركة المقاومة مستعينة بأعداء فرنسا. وقادت الحركة كل من ميلان، والبندقية، والبابوية، اعتمادا على مساعدة فردناند ملك أسبانيا، والامبراطور مكسمليان.

عندئذ أدرك شارل الثامن أن الخطر أصبح ماثلا فلم يجد بدا من العمل فورا لإنقاذ موقفه قبل أن يفوت الأوان، ويصبح من العسير عليه الجلاء بعد أن يخسر قواته. لذلك قرر الجلاء العاجل عن نابلى.

وقبل أن يتم انسحابه تقابلت جيوشه مع قوات الحلفاء فى فورنوفى يوليه ١٤٩٥ فانتصرت عليهم وتمكن من الإنسحاب فى سلام ودون خسارة تذكر. إلا أن ذلك الإنسحاب كان له أثر فعال فى الإساءة إلى سمعة فرنسا الحربية، وحيث أضاع هيبتها بين الدول. ومات شارل الثامن دون أن ينجز شيئا مما وعد به الفرنسيين وفقدت فرنسا كل الفتوح التى أقدمت عليها فى عهده.

لويس الثانى عشر:

وتولى العرش بعده ابن عمه لويس الثانى عشر، وكان محبوبا من الشعب، لأنه عنى بالإصلاحات الداخلية حتى اكتسب رضاه ودعى «بأبى الشعب».

ثم بدا له أن يجرب حظه فى التوسع فى الأراضى الإيطالية. فوجه حملة إلى ميلان سنة ١٤٩٩ واحتلها دون صعوبة تذكر، ولعل ذلك راجع إلى المساعدة التى تلقاها من البندقية، بسبب ما كان بينها وبين ميلان من عداوة وحسد.

فكر بعد ذلك فى مواصلة الزحف بقصد الاستيلاء على نابلى، ولكنه أدرك أن الأمر ليس سهلاً، ما دامت أسبانيا من جانبها تطمع فيها، فقد كانت الأسرة المالكة الأسبانية، وعلى رأسها فى ذلك الحين الملك فرديناند تدّعى حق السيادة على نابلى، ولكى يتحاشى لويس قيام حرب بينه وبين أسبانيا، نجح فى التوصل إلى إتفاق معها على تقسيمها بين فرنسا وأسبانيا، وذلك فى معاهدة جرنادا (١٥٠٠م) على أن يستولى لويس على المنطقة الشمالية: ويستولى فرديناند على الجزء الجنوبى.

ولم تستطع نابلى المقاومة أمام قوات تتفوق عليها فى العدد والعدة لدولتين كبريين. ألا أن أمر التقسيم لم يكن سهلا تحديده ما بين الشمال والجنوب، ولم تكن تدرى كل من فرنسا وأسبانيا أى نصيب سوف تستولى عليه من مملكة نابلى، وكانت نتيجة الخلاف قيام الحروب بينهما (١٥٠٢) التى أسفرت عن هزيمة الفرنسيين وطردهم من حدود نابلى .

حلف كمبريه ١٥٠٨ League of Campari:

بدأت المرحلة الثانية فى قصة التدخل الأوروبى فى إيطاليا بظهور البابا يوليوس الثانى فى أفق السياسة الأوروبية، وكان هذا البابا سياسيا من الطراز الأول، وماهراً فى حبك المؤامرات، وكان طموحاً إلى النفوذ السياسى، إذا كان يأمل أن يلعب دوراً هاماً وحاسماً فى السياسة الإيطاليه .

وكان العداء فى هذه المرحلة موجها ضد البندقية التى كانت قد توسعت فى الماضى على حساب غيرها من الولايات الإيطالية ولذلك لم يجد البابا صعوبة فى تكوين حلف ضدها هو حلف كمبريه سنة ١٥٠٨ ضم إليه ملك أسبانيا، ولويس الثانى عشر ملك فرنسا، والامبراطور مكسمليان، وفلورانسه، ولم تستطع البندقية أن تقاوم جيوش أعدائها، فاضطرت إلى التنازل عن أجزاء من أرضها التى كانت قد اغتصبتها من قبل للدول المتحالفة ضدها.

على أن هذا النصر الذى أحرزه أعداؤها أدى إلى قيام الخلاف فيما بينهم على تقسيم الغنيمة. وأدرك البابا يوليوس الثانى أنه أرتكب خطأ كبيراً بدعوته القوات الأجنبية لغزو أجزاء من الأراضى الإيطالية ولا سيما الفرنسيين بالذات الذين سيطروا سيطرة تامة على كل الأراضى الإيطالية شمال نابلى، ولذلك صمم على العمل على طرد الفرنسيين، ولما أحس لويس بمؤامرات البابا ضد فرنسا حاول المناداة بعزل البابا عن طريق دعوة المجلس العام، وقوبلت دعوته لدى الدول الأوروبية الأخرى باستنكار، وانتهز البابا ظهور ذلك الشعور ليكوّن ضده حلفا مقدسا Holy League يضم الامبراطور، وأسبانيا، وإنجلترا (وكان ملكها هنرى الثامن)، والبندقية، وسويسره.

الحلف المقدس ١٥١١:

وهكذا تحالف ضد ملك فرنسا عدد كبير من الخصوم وانتصروا عليها. وطردوها من الأراضى التى كانت قد استولت عليها فى إيطاليا. وفى الوقت نفسه أقدم هنرى الثامن ملك إنجلترا بصفته عضوا فى الحلف المقدس على إرسال حملة على فرنسا لاستعادة ما كان تابعا لانجلترا فى شمال فرنسا، ومع أن الإنجليز لم يستطيعوا تحقيق انتصارات حاسمة فى فرنسا إلا أن الحرب هزت أركان العرش الفرنسى. وعملت فرنسا على عقد الصلح مع أعدائها وتم ذلك فى عام ١٥١٥.

الدور الثانى فى الحروب الايطالية.

فرانسوا الأول،

يبدأ الدور الثانى من الحروب الايطالية باعتلاء فرنسوا الأول عرش فرنسا (١٥١٥-١٥٤٧). وكان فرانسوا شابا ميالا إلى المغامرات الحربية، فكان أول ما فكر فيه أن يعاود الحرب فى إيطاليا، إلا أن المغامرة لم تكن إذا ذاك سهلة ميسورة، إذ كان عليه أن يحسب لتلك المغامرة حسابها. فدون تحقيق رغبته تقف قوتان لا يستهان بهما: أسبانيا والبابوية. هذا فى الوقت الذى فقدت فيه فرنسا معظم حلفائها ما عدا البندقية.

موقعة مارجنانو ١٥١٥،

على أن فرانسوا أقدم على المغامرة فى شجاعة وتصميم، فاخترق جبال الألب، ثم انقض على أعدائه فى مارجنانو Marignano بالقرب من ميلان (سبتمبر ١٥١٥).

وقد كان يدافع عنها جنود مرتزقة من السويسريين إلا أنه سحقهم فى تلك المعركة التى استمرت يومين. وكان لهذه الموقعة أثران هامان:

١- أولهما عقد اتفاقية مع سويسرة فرض عليها أن تتعهد بموجبها بألا تسمح لقواتها أن تشترك ضده فى أى حرب مستقبلة.

٢- وثانيهما أنه عقد مع البابا «ليو العاشر» الذى تولى البابوية عام ١٥١٣ (وهو من أسرة مديتشى) اتفاقية تنص على أن تعيين رجال الدين فى الكنائس الفرنسية هو من حق الملك. وكان الاعتراف من جانب البابا فى نظير أن تعود فرنسا إلى دفع الأموال التى كانت تؤدى للبابا.، والتى رفضت فرنسا دفعها للبابوية منذ قرن من الزمان. وبذلك أمن الملك سيطرته على كنيسة بلاده وعلى موظفيها الدينيين الذين كان من حق البابا وحده تعيينهم. وهو مبدأ هام فى سبيل تدعيم سلطان الملك ونفوذه، وبذلك تحددت العلاقة بين فرنسا والبابوية إلى نهاية القرن الثامن عشر.

تغير الموقف السياسى فى أوروبا - شارل الخامس وفرانسوا الأول.

ولكن الموقف قد تغير كلية بظهور منافس جديد لفرانسوا الأول، وتكتل جديد فى أوروبا ضد فرنسا ذلك عندما اعتلى عرش الامبراطورية شارل الخامس.

فقد توفى الامبراطور مكسمليان فى سنة ١٥١٩ وفتح باب الترشيح لمن يخلفه على عرش الامبراطورية. كان المتبع دائما أن يكون الامبراطور من أصل ألمانى، لكن ذلك لم يكن قانونا موضوعاً يحرم إنتخابه من أى جنسية أخرى، ولذلك قرر الملك الفرنسى فرانسوا الأول أن يتقدم لترشيح نفسه.

وكان منافسه فى الترشيح لعرش الإمبراطورية شارل حفيد الإمبراطور مكسمليان وهو الذى اعتلى عرش أسبانيا سنة ١٥١٦، وكان شارل من أقوى ملوك أوروبا فى ذلك الحين، فهو يحكم شعباً قويا محاربا، ويمتلك ثروة تهبط عليه دواما من استغلال التجارة والصناعة فى الأراضى الواطئة، وما تدره عليه ممتلكات أسبانيا فى الدنيا الجديدة.

وقد كان تعيين إمبراطور يتم نظريا بالانتخاب، ولكنه من الناحية العملية كانت الامبراطورية وراثية.فإذا تم انتخاب شارل ملك أسبانيا لعرش الإمبراطورية يصبح تبعاً لذلك وريثاً لجميع ممتلكات أسرة هبسبرج وحاملا لقب إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة.

ولكن ظهر له فى الأفق منافس خطير هو الملك فرانسوا الأول، الذى قرر ترشيح نفسه للمنصب الخطير، وشجعه على الإقدام على هذه الخطوة علمه بدقة موقف شارل بسبب الاعتقاد السائد فى أوروبا بأن التوازن الدولى قد يختل بانتخاب شارل ملك أسبانيا إمبراطورا للدولة الكبرى فى ألمانيا. وقد بذل الطرفان، فرانسوا وشارل فى سبيل الترشيح جهودا مضنية وأموالا طائلة، ولكن شارل كان أقوى المرشحين، فتم انتخابه فى عام ١٥١٩، وبدأ يحكم الإمبراطورية الواسعة الأرجاء باسم الإمبراطور شارل الخامس.

وكان المتوقع أن تشتد المنافسة وتستمر العداوة بين فرانسوا الأول وشارل الخامس مما يؤدى إلى قيام الحرب بين العاهلين.

موقعة بافيا ١٥٢٥م.

وفعلا قامت سلسلة من الحروب بينهما منذ عام ١٥٢٢، ألا أن الحرب لم تأخذ طابع العنف إلا فى عام ١٥٢٥، فقد أقدم الملك فرنسوا على غزو إيطاليا مبتدئا بمحاصرة باقيا إلا أنه فوجىء بجيش ألمانى هزمه هزيمة ساحقة واضطر إلى تسليم نفسه للعدو حيث أخذ أسيراً إلى أسبانيا.

وهناك فى مدريد أجبره الامبراطور شارل على توقيع معاهدة مدريد عام ١٥٢٦، خسرت فرنسا بمقتضاها أجزاءً كبيرة من حدودها واضطر الملك أن يتنازل عن كل إدعاءات فرنسا فى ميلان ونابلى وجنوه نظير أن يطلق سراحه من الأسر، وكانت النتيجة الموجعة لفرنسا أن تحطمت سمعتها تحطيماً شديداً، الواقع أنه لو وضعت تلك المعاهدة موضع التنفيذ لشروطها التى أملاها الامبراطور على الملك لكان فيها نهاية فرنسا كدولة كبرى فى أوروبا.

ولكن هذا النصر الباهر الذى أحرزه شارل الخامس قد أحنق عليه الدول التى أصبحت تخشى قوته وبطشه؛ فلم تجد بُدا من وضع حد لسيطرته وخطره. بتكوين (الحلف المقدس) ضده وعندئذ أقدمت فرنسا على نقض معاهدة مدريد بحجة أن توقيعها لم يكن شرعياً. فقد وقعها الملك بواسطة الضغط أو الإجبار عندما كان أسيراً لدى «الإمبراطور» حيث كان يعانى من ذل الأسر وضعف الصحة وفقد الروح المعنوية. أما وقد تغير الموقف بعد أن تكون الحلف المقدس الذى ضم البابا كلمنت السابع والبندقية وفلورانسه، مؤيداً من هنرى الثامن ملك إنجلترا، الذى لم ينضم رسميا إلى الحلف ولكنه كان يسنده ويؤيده، فقد تحرج موقف الامبراطور شارل الخامس، وعلى الأخص فى إيطاليا. هذا إلى جانب عجزه عن دفع مرتبات جنوده، وفقد اثنين من أعظم قواده: بسكارا Pescara وكولونا Colna. ونجاح الأتراك العثمانيين فى التقدم نحو البحر.

أسر البابا ١٥٢٧م

وفى عام ١٥٢٧ حدث حادث خطير فى ذاته، ولكنه لم يكن له تأثير فى الحروب الإيطالية بين شارل الخامس وفرانسوا الأول، إنما كان له أثر فعال فى علاقة الإمبراطور ببعض المدن الإيطالية، فقد حدث أن تأخر دفع الرواتب للجيش الأسبانى المنتصر– وكان هؤلاء الفرسان قد اقتحموا إيطاليا دون أن يتلقوا مرتباتهم وتعودوا على أن يعيشوا على ما ينهبونه من الريف– فلما طال بهم الانتظار قامت القوات بحركة عصيان وقررت تعويض الرواتب بحركة سلب ونهب لإحدى المدن الإيطالية، فحاولوا ذلك فى فلورنسه ولم ينجحوا فيمموا شطر روما نفسها. وكانت مدنية مفتوحة، لم تستطع أن تدافع عن نفسها لأنها غير محصنة. ووقع البابا كلمنت السابع فى أيدى هؤلاء المتمردين من الأسبان والجرمان الأجراء. وانضم إليهم الغوغاء من الإيطاليين الجياع. وتعرضت روما لأقسى ما عرفته فى تاريخها من سلب ونهب مما لم تشهده حتى فى أيام غزوات البرابرة من قوط وفندال ولمبارديين فى العصور الوسطى. فقد نهبت المدينة، وقتل الآلاف من سكانها.

وقد كان لحادث أسر البابا أثر هام آخر فى إنجلترا، فقد كان ملكها هنرى الثامن قد رفع التماسا إلى البابا يطلب فيه الموافقة على الغاء زواجه من كاترين الأرجوانية، ولما كان البابا قد وقع أسيراً فى يد الامبراطورفلم يكن بوسعه أن يصدر قرارا بطلاق زوجة هنرى التى تمت بصلة القرابة إلى الإمبراطور وقد كان لهذا الحادث أثر كبير فى تطور حركة الإصلاح الدينى فى إنجلترا كما سيرد ذكره [1].

---

(١) أراد هنرى الثامن أن يطلق كاترين، فادعى أن زواجه منها كان غير شرعى، لأنها كانت متزوجة من أخيه الأمير آرثر، فلما مات آرثر، وأصبح هنرى وليا للعهد، زوجه أبوه منها على كره من هنرى وذلك رغبة منه فى استمرار الحلف القائم بين أسبانيا وإنجلترا، ولما أصبح هنرى الثامن ملكا كان متبرما بذلك الزواج، خصوصا بعد أن أحب آن بولين، وطلب البابا الموافقة على طلاق كاترين، ولما كان البابا فى موقف لا يسمح له بإغضاب الامبراطور شارل الخامس، وفى الوقت نفسه لا يريد أغضاب هنرى، أخذ يسوف فى إصدار قراره.

أصبح الامبراطور أقوى شخصية فى أوروبا مما أثار التألب ضده. واتفقت كل من فرنسا وإنجلترا والبندقية على السعي فى كسر شوكته وتحرير البابوية من طغيان الامبراطورية– وقام جيش فرنسى مصحوبا ببعض حلفاء فرنسا بالهجوم على إيطاليا واسترد معظم الأراضى فى دوقية ميلان، ثم انساب جنوبا دون أن يلقى مقاومة تذكر حتى وصل إلى نابلى وأقام عليها الحصار. وفى يونية من عام ١٥٣٨ كانت المدينة على وشك السقوط بعد أن شدد الفرنسيون عليها الحصار. حتى اعتقد الجميع إذ ذاك أن إيطاليا كلها على وشك السقوط تحت السيطرة الفرنسية، ولكن تدخل القدر فى آخر لحظة، إذا داهمت الأمراض الفتاكة جنود الجيش الفرنسى، ومات عدد من القواد وأعداد كبيرة من القوات الفرنسية، واضطروا إلى الإنسحاب. وفى أثناء انسحابهم لاقوا أكبر عناء ومُنُوا بعدة هزائم. وفقدوا الأمل فى الانتصار على الإمبراطور شارل، وكان اضطرار البابا لمهادنته ضربة أليمة قضت على آمال الحلف. فقد عقد البابا مع الإمبراطور معاهدة برشلونة (٢٩ يونية ١٥٢٩) وبمقتضاها أعاد الإمبراطور للبابا كلمنت جميع الولايات البابوية. وأعاد أسرة المديتشى إلى الحكم فى فلورنسا، وفى مقابل ذلك توج البابا امبراطوراً (فبراير ١٥٣٠) ووافق على منحه مملكة نابلى.

صلح كامبريه ١٥٢٩م

ورغم ما أحرزه الامبراطور شارل الخامس من انتصارات متلاحقة على فرنسا، ألا أن تطور الأحداث فى بلاده، وقيام حركة الإصلاح الدينى وما كانت تتطلبه من تفرغ ومجابهة، أضعف قدرته على الاستمرار، وفى الوقت نفسه كان فرانسوا الأول ملك فرنسا يتصل بالبروتستنت الألمان لمساعدتهم وإثارتهم ضد عدوه شارل رغم أن فرانسوا كان كاثوليكا متعصباً.

ومن ناحية أخرى كانت فرنسا على وشك الانهيار بعد الهزائم التى منيت بها لولا انشغال الإمبراطور بمجابهة حركة الإصلاح الدينى فى ألمانيا وعندئذ توافرت

الأسباب والظروف لعقد الصلح بين الدولتين فى كامبريه (٣ أغسطس ١٥٢٩)، وبمقتضى هذا الصلح الذى دام سبع سنوات استعاد ملك فرنسا بعض ما فقده بموجب معاهدة مدريد ولكنه تنازل نهائيا عن كل ما يدعيه من حقوق ميلان ونابلى وارثوا والفلاندرز. وبذلك انتقلت السيادة على شبه الجزيرة الايطالية إلى شارل الخامس واستولى على نابلى، واستعاد فرانسسكوا سفورزا ميلان كتابع للإمبراطور. وأصبحت جنوة تحت حمايته، والبابا حليفه التابع له، ولم تعد البندقية من القوة بحيث تستطيع صده أو معارضته.

وغادر شارل الخامس إيطاليا فى إبريل ١٥٣٠، بعد أن توجه البابا رسميا، وكان آخر امبراطور فى تاريخ أوروبا يتوج على يد البابا، واتجه إلى ألمانيا لمحاولة القضاء على البروتستنت الخارجين على الكاثوليكية، وقضى هناك عامين (١٥٣٠-١٥٣٢) انشغل أثناءهما بالمشكلات الداخلية والخارجية، وكان أخطرها وصول الأتراك العثمانيين إلى الأراضى المجرية واحتلال معظمها واستعدادهم بعد ذلك لمهاجمة فينا. واضطر الامبراطور إلى مهادنة البروتستنت فعقد معهم إتفاق نورمبرج (١٥٣٢) وبذلك تفرغ للخطر الخارجى حيث قاد جيشاً كبيراً استطاع به طرد الأتراك الذين تقهقروا أمامه.

وفى نهاية العام عاد إلى إيطاليا حيث قابل البابا. ثم عقد معاهدات دفاعية مع معظم الولايات الألمانية - ما عدا البندقية - ثم غادرها إلى أسبانيا فى ربيع عام ١٥٣٣.

وعلى الرغم من المعاهدات الدفاعية التى عقدها فى إيطاليا فإن مركزه فيها لم يكن آمنا، فإن ملك فرنسا «فرنسوا الأول» كان يرنو إلى الإنتقام وعدم التقيد بمعاهدة كمبريه، ولذلك رأى أن يقوى ساعده بالتحالف مع البروتستنت فى ألمانيا، ومع السلطان العثمانى، ورغم أن الحكومة الفرنسية كانت تضطهد البروتستنت فى فرنسا ذاتها، ألا أنها وجدت من مصلحتها أن تتصل بالبروتستنت فى ألمانيا وتساعدهم

ضد الامبراطور. وفى الوقت نفسه قام الملك بالاتصال بالبابا الذى كان فى واقع الأمر يميل لملك فرنسا ويرغب فى إعادة ميلان وجنوة للتاج الفرنسى، إلا أن وفاة البابا كلمنت السابع عام ١٥٣٤ وإنتخاب البابا الجديد بول الثالث حرم فرنسوا من الوعد الذى قطعه البابا كلمنت على نفسه، وتحسن بذلك موقف الامبراطور شارل.

ومهما يكن من شيء، فقد صمم فرانسوا على معاودة القتال، وبدأ يغزو سافوى واحتل تورين وسرعان ما سيطر على سافوى وبدمنت، وعندئذ تحرك الامبراطور وقامت الحروب الثالثة بين فرنسوا وشارل إلا أن هذه الحرب لم تأخذ طابع الشدة والضراوة الذى لازمها من قبل، فقد سئم الفريقان طول الحرب وتهيأت ظروف جمعت بين العاهلين المتنافسين بعد أن عقدا هدنة نيس (يونيه ١٥٣٨) ومدتها عشر سنوات. احتفظ كلاهما بالأرض التى غزاها وبذلك ظلت فرنسا تحتل سافوى وثلث أراضى بيدمنت.

وانشغل الامبراطور شارل الخامس بعدد من المشكلات الداخلية والخارجية، فكان عليه مجابهة الحركة البروتستنتينية فى بلاده، ومحاربة القائد البحرى المسلم خير الدين بربروسه الذى كان يحكم الجزائر وتونس باسم السلطان العثمانى الذى استعان به لوضع شمال أفريقية تحت الحكم العثمانى، وكان بربروسه يواصل حملاته البحرية ضد السفن الأوروبية فى البحر المتوسط ويهاجم السواحل الأوروبية فى أسبانيا وإيطاليا ولكنه كان يركز جهوده على الساحل الأسبانى وانقذ من أسبانيا حوالى ٧٠,٠٠٠ من المغاربة المضطهدين هناك وعمر بهم شمال أفريقية.

ثم بدأ بمهاجمة الحصون الإيطالية على الساحل عند نابلى وغيرها وأصبحت قوته البحرية خطراً يهدد السفن ويعوق المواصلات البحرية التى لا غنى عنها لامبراطورية شارل الخامس، ولذلك لم يجد شارل بُدا من القيام بحملة بحرية قوامها أسطول أسبانى كبير لمهاجمة الجزائر (أكتوبر ١٥٤١)، ألا أن عاصفة شديدة هبت على أسطوله، وانهزمت قواته شر هزيمة، وعادت فلول قليلة إلى أسبانيا.

وانتهز ملك فرنسا الفرصة ليستفيد من الموقف الخطير الذى وقع فيه شارل بعد هزيمته، لأنه كان يتوق إلى تجديد الحرب ضد الإمبراطور، وما لبث أن وجد أسبانيا يتذرع بها لنقض الهدنة. وأعلن الحرب فى عام ١٥٤٢، وكانت هى الحرب الأخيرة بين فرنسوا وشارل. وكان فرنسوا متحالفا إذا ذاك مع السلطان العثمانى مما أضعف موقفه وجعل شعوب الامبراطورية تؤيد شارل ضده، كذلك استطاع شارل أن يستميل هنرى الثامن ملك إنجلترا إلى صفه فى عام ١٥٤٣، حيث اتفقا على القيام بحملة مشتركة لغزو فرنسا، ألا أن هنرى انفرد بمحاولة هذا الغزو، ولكنه ضيع الوقت فى محاصرة بولونى Boulogne بدلا من التقدم نحو باريس.

أما شارل الخامس فقد اخترق الأراضى الفرنسية فى طريقه إلى باريس، إلا أنه رأى فجأة أن يعرض الصلح على الملك فرنسوا، وذلك لعدم ثقته فى نيات هنرى ملك إنجلترا، ولأنه أيضاً كان منشغل البال بما يجرى فى ألمانيا مما يتطلب وجوده هناك. ولما كان فرانسوا لم يحقق نجاحا فى ميادين القتال فقد قبل الطرفان أن يعقدا معاهدة كرسبى ١٥٤٤ Crespi.

معاهدة كرسبى:

وبموجب معاهدة كرسبى تقرر أن تتنازل فرنسا عن أى حق تدعيه فى نابلى وتجلو عن بيدمنت وسافوى. وأن يتنازل الامبراطور شارل الخامس عن كل إدعاءاته فى برجنديا، وأخيراً اتفق الطرفان على عقد زواج سياسى بين الابن الأصغر لملك فرنسا وهو الدوق أورليان وابنة الامبراطور أو ابنة أخته ويكون الصداق (الدوطه) الذى تقدمه للعروس أما الأراضى المنخفضة أو دوقية ميلان [1].

---

(١) لم يتم هذا الزواج بسبب وفاة الدوق أورليان عام ١٥٤٥. ولذلك فقدت فرنسا أملها فى أن يحكم أمير من الأسرة المالكة الفرنسية، ولكن فى نفس الوقت لم يعد فرنسوا مضطرا للتنازل عن بيدمنت وسافوى.

وفاة فرانسوا الأول:

وفى شهر مارس عام ١٥٤٧ مات الملك فرانسوا الأول دون أن يحقق لفرنسا شيئا من أهدافها فى شبه الجزيرة الإيطالية، وتولى العرش ولى عهده هنرى الذى كان متزوجا من إحدى أميرات أسرة دى مديتشى التى كانت تحكم فلورانسا، وهى كاترين دى مديتشى التى كانت لها شخصية قوية أثرت فى تاريخ فرنسا كما سيرد فيما بعد.

هنرى الثانى (١٥٤٧-١٥٥٩):

واجه هنرى الثانى عند توليه العرش مشكلتين أساسيتين: أولاهما الصراع القائم بين فرنسا والامبراطور شارل الخامس، وثانيهما الأطماع الإنجليزية فى شمال البلاد وعدوان الملك هنرى الثامن ملك إنجلترا على الأراضى الفرنسية فى الشمال واستيلائه على ثغر بولونى Boulogne فى أواخر عهد الملك الراحل فرانسوا الأول، وكان على فرنسا أن تواجه كفاحا مريرا لاسترداد هذا الثغر.

وكان الامبراطور شارل الخامس فى مركز القوة عندما بدأ صراعه مع هنرى الثانى، فقد تخلص من أهم مشكلة داخلية صادفته أثناء حكمه بانتصاره على حكام الولايات الألمانية من الأمراء البروتستانت (أبريل ١٥٤٧) وإحكام قبضته على ألمانيا. ورأى هنرى الثانى ألا يدع الأمور تسير فى مصلحة غريمه، فعمل على إثارة الأمراء البروتستانت ليعاودوا السعى فى مقاومة الامبراطور واتصل بهم فى الخفاء وقدم لهم المعونات المالية رغم أنه كان متعصبا للكاثوليكية. وعقد معهم معاهدة يقدم لهم بموجبها نفقات الحرب فى مقابل موافقتهم على أن تستولى فرنسا على تول ومتز وفردان وهى مدن على الحدود يتكلم معظم سكانها الفرنسية، وبذلك يمتد نفوذها إلى الالزاس واللورين.

وفى فبراير ١٥٥٢ قام هنرى الثانى بالهجوم على الحدود الألمانية، فعبرت قواته نهر الميز واستولت على فردان وتول ومتز، واشتركت جيوش الأمراء الألمان المتحالفين معه فى الحرب ضد الامبراطور، واضطر شارل الخامس إلى شن حملة

مضادة لانتزاع متز- وهى أقوى حصن من حصون الحدود فى اللورين- فحاصرها بقوات أتى بها من ألمانيا وأسبانيا، ألا أن هذه القوات باءت بالفشل، فأسقط فى يده ولم يستطع احتمال الكارثة، وتعب من طول الحروب التى خاضها وبعد تفكير عميق، قرر أن يتنازل عن عرش الامبراطورية الرومانية التى تشمل ألمانيا والنمسا لأخيه فرديناند، وعرش أسبانيا الذى كانت تتبعه الأراضى المنخفضة والممتلكات الأسبانية فى العالم الجديد لابنه فيليب الذى سبق أن زوجه مارى تيودور ملكة إنجلترا وهو زواج سياسى يضمن وقوف إنجلترا فى صف أسبانيا، وقد تم التنازل الرسمى فى أكتوبر سنة ١٥٥٥، وقضى بقية حياته، فى أسبانيا حتى مات عام ١٥٥٨.

مواصلة الحروب الإيطالية.

أصبح فيليب الثانى ملك أسبانيا والأراضى المنخفضة مسئولاً عن الممتلكات الأسبانية من نابلى وميلان بإيطاليا بعد أن انتصر الأسبان فى كل الملاحم التى خاضوها فى إيطاليا ضد القوات الفرنسية، أضف الى ذلك تهديدهم لروما مقر البابوية.

وكان البابا بول الرابع، الذى انتخب عام ١٥٥٥، عدوا متحمسا ضد الأسبان وخصوصا عندما عقد الامبراطور شارل الخامس الصلح مع البروتستنت أعداء الكنيسة الكاثوليكية. ولذلك كان البابا يكن الحقد والبغضاء لأسرة هبسبرج ويسخط على الامبراطور فرديناند الذى وافق فى معاهدة أجزبرج على منح الحرية الدينية لأتباع لوثر.

وفكر البابا فى الاستعانة بالملك هنرى الثانى ملك فرنسا الذى استجاب لنداء البابا وأرسل القوات الفرنسية بقيادة «فرنسوا دى جيز» أقدر قائد فرنسى فى ذلك العهد، وعادت الحرب من جديد (سبتمبر ١٥٥٦) على أرض إيطاليا، إلا أن الأسبان تحركوا من نابلى نحو روما وهزموا القوات التابعة للبابا. وعجز القائد الفرنسى عن اقتحام حصون نابلى. واضطر البابا بول الرابع أن يقبل صلحا عرضه الأسبان

كان أهم شروطه أن توضع إيطاليا تحت الحماية الأسبانية وإلغاء الحلف المعقود بين البابا والملك هنرى الثانى وأن يستقبل البابا ملك أسبانيا فيليب الثانى كأحد الرعايا المخلصين للكنيسة.

ورغم تلك الهزيمة العسكرية والأدبية التى مُنى بها ملك فرنسا فقد عاد إلى ميدان الحرب مرة أخرى ضد الأسبان فى مستهل عام ١٥٥٧، وفى هذه المرة انضمت إنجلترا إلى جانب أسبانيا، وذلك بتأثير فيليب على زوجته ملكة إنجلترا مارى. وحاصرت قوات أسبانية وإنجليزية ومرتزقة مدينة سان كانتان تيودور Saint Quentin فى شمال فرنسا وانتصرت على الفرنسيين انتصاراً حاسما وسقطت المدينة فى أيديهم فى صيف عام ١٥٥٧ . وبدأ كأن الطريق أصبح مفتوحاً للقوات الأسبانية للتقدم نحو باريس حتى أن شارل الخامس الامبراطور السابق - وكان لا يزال يعيش فى عزلته بأحد الأديرة- يترقب على أحر من الجمر دخول ابنه فيليب الثانى العاصمة الفرنسية، على أن تلك الأمنية لم تتحقق، وعاد الفرنسيون للقتال، وانتزعوا ثغر «كاليه» من الانجليز (يناير ١٥٥٨) وكان ذلك تعويضا لهم عن هزيمتهم وبذلك فقدت إنجلترا آخر أملاكها فى فرنسا.

معاهدة كاتوكمبرسيس ٥٥٩ Cateau Cambersis:

شعر الجانبان المتحاربان- فرنسا وأسبانيا- أن الحروب الايطالية قد أنهكت قواهما وحطمت اقتصادهما، وأفنت عددا كبيراً من قوات الطرفين على مدى ما يقرب من خمسين عاماً دون أن يحصل أحدهما على نصر حاسم، رغم نجاح الأسبان فى كسب عدة مواقع فى الأيام الأخيرة. وقد تهيأت الفرصة فى أكتوبر ١٥٥٨ للقيام ببعض الاتصالات وإجراء المفاوضات للوصول إلى حل ينهى تلك الحروب الإيطالية التى طال أمدها، وأخيراً تم عقد معاهدة «كاتو كمبرسيس» - وهى بلدة تقع بالقرب من الحدود الفرنسية البلجيكية - تقرر بمقتضاها ما يلى:

أولا: تنازلت فرنسا لأسبانيا عن الحقوق التى تدعيها فى ميلان ونابلى وبذلك

يتم تدعيم الحكم الأسباني فيهما، كذلك وافقت على التنازل عن دوقية سافوي التي كانت تجمع سافوى وبيدمنت (أو مملكة سردينيا فيما بعد)[١].

ثانيا: احتفظت فرنسا لنفسها بالثلاث أسقفيات التي استولى عليها هنرى الثانى وهى متز وتول فردان على أن تظل من الناحية الإسمية تابعة للإمبراطورية الرومانية المقدسة، وقد كان لهذا الكسب الفرنسي أثره في المستقبل، عندما أقدمت فرنسا على احتلال أقليم اللورين كله بعد قرنين من إبرام تلك المعاهدة.

وقد وطدت هذا دعائم الصلح بالإتفاق على قران فيليب الثاني– الذى ماتت زوجته الملكة مارى تيودور– بالأميرة اليزابيث إبنة هنرى الثانى ملك فرنسا.

وتعتبر معاهدة كاتوكيرسيس فاتحة عهد جديد فى العلاقات الدولية فى أوروبا. فقد كانت خاتمة حروب طاحنة استعرت نيرانها مدى أربعين عاماً بين فرنسا وأسبانيا. ثم إنها قضت على المشاحنات التى كانت قائمة بين فرنسا وأسرة هبسبرج، إلا أن المؤرخين المعاصرين فى فرنسا اعتبروا هذا الصلح كارثة حلت بفرنسا، وأن هنرى الثانى كان متساهلا فى حقوق وطنه بمنح الملك الأسبانى فيليب شروطاً سخية فى الوقت الذى كان الأخير فيه قد تعب من الحرب وكان محتملا أن يفشل عن مواصلتها، ولكنهم كانوا يعزون تكالب الملك الفرنسى على الصلح إلىأنه كان شديد الرغبة فى أن يتفرغ لمكافحة الخارجين على الكاثوليكية فى فرنسا عندما انتشرت حركة الإصلاح الدينى.

والواقع أن الحروب الإيطالية التى انتهت بمعاهدة كاتوكمبرسيس قد عاصرتها حروب دينية انتشرت بين كثير من الشعوب الأوروبية وبقيت مستعرة هنا وهناك حتى عام ١٦٤٨ وهو العام الذى انتهت فيه حرب الثلاثين عاما بعقد معاهدة وستفياليا.

---

(١) كان هذا التنازل لدوق سافوى الذى كان قائداً للقوات الأسبانية التى هزمت الفرنسيين عند سانت كانتان، وقد فرضت المعاهدة زواجاً سياسيا يفرض على ملك فرنسا أن يزوج أخته لذلك القائد على أن تقدم العروس لزوجها دوقية سافوى الفرنسية صداقا لهذا الزواج– وقد قبلت فرنسا هذا الشرط لأنها كانت منهوكة القوى وفى أشد الحاجة إلى السلام.

الفصل الخامس

حركة الإصلاح الدينى

لم تكن حركة الإصلاح الدينى فى أوروبا ثورة مفاجئة، ولكنها كانت حركة لها أصول وجذور فى تاريخ الكنيسة الكاثوليكية، فقد تعرضت على مدى العصور لعدة أخطار كانت تجتازها المرة تلو الأخرى، على مدى القرون الوسطى ومطلع العصور الحديثة. ونستطيع تقسيم تلك الأخطار إلى قسمين أخطار تعرضت لها فى عصورها الأولى عندما كان الانقسام يثور حول مسائل دينية معينة، وما تعرضت له المسيحية من خطر ظهور الاسلام وانتشاره فى القرن السابع الميلادى، وما تبع ذلك من سقوط القسطنطينية فى أيدى المسلمين فى القرن الخامس عشر، وزحف المغول من الشرق على قلب أوروبا. ألا أن هذه الأخطار كانت فى الواقع من عوامل تماسك الكنيسة ومقاومتها أعداء المسيحية فى الخارج.

وأما أخطار القسم الثانى فقد تجلت عندما خف الضغط الموجه من الخارج على الكنيسة إذ تعرضت البابوية لهزات عنيفة بعد أن بلغ النفوذ البابوى ذروته فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر. وبعد ذلك فقد تغير مركز البابا عندما جمع بين صفته الدينية كرئيس للكنيسة المسيحية. وصفة أخرى اكتسبها كحاكم دنيوى لا يقل عن الملوك والحكام فصار يحكم ولايته حكما زمنيا. وله بلاط ينافس بلاط الملوك والأمراء فى الترف والانحراف، وقد فقدت البابوية هيبتها فى القرن الرابع عشر وخاصة فى الفترة ما بين عامى ١٣٠٥ و ١٣٧٧ عندما انتخب مجلس الكرادلة رئيس أساقفة بوردو بفرنسا ليعتلى عرش البابوية باسم البابا كلمنت الخامس، ورأى البابا الجديد أن يبقى فى فرنسا وتمت مراسم توليه البابوية فى ليون بدلا من روما، وجعلت مدينة أفينون على نهر الرون مقراً جديداً للبابوية التى ظلت هناك حوالى اثنتين وسبعين سنة خاضعة للملكية الفرنسية حتى أطلق على هذه الفترة إسم (الأسر البابوى) وبذلك فقدت البابوية الشىء الكثير من سمعتها وزعامتها العالمية.

الانقسام العظيم:

وازداد انهيار المركز البابوى فى عام ١٣٧٨ عندما حدث الانقسام البابوى العظيم The Great Papal Schism (١٣٧٨-١٤١٧). فقد جرى انقسام بين الكرادلة نتج عنه اختيار اثنين من البابوات أحدهما فى أفنيون والآخر فى روما. وبذلك ظهرت عوامل التفرقة والتفكك فى العالم المسيحى وكان من آثار المساوئ التى ترتبت على البابوى فى فرنسا. والإنقسام العظيم أن سلطة البابا أصبحت موضع جدل ونقاش، أخيراً اجتمع المجمع الكنسى فى كونستانس Constance (١٤١٤-١٤١٧) وقرر حسم المشكلة والقضاء على الانقسام بانتخاب رجل واحد هو البابا مارتن الخامس Martinv على أن تكون روما وحدها مقر البابوية.

وهكذا مرت البابوية فى ظروف دقيقة أفقدتها هيبتها وعظمتها القديمة، وزادها انهياراً أن البابوات أصبحوا جماعة من المترفين الذين لا يعنيهم أمر الكنيسة بقدر ما يعنيهم جمع المال لتحقيق مصالحهم الخاصة ومصالح أقاربهم والمحيطين بهم، مما دفع بعدد من المفكرين والمصلحين لبحث الموقف وكان ذلك نذيراً بوجود معارضة شديدة لما وصلت إليه الكنيسة الكاثوليكية والمطالبة بالإصلاح ومرت حركة المطالبة بالإصلاح بمرحلتين الأولى مرحلة كان المرتبطون بالإصلاح، الدينى يطالبون الكنيسة بإزالة مفاسدها وتنظيم شئونها على أيدى رجالها أى تصلح الكنيسة نفسها بنفسها وبذلك يأتى الإصلاح من الداخل والثانية مرحلة يطالب فيها المصلحون الكنيسة أن تقبل مرغمة ما يفرض عليها من الوسائل التى يقترحونها ما دامت قد فشلت فى إصلاح نفسها.

وكان كبار المصلحين فى المرحلة الأولى يوحنا روكلن ١٤٥٥- ١٥٢٢ وأرزم (١٤٧٧-١٥٤٦)، أما الأول فقد آثار بكتاباته وانتقاداته تفكير المثقفين، وأصبح له أتباع وتلاميذ يبحثون فى مساوىء الكنيسة ومثالبها، وينتقدون ما تفشى على يد الكنيسة من بدع وخرافات ونجحوا فى تهدئة الرأى العام بفكرة الإصلاح الدينى.

وأما (ارزم) فقد سعى فى تأليب الرأى العام ضد البابوية ومفاسدها بما كان ينشر على الناس من آراء شديدة وأفكار متحررة [1] وأهم عمل أدبى قام به هو نشره ترجمة للكتاب المقدس اليونانى القديم (العهد القديم) وقد كان لهذه الترجمة أثرها فى تخليص الفكر الانسانى من سيطرة رجال الدين، وذلك لأن هذه الترجمة التى نشرها عام ١٥١٦ عن النص اليونانى أظهرت أن نسخة الكتاب اللاتينية التى اعتمدت عليها الكنيسة لم تكن الوثيقة الأصلية، وأن بها أخطاء فى عدة مواضع، وكانت تلك سبيلا إلى فهم الدين، وأفادت تفسيراته القارىء العادى، وقد تمت شروحه وتفسيراته إلى اللغة الانجليزية.

وهكذا ساعد كل من روكان وارزم على خلق جو من المعارضة للكنيسة وتهيئة الأفكار لتقبل حركة الإصلاح الدينى رغم أنهما لم يقصدا الخروج على الكنيسة الكاثوليكية ولكنهما كان يناديان بأن يأتى الإصلاح من داخل الكنيسة نفسها. ولكن بعد أن فشلت الكنيسة فى الاستجابة للإصلاح من الداخل، قام مصلحون آخرون يطالبونها أن تقبل الإصلاح إن اختيارا أو كرها، وعندئذ بدأت المرحلة الثانية التى كان مارتن لوثر أول زعمائها وأشدهم تأثيراً فى تاريخ الإصلاح الدينى. وقد بدأت ثورته فى ألمانيا.

وقد بدأت الثورة الدينية فى ألمانيا نظراً لظروف ألمانيا الخاصة. فقد كانت المعتقدات الدينية وفلسفة اللاهوت أرسخ فيها من إيطاليا مقر البابوية، وكان بها عدد من المفكرين تعرضوا بالنقد لمعايب البابوية ومثالبها المالية والأدبية. وقد ساعد على نشر آرائهم اختراع الطباعة فى شمال ألمانيا مما سهل على الطبقة الألمانية المثقفة

(١) كان أرزم حلقة اتصال بين حركة النهضة وحركة الإصلاح الدينى، وقد ولد فى روتردام بهولنده ودرس بها اللاهوت ثم انتقل إلى جامعة باريس حيث درس اللغة اللاتينية وأجادها ثم أخذ ينتقل من جامعة إلى أخرى حيث اختلط بكبار العلماء والأساتذة، وفى سنة ١٤٩٨ زار إنجلترا، وقابل عدداً من الباحثين فى اكسفورد ممن درسوا اليونانية، فتاقت نفسه لدراستها حتى أصبح أشهر علماء العصر فى الآداب والعلوم الكلاسيكية.

الاطلاع على أوجه النقد الموجهة إلى الكنيسة ومشاركة كبار الكتاب آراءهم وفلسفتهم الدينية.

وقد كان للموقف السياسى فى ألمانيا فى ذلك الحين أثره الواضح فى قيام تلك الثورة الدينية، فقد كانت ألمانيا منقسمة إلى مئات من الولايات شبه المستقلة لا يجمعها سوى انتمائها الاسمى لحكم إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة الذى لا يملك ولا يحكم.

وكانت البلاد كلها تمر فى أزمة اقتصادية واجتماعية وروحية تجمعت كلها فى مطلع العصور الحديثة. فالطبقة المتوسطة (البورجوازية) كانت تواجه أزمة خطيرة هى محاولة استعادة ما كان لها من ثروة ومركز إجتماعى محترم تمتعت به زمن العصور الوسطى عندما كانت ألمانيا بموقعها الجغرافى وسط أوروبا لا تزال غنية.

كذلك كان عدد من صغار النبلاء يؤلفون طبقة خاصة فى البلاد وهى طبقة الفرسان Knights التى كان لها شأن حربى خطير فى العصور الوسطى، وعندما دهم الامبراطورية ذلك الانحلال الذى حدث فى بداية العصور الحديثة وقسمها إلى إمارات محلية يسيطر عليها الأمراء. فقد الفرسان أهميتهم التقليدية القديمة، ولم يجدوا سبيلا للعيش وجمع الثروة سوى القيام بأعمال السلب والنهب عندما تسنح لهم الظروف. ومع ذلك لم ينسوا ما كان لطبقتهم فى الماضى من مجد ونفوذ، ولهذا كانوا ساخطين على ما وصلت إليه حالتهم ومركزهم ومعيشتهم.

أما طبقة الأمراء والنبلاء فلم يكن باستطاعتهم الاطمئنان على سلامة أملاكهم وتدعيم نفوذهم. كما لحقتهم الأزمات المالية بسبب نفقات الإدارة ومطالب الحكم، ثم إنهم كانوا يدركون أن أغلب موارد الأرض فى ولاياتهم تذهب للكنيسة الكاثوليكية والبابوية التى تتخذ مقرها فى بلاد أجنبية، ومن ثم كان لها نفوذ خطير فى بلادهم. حيث تتدخل فى تعيين رجال الكنيسة والوظائف المتصلة بها، وأصبح همّ أولئك الموظفين الذين تعينهم الكنيسة الكاثوليكية أن يجمعوا الأموال من الأرض الألمانية لترسل إلى روما.

وبما تقدم يتبين مدى إجماع معظم الطبقات على السخط على الكنيسة الرومانية ولذلك كانت ألمانيا أرضا صالحة لقيام الثورة. وجاءت حركة مارتن لوثر كحركة تعبير جماعية عن إرادة الشعب فى تغيير الأوضاع الدينية السائدة.

الإصلاح الدينى فى ألمانيا.

كانت ألمانيا قبل بداية العصور الحديثة تمثل ما تبقى من الامبراطورية الرومانية المقدسة، وكانت تلك الامبراطورية تتكون من إتحاد مئات من الولايات شبه المستقلة، ولما تولى الامبراطور مكسمليان (١٤٩٣-١٥١٩) عرش الامبراطورية ظهرت فى ألمانيا نهضة قومية ولكنها لم تستطع أن تصل إلى تكوين حكومة مركزية قوية، حركة النهضة الأوروبية كان لها أثرها الفعال فى إطلاق الأفكار من عقالها فى ألمانيا، ونظراً لظروف ألمانيا الخاصة فقد ظهرت تلك النهضة بمظهر دينى حيث بدأت بها حركة الإصلاح الدينى.

كانت الكنيسة فى ألمانيا تسيطر سيطرة خطيرة على مقدرات البلاد منذ أن سادت فى العصور الوسطى النظرية بأن البابا هو ظل الله على الأرض. وهى النظرية التى حجبت سلطان الحكام الأوروبيين من أباطرة وملوك، وجعلت من حق البابا التدخل فى الشئون الدينية والسياسية لكل الحكومات، باعتبار أن السلطة تأتى من عند الله. وبما أن البابا يمثل سلطة الإله على الأرض فكل سلطة إذن تتمثل فى شخصه حتى أصبح كل حاكم يشعر بأن للبابا نفوذاً فى بلاده لا يقل عن نفوذ الحاكم. وكان للكنسية أملاك فى كل دولة من الدول الأوروبية يتصرف فيها البابا تصرف المستقل، يفرض الضرائب على الرعايا فى أى بلد من البلاد لمصلحة الكنيسة ويعين رجال الدين الذين يختارهم دون تدخل من عاهل الدولة.

وعندما تولى العروش فى أوروبا - فى عهد النهضة - ملوك أقوياء كما حدث من فرنسا وأسبانيا وإنجلترا، أخذ هؤلاء الملوك على عاتقهم معارضة سلطة البابا فى بلادهم ونجحوا إلى حد كبير فى تحدى سلطانه ونفوذه.

ففى فرنسا أصدر الملك شارل السابع فى عام ١٤٣٨ مرسوما ملكيا تحدى به سلطة البابا وسيطرته على شئون الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية، وبدأ هو ومن خلفه من الملوك يصدرون الأوامر بتعيين الأساقفة وغيرهم من رجال الدين فى بلادهم وهو الذى كان حقا ثابتاً للبابوات من قبل.

وفى أسبانيا، فى عهد فردناند وإيزابيلا أصبح من حق التاريخ تعيين رجال الكنيسة وقدر صدر أول مرسوم بذلك فى عام ١٤٤٢، وصدرت الأوامر بتحريم إستئناف الأحكام التى تصدرها المحاكم الدينية فى أسبانيا أمام المحكمة العليا فى روما.

وفى إنجلترا أخذ سلطان البابا ينهار شيئا فشيئا منذ منتصف القرن الرابع عشر حتى تخلص الملوك نهائيا من التدخل البابوى فى الشئون الدينية للبلاد كما سيأتى ذكره.

أما ألمانيا، فقد احتفظت الكنيسة الرومانية بقوتها وسلطانها وذلك بسبب ضعف الامبراطورية وعلى الأخص فى عهد الامبراطور «فردريك الثالث» الذى استمر حكمه ثلاثا وخمسين سنة (١٤٤٠- ١٤٩٣) وقد أكد هذا الامبراطور إدعاء البابوية عندما عقد اتفاق فينا عام ١٤٤٨ والذى ثبت فيه حق البابا فى السيطرة على الكنيسة الألمانية، وعلى ذلك ظل البابا يمارس فى ألمانيا نفس الحقوق التى كانت لبابوات القرون الوسطى.

وقد غالى بعض البابوات فى التحكم وفرض الإرادة على الشعب الألمانى، وأرسلوا إلى ألمانيا أتباعهم من رجال الدين يجمعون المال بكافة السبل، وارتكبت رسل البابا جرائم الرشوة والابتزاز فكانوا يقبلون المال من المرشحين لوظائف الكنيسة، ويجمعون المال بحجة الاستعداد لحرب صليبية قريبة ضد الأتراك العثمانيين، وغير ذلك من الحيل التى كان البابوات يلجأون إليها لسد حاجتهم من المال ينفقونه لتحقيق أطماعهم السياسية، والتشبه بالملوك والأمراء من الاستمتاع بالحياة المرفهة واقتناء النفائس الفنية من روائع فنانى النهضة الإيطالية، حتى أصبح البابوات فى هذه الفترة من التاريخ جماعة من المترفين الذين لا يعنيهم أمر الكنيسة بقدر ما يعنيهم تحقيق مصالحهم الخاصة ومصالح أقاربهم وذويهم.

ولم تكف المجالس النيابية (الريخستاج) فى الولايات الألمانية فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر عن التنديد بتلك المثالب ووسائل ابتزاز الأموال باسم الكنيسة وكانوا يبعثون باحتجاجهم فى رسائل متعددة إلى روما دون جدوى.

ولعل أسوأ مظهر من مظاهر ابتزاز الأموال هو التوسع فى بيع صكوك الغفران مما أثار المعارضة والجدل، وابتداع هذه الصكوك يرجع إلى عام ١٣٠٠ ميلادية عندما ابتكر البابا بونيفاس السابع Boniface VII مرسوما بابويا مقدسا يعرف بالغفران Indulgence ويقضى بأنه إذا اعترف شخص اعترافا كاملا بذنوبه وتبرأ منها وندم ندما حقيقيا على خطاياه، فإنه يتخلص من عقاب الآخرة [1]، ولكى يحصل على هذه المغفرة، عليه أن يدفع لقاء ذلك هبة مالية، وظل ذلك تقليدا على مدى الأجيال يقبل عليه الجهلاء ويعارضه المفكرون إلى أن أرسل البابا أحد الرهبان واسمه تتزل Tetzel فى عام ١٥١٧ لتوزيع صكوك الغفران على الناس فى ألمانيا- وكان البابا قد خوله جمع الأموال لبناء كنيسة القديس بطرس فى روما، وكان المؤمنون برسالة البابا يدفعون مقابل هذه الصكوك مبلغا معينا من المال، مما أثار المصلح الكبير مارتن لوثر وجعله يتزعم ثورة دينية لإصلاح الكنيسة ترتب عليها ظهور المذهب البروتستانتى، وهو مذهب ثورى لم يقتصر أصحابه على المطالبة بوجوب تصحيح مساوىء الكنيسة فحسب، بل طالبوا بإصلاح الكنيسة نفسها، وإقامة كنيسة تؤسس على المبادىء والأسس المستمدة من الإنجيل.

---

(١) الأصل فى نشأة هذه الصكوك هى فكرة الاعتراف أمام القسيس لقبول توبة المعترف الذى لا يدخل الجنة فى الحال بعد موته بل بمضى فترة من الزمن فيما يسمى بالمطهر الذى يقضى فيه المذنبون حكم الله بالعذاب إلى أن يتطهروا من ذنوبهم، ولتخفيف عذاب المطهر ابتكرت الكنيسة صكوك الغفران التى كانت مورداً ماليا در عليهم أموالا كبيرة جعلها تتغالى فى إباحة بيعها حتى لمن يريد غفران خطاياه القادمة فى مستقبل أيامه.

مارتن لوثر وحركة الإصلاح ١٤٨٣- ١٥٤٦م

ولد مارتن لوثر فى قرية ثورينجيا بمقاطعة سكسونيا من أبوين يعيشان على فلاحة الأرض، وعاش فى حداثة سنه فى بيئة انتشرت فيها الخرافات الدينية والمعتقدات الزائفة التى صورت المسيح فى صورة المنتقم الجبار الذى يتوعد الناس بأقصى أنواع التعذيب، والعقاب فى الآخرة. فتسلط على مارتن الخوف وتملكه القلق والإحساس بالرهبة من الانتقام الإلهى، ولم تقنع نفسه بالوسائل التى كانت تقدمها الكنيسة لتهدئة عذابه النفسى.

عنى والداه بتعليمه رغم فقرهما فأرسلاه إلى المدرسة، ثم إلى جامعة أرفورت لدراسة القانون، إلا أنه بما تسلط عليه من خوف وقلق دينى قرر عام ١٥٠٥ أن ينخرط فى سلك الرهبنة لعل فى ذلك نجاة له من خطاياه وخلاصا له من ذنوبه، ودخل دير أوغسطين حيث انكب على الصلاة والتقشف وتعذيب النفس أملا فى الوصول إلى رحمة الله وعفوه، ورسم كاهنا فى عام ١٥٠٧ ، وفى الوقت نفسه كان يدرس علم اللاهوت حتى نال شهادة الدكتوراه واستدعى للتدريس فى جامعة فتنبرج Wittenberg بمقاطعة سكسونيا سنه ١٥٠٨ حيث لمع اسمه والتف حوله الرواد من تلاميذه المعجبين بآرائه وتأملاته، ولا سيما فى المسألة التى كانت تشغل باله، مسألة (الخلاص) والتطهر من الخطايا.

وفى عام ١٥١٠ زار روما، واطلع بنفسه على مفاسد البابوية، فازدادت شكوكه، وعظم ارتيابه. فظل يفحص ويتأمل حتى اهتدى إلى العقيدة التى بعثت فى نفسه الهدوء والرضا والطمأنينة، وتتلخص نظريتة فى أن الايمان برحمة الله يكفل النجاة من عقابه، وأن الصلاة والعبادة بجميع طقوسها وأشكالها ليست كافية للخلاص من الخطايا، وإنما يتخلص الإنسان من خطاياه بإسداء الحمد والشكر من قلب طاهر سليم إلى العلى القدير. تلك هى العقيدة التى اهتدى إليها مارتن لوثر من دراسته للكتاب المقدس، ورسالة الرسول بولس إلى مسيحيى روما، وسميت بعقيدة

التبرير بالإيمان Justification by Faith . وقد عاش لوثر بهذه العقيدة راضيا مطمئنا لبضع سنوات، يبشر بها بين تلاميذه فى هدوء وسلام دون تدخل من السلطة أو الكنيسة، إلى أن جاء دوره ليعلن على الملأ مبادئه وآراءه التى كان لها أثرها الكبير فى مجرى التاريخ الأوروبى كله.

ففى عام ١٥١٧ جاء إلى ألمانيا الراهب تتزل الذى أشرنا اليه ليوزع صكوك الغفران. فأثار ذلك مارتن لوثر، ورأى أن يعلن احتجاجه علنا. وانتهز فرصة اجتماع الناس على عادتهم فى كنيسة فتنبرج فى أول نوفمبر من كل عام وعلق على باب الكنيسة احتجاجا طويلا يشتمل على ٩٥ مادة ضد صكوك الغفران، وأعلن فى وثيقته عقيدة التبرير بالإيمان، وأن الغفران رهن برحمة الله وحدها، وأن البابا لا يستطيع التدخل فى غفران الذنوب، ثم دعا لوثر كل من يشاء من العلماء لمناقشة الحجج التى ساقها تأكيدا لمذهبه.

وفى أثناء جداله مع يوحنا تتزل وغيره من مؤيدى الكنيسة تعرض لوثر بالنقد اللاذع لنظام الكنيسة وسلطتها العليا وتعاليمها، وصرح بأن الكتاب المقدس وحده هو القانون الذى يرجع إليه ويعتمد عليه فى تفسير العقائد وفى المسائل المختلف عليها. وأن كل شخص مثقف باستطاعته أن يقرأ الإنجيل وهو حر فى تفسيره على حسب فهمه وإدراكه له وأنه ليس للبابا الحق فى احتكار تفسيره، كذلك يجب إباحة الزواج للقس وإخضاع رجال الدين للسلطة الزمنية.

وقد لاقت آراء لوثر رضاء الكثيرين، والتف حوله أتباع متحمسون فى ألمانيا وهم أولئك الساخطون على تصرفات الكنيسة فى روما وتحكم البابا فى العباد وادعاء بأنه واسطة الغفران عند الله. وفى عامى ١٥١٩و١٥٢٠ عبأ لوثر الرأى العام بسلسلة من الكتابات الدينية التى ضمنها تفسير العقيدة الجديدة وأوضح أن ادعاء الأكليروس بأنهم أصحاب الكلمة الأخيرة وأنهم يختلفون عن عامة الناس محض ادعاء كاذب، وأن على الناس أن يبحثوا عن الحقيقة بأنفسهم فى الكتاب المقدس. وفى الوقت

نفسه وجه الدعوة إلى أمراء ألمانيا وفرسانها يهيب بهم أن يتزعموا حركة الإصلاح، وبنى تلك الدعوة لهم على أساس أن رجال الدين خاضعون للسلطة الزمنية، وأن البابا ليس وحده صاحب الحق فى احتكار الكتاب المقدس، وعليهم واجب يجب تأديته لخدمة الإنسانية وهو الإشراف على الدين فى بلادهم. وأعلن وجوب انقاص عدد الأديرة، وأنه لا ضرورة للحج إلى روما، ونشر رأيه كذلك بإباحة الزواج لرجال الدين، ووجه أعنف النقد للكرادلة على حياة البذخ والرفاهية التى يتمتعون بها.

أجابت الكنيسة على حركة لوثر بأن أصدر البابا ليو العاشر قرار الحرمان من الكنيسة ضد لوثر (ديسمبر ١٥٢٠) وكان رد مارتن لوثر أن أحرق قرار البابا علانية وبصورة رسمية أمام الناس فى ساحة وتنبرج. وبذلك انقطعت كل صلة بين لوثر والكنيسة، وتفاقم الأمر حتى أن البابا طلب من الامبراطور شارل الخامس أن يلقى القبض عليه وقمع حركته وتنفيذ قرار الحرمان الصادر ضده باعتباره مارقا خارجا على المسيحية.

واستدعى مارتن لوثر للمثول أمام مجلس يمثل الامبراطورية فى مدينة إورمس Worms لمحاكمته (يناير ١٥٢١) ولما ناقشه مجمع فورمس فى آرائه أصر على كل كلمة فاه بها أو كتبها من قبل. وعندئذ اعتبر خارجا على القانون وحكم عليه باهدار دمه وحرمانه من الحقوق المدنية فى الامبراطورية. إلا أن فردريك أمير سكسونيا وآخرين من أمراء شمالى ألمانيا وضعوه تحت حمايتهم، ولجأ لوثر إلى قلعة حصينة تحت حماية فردريك، وبذلك نجا من العقوبة وأقام هناك بمعزل عن الناس لمدة عام ترجم أثناءه الإنجيل إلى اللغة الألمانية، وكان لهذه الترجمة أثر كبير فى إحياء الأدب الألمانى، وسهل على العامة فهم معانى الكتاب المقدس بعد أن كان التفسير وقفا على رجال الدين.

وفى تلك الأثناء اضطر شارل الخامس إلى مغادرة ألمانيا لمعالجة بعض الشئون العاجلة فى أسبانيا إلا أن ثورة الإصلاح الدينى لم تتوقف واكتسحت اللوثرية ـ أى

حركة المعارضة للكنيسة الرومانية ــ معظم الطبقات فى ألمانيا، ثم انفجرت تلك الثورة فى صور شتى تبعا للظروف الاقتصادية والاجتماعية التى كانت تعيشها ألمانيا فى ذلك الحين، حيث رأت بعض الطبقات فى حركة لوثر سبيلا لتحقيق ما كانت تطمع فيه من إصلاح أحوالها. واتخذت العنف وسيلة للوصول إلى أهدافها، فقامت ثورتان خطيرتان أدتا إلى الصدام بين السلطة والشعب مما أزعج «لوثر» وجعله يخرج من مخبئه فى قلعة وارتبورج Wartbourg ليعلن أن حركة الاصلاح الدينى تبرأ من اتخاذ العنف وإراقة الدماء وسيلة لتحقيق أهدافها. وكان أهم حركات الثورة. حرب الفرسان وحرب الفلاحين.

حرب الفرسان:

كان الفرسان يكونون طبقة تختلف كل الاختلاف عن بقية أفراد الشعب، فقد كان الفارس يمتلك إقطاعية صغيرة من الأرض يتوسطها قصره المشيد على هيئة معقل أو قلعة، ولا يعترفون بالسيادة إلا للإمبراطور نفسه. ولم يكن لأحدهم مقعد فى الديت الألمانى. ومن هنا كان عليهم أن يعتمدوا على قوتهم وتضامنهم لكى يحتفظوا بمراكزهم ضد أمراء الولايات من جهة، وضد الامبراطورية من جهة أخرى. ولكنهم فى نهايه العصور الوسطى كانوا قد فقدوا ما كان لهم من هيبة وسلطان بعد انحلال العهد الإقطاعى، وقد دفعهم سوء حالهم إلى التعويض عما وصلوا إليه بمحاولة إظهار القوة والبطش، فكان بعضهم يهاجم أراضى الفلاحين لنهب محصولاتها. أو يبتز الأموال من التجار. فلما ظهرت الحركة اللوثرية، رأوا انتهازها كفرصة لاسترداد نفوذهم وثرائهم. عن طريق ما نادى به لوثر من تحرير الكنيسة من أملاكها فى ألمانيا.

لذلك قاموا بثورة عارمة مستغلين الإصلاح الدينى فهاجموا الكنائس والأديرة ودمروا ما كان بها من تماثيل ونفائس وطردوا الرهبان من الأديرة. وكان أبرز الفرسان الثائرين أولرخ فون هتن Ulrich Von Hutten الذى تزعم حركة التأييد القومى لمارتن لوثر ضد البابا، باعتبار البابا غريبا عن الوطن يبتز الأموال من ألمانيا بدون

وجه حق. وفى الوقت نفسه اتخذ الفرسان تلك الثورة وسيلة أخرى للتخلص من سلطان أعدائهم من الأمراء.

وقد ساعد هتن فى حركته فارس مشهور آخر اسمه فراتز فون سكنجن Siekingen وهو الذى بدأ حرب الفرسان عندما نشب الخلاف بينه وبين أحد رؤساء الأساقفة، وكان من الطبيعى أن يهب الأمراء لمساندة الأسقف، ولذلك لم يقو سكنجن على الصمود أمام أسلحة الأمراء الحديثة - وهزم ثم قتل تحت انقاض قلعته، واضطر الفارس الآخر هتن إلى الفرار إلى سويسرا حيث توفى بعد فترة وجيزة (١٥٢٣) وفشلت حركة الفرسان بعد أن تمكن الأمراء من دك حصونهم فخسروا الحرب وحرموا من امتيازاتهم السياسية التى تبقت لهم، واستبعدوا منذ هزيمتهم كعامل هام فى الحياة الألمانية.

وقد تأثرت الحركة اللوثرية بهذه الأحداث، وعلى الرغم من أن لوثر نفسه لم يكن موافقا عل استعمال القوة لتأييد حركة الإصلاح الدينى، وعلى الرغم من تصريحاته المتكررة بمعارضة الثورة المسلحة، إلا أنه اعتبر فى نظر السلطة الألمانية مسئولا عما جرى كله، كذلك أصبح الأمراء من أعداء الثورة، وكان ذلك إيذانا بحدوث انقسام بين طبقات الشعب الألمانى.

ثورة الفلاحين ١٥٢٤:

كانت طبقة الفلاحين فى ألمانيا تعانى أشد المعاناة من أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية، فهم يرزحون تحت أعباء ثقيلة من حياة السخرة وفرض الضرائب وما كان الأمراء ورجال الدين والأسياد الإقطاعيون يطالبونهم به من عمل فى أرضهم ومطالب أخرى مالية تحرمهم من ثمار كدهم وعرقهم أضف إلى ذلك أنهم كانوا محرومين من الحقوق التى يتمتع بها الفرد العادى كصيد الأسماك والحيوان.

جاءت الحركة اللوثرية فى وقت تفاقمت فيه روح التذمر والسخط بين الفلاحين ضد السلطات القائمة كلها من زمنية ودينية، ولما كان لوثر ينادى بحرية الإنسان، اعتقد الفلاحون أن الأوان قد آن لاستغلال مبادئه فى الثورة على الأوضاع

الراهنة والمطالبة بالتخلص من عبودية الأرض وتحديد الخدمات الإقطاعية المفروضة عليهم لأمراء الإقطاع، وتخفيف ضريبة العشر التي تؤدى للكنيسة. ومنحهم الحق في اختيار رجل الدين في كل مجتمع من مجتمعاتهم، وتحديد الضرائب والخدمات التي تؤدى لأمراء الاقطاع وحق الصيد في الأنهار التي تمر في الأرض التي يزرعونها وفي الغابات المحيطة بهم، وتحديد إيجارات الأراضي الزراعية تحديدا عادلا. ونادوا بأن يعاملوا بما جاء في الكتاب المقدس الذي لا يفرق بعد سيد ومسود، والعمل على ايجاد مجتمع مسيحي جديد على أساس المساواة المطلقة ، وقد تحمست عدة مئات منهم حماسا أدى إلى قيام ثورة عرفت باسم ثورة الفلاحين، وهي سلسلة من الثورات انفجرت في نهاية عام ١٥٢٤، في معظم الجهات بألمانيا وخاصة في الولايات الجنوبية ثم امتدت نحو المناطق الشرقية.

وانتهز أحد زعماء الاصلاح « توماس منزر Thomas Munzer ـ وكان حاكما لإحدى المدن ـ هياج الفلاحين ضد السلطات القائمة وتصدى لزعامة الثورة، ولكن قيادته لم تكن اجتماعية ولا حازمة، وفلت الزمام من يده، فقد عمدت عناصر كثيرة إلى التطرف في مبادئ الثورة حتى طالبت بشيوعية الملكية وتغالوا في أعمال العنف والتقتيل وقابل الأمراء والنبلاء تلك الثورة بمثلها في ارتكاب الوحشية والتعذيب في حق من تصل إليه أيديهم من الثوار، وتكتف الأمراء وجميع الفرسان مع القوات الامبراطورية في تحطيم تلك الثورة، فأخمدوها بدون رحمة ولا شفقة، وقتلوا من الفلاحين عشرات الألوف، وقد ألقت السلطات القبض على زعماء الثورة وعذبتهم ثم أعدمتهم. وانتهت ثورة الفلاحين في آخر عام ١٥٢٥ ولم تجن طبقة الفلاحين منها إلا الدمار، وعادت إلى حالتها الأولى من الذل والهوان.

وقد كان لثورة الفلاحين صداها في حركة الإصلاح الديني، إذ على الرغم من أن لوثر كان يندد بسياسة الملوك والأمراء تجاه رعاياهم، إلا أنه رأى أن ارتباط حركة الإصلاح الديني بالثورة والعنف قد يصرف هؤلاء عن مساندة حركة الإصلاح ولاسيما أنه كان يرى في المطالب الاقتصادية والاجتماعية المتغالية، تطرفا

لا يمت إلى حركة الاصلاح الدينى بسبب، وأنها حركة هدامه تخريبية يجب القضاء عليها، لأنها تتعارض مع تطلعه إلى ضمان مساعدة الحكومات الألمانية القائمة لحركته الاصلاحية، ولذلك خرج من مخبئه على الناس يدعوهم إلى الطاعة التامة للسلطات الحكومية، ونبذ وسائل الشدة والعنف، بل لقد حرض الأمراء على عدم التهاون فى قمع الثورة.

على أن مساندة مارتن لوثر للأمراء والنبلاء لم تخفف من حقد هؤلاء عليه لأنهم كانوا يشعرون بالأخطاء الناجمة عن استعمال الحركة اللوثرية، وأن ثورته الدينية هى التى حركت العصيان وأثارت الكثير من مبادئ الحرية والمساواة. لذلك استعدوا عليه الإمبراطور شارل الخامس من جديد، فاستجاب لهم لما رآه من تفاقم الحال واحتمال قيام ثروات أخرى تحت تأثير تعاليم لوثر، مما يؤدى إلى حدوث انقسام سياسى فى أعقاب الإنقسام الدينى.

موقف الإمبراطور:

ولم يكن الامبراطور شارل الخامس مسترشدا بواجبه الدينى بقدر تأثره بالموقف السياسى للإمبراطورية فى أوروبا حيث كان الصراع قائما بينه وبين فرنسوا الأول ملك فرنسا. كذلك كان من سوء حظ الكاثوليكية أن انتشرت اللوثرية فى ألمانيا فى الوقت الذى كان الأتراك العثمانيون يهددون ممتلكات الامبراطورية فى النمسا والمجر، فكان الامبراطور منهمكا فى ذلك النضال الخارجى، مكتفيا فى الداخل بمحاولة تهدئة الأحوال فى ألمانيا حتى يستطيع أن يضمن إرسال الإمدادات للمساعدة على وقف تقدم الأتراك، لهذا ظل مدة طويلة لا يستطيع اتخاذ موقف حاسم ضد اللوثرية مما شجع أنصارها وقوى ساعدهم. كذلك كانت علاقة الامبراطورية بالبابا على أسوأ حال. وخصوصا عندما دعا البابا كلمنت السابع فى مايو ١٥٢٦ إلى تكوين حلف مقدس ضد الامبراطور بقصد القضاء على نفوذه فى ايطاليا.

المجلس الإمبراطورى فى سبتمبر ١٥٢٦

وأما المشكلة الدينية التى لم تنته بعد، فقد قرر الامبراطور أن يعقد المجلس

الامبراطورى فى مدينة سبير Speier فى بافاريا فى شهر يونيه ١٥٢٦ لبحث المسألة الدينية وتنفيذ القرار الصادر بحق مارتن لوثر بطرده خارج القانون (ومعنى ذلك إهدار دمه) ومصادرة كتاباته وهو القرار الذى أصدره مجمع ورمز عام ١٥٢١ .

واجتمع مجلس سبير حيث أصدر قرارا فى غير مصلحة الكنيسة الكاثوليكية. نص على أن « لكل أمير الحق فى أن يسلك السبيل الذى يراه صالحا فى موضوع قرار ورمز وهو فى ذلك مسئول أمام الله والإمبراطور» . ومعنى ذلك أنه أصبح لكل أمير الحق فى اختيار المذهب الدينى الذى يروق له فى ولايته، وأصبح لاتباع مذهب لوثر مركز شرعى معترف به سرعان ما استغلوه، واستولى الأمراء الذين اختاروا المذهب اللوثرى فى مقاطعاتهم على أملاك الكنيسة فى بلادهم وطردوا رجال الدين الموالين للبابا والذين رفضوا قبول المذهب الجديد.

وقد ساعد الموقف السياسى فى ألمانيا على إصدار هذا القرار، فقد كان البابا كلمنت السابع على رأس حلف كونتن عام ١٥٢٦ الذى تكون لطرد قوات الإمبراطور من إيطاليا، أضف إلى ذلك أن الإمبراطور كان فى أشد الحاجة إلى المال يجمعه من رعاياه فى كل مكان ـ ويريد كسب الوقت بأى ثمن ليتفرغ للمعركة الدائرة مع الأتراك العثمانيين الذين كانت قواتهم تجتاح المجر. ثم تغير الموقف السياسى عندما هاجمت قوات الإمبراطور روما ونهبتها وأسرت البابا الذى لم ير بدا من مهادنة الإمبراطورية وقبول الصلح الذى تعهد فيه الامبراطور بقمع الحركة اللوثرية.

المجلس الإمبراطورى الثانى فى سبير ١٥٢٩،

رأى الامبراطور شارل الخامس أن يعاود النظر فيما آلت إليه أحوال البلاد بسبب انتشار اللوثرية والانقسام الخطير الذى يهدد الامبراطورية فدعا إلى عقد المجلس الإمبراطورى مرة ثانية فى مدينة سبير (مارس ١٥٢٩) . وقد ترجع هذا (الديت) الثانى عما أصدره من قرارات وأصدر هذه المرة قرارا ينص على نفاذ مفعول قرارات ورمس عام ١٥٢١ التى تقضى بإهدار دم لوثر وقمع ثورة اللوثريين وإلغاء الحرية التى منحت للأمراء فى

مجلس سبير الأول فى اختيار المذهب الذى يريدونه فى ولاياتهم، واتخذ المجلس قرارا آخر للإبقاء على الكنائس اللوثرية التى أقامها اللوثريون فى الولايات التى اختارت ذلك المذهب وسمح لها بممارسة عملها فى نطاق العقائد الجديدة، على أن يقام القداس وفق النظام الكاثوليكى.

أزعجت تلك القرارات الأمراء اللوثريين لأن اختيارهم للمذهب الجديد منحهم الفرصة للاستيلاء على أراضى الكنيسة الكاثوليكية فى بلادهم، ومعنى تنفيذ قرارات الديت الثانى أن يحرموا من الثروة التى هبطت عليهم ويعيدوا الأرض للكنيسة. لذلك أعلنوا أنهم لن يذعنوا لتلك القرارات ولا يتقيدون بها بل يحتجون عليها ومن هنا أطلق اللوثريون على أنفسهم اسم « المحتجون » Protestant ، وهو الاسم الذى لازم أصحاب هذا المذهب حتى اليوم.

كان ذلك الاحتجاج القومى تحديًا سافرا لسلطة الإمبراطورية، إلا أن الموقف كان يُملى عليه أن يتريث فى الأمر ويمنع اشتعال حرب دينية بين المسيحيين فى الوقت الذى أصبحت جيوش الأتراك تهدد أوروبا مما يدعو إلى توحيد كلمة المسيحيين أمام الخطر الداهم، وكان الأتراك العثمانيون إذ ذاك يحاصرون فينا، ولم يرفع الحصار عنها إلا بعد جهد كبير وتضحيات فادحة فى شهر أكتوبر ١٥٢٩ . من أجل ذلك حاول الإمبراطور أن يفض النزاع بالطرق السلمية ودعا لعقد المجلس الإمبراطورى فى مدينة أو جزبرج فى يونية ١٥٣٠ .

مجلس أوجزبرج ١٥٣٠:

تقرر عقد هذا المجلس الإمبراطورى الذى تميز بتوجه الدعوة إلى الأمراء البروتستانت للاجتماع مع أندادهم من الأمراء الكاثوليك فى محاولة لفض النزاع والوصول إلى تفاهم يرضى الفريقين. كان ذلك فى عام ١٥٣٠ . وهو العام الذى عقد فيه صلح كامبرى Cambari والذى أراحه مؤقتا من حروبه ضد ملك فرنسا. لذلك استطاع الحضور بنفسه إلى ألمانيا ورأس المجلس فى أوجزبرج، وكان موقف الإمبراطور فى هذا المجلس موقف الحيرة والتردد فقد تمسك كل فريق بآرائه وكان

موقف الأمراء ورجال الدين الكاثوليك متعنتا ومتعصبا، وأخذوا يهيبون بالإمبراطور أن يضرب بيد من حديد على أيدى البروتستنت، إلا أن الإمبراطور لم يكن فى وسعه أن يستجيب لهذا الرأى، ولا أن يتعرض لاستقلال الولايات الألمانية، إلا أنه كان متأثرا على أى حال بمن حوله من رجال الدين الكاثوليك وظهر فى موقف المعارض للبروتستنت.

وقد طلب إلى ممثلى البروتستنت أن يتقدموا للإمبراطور بآرائهم ومشاكلهم كتابة، فقام بهذه المهمة أحد زعماء البروتستنتينية، وهو فيلب ميلانكتون Melanchton ساعد مارتن لوثر الأيمن [1]، وقد وضع ميلانكتن مبادئ العقيدة اللوثرية فى صيغة معتدلة غاية الاعتدال، وقد سميت باعتراف أوجستانا Confessid Augustana أو الاعتراف العظيم . وقد بذل الإمبراطور وسعه لمحاولة التقريب بين الطرفين، ولكن ظهر أن الشقاق بينهما أعمق مما كان يتصور، فقد وضع كبار الزعماء الكاثوليك وثيقة مضادة فنّدوا فيها آراء البروتستنت، وأعلن الإمبراطور موافقته على ما جاء فيها.

وفى أواخر سبتمبر ١٥٣٠ انفض المجلس بعد أن أعطى الامبراطور مهلة قصيرة للبروتستنت ليفكروا فى الأمر ويقلعوا عن آرائهم حقنا للدماء، وكان قد يئس من استعطافهم أو إيقاع الشقاق بينهم ولم يبق أمامه إلا أن يسلك الشدة، ولذلك أصدر قرارا بتخطئة معظم عقائد اللوثرية ودعوة الناس إلى التنحى عن (المذهب المبتدع) وإلا عوقب أنصاره أشد العقاب.

حلف شمالكالد ديسمبر ١٥٣٠:

تبين للبروتستنت مدى الأخطار التى تحيق بهم فاتحدت آراؤهم وقرروا الاجتماع فى مدينة شمالكالد بولايه هس Hesse ، وكان حلف شمالكالد أخطر

(١) كان لوثر لا يزال تحت وطأة قرار الحرمان ، ولذلك لم يستطع حضور هذا المجلس ولكنه كان يراقب المناقشات من منفاه معتقداً أنه لا فائدة ترجى من المجالس الامبراطورية ولا يمكن الوصول عن طريقها إلى تفاهم، وأن المناقشات كلها (دخان وأكاذيب)، وقد أبدى تخوفه من أن ميلانكتن قد يغالى فى الاعتدال بغية الوصول إلى حل، فتضعف بذلك قضية المذهب الجديد.

حلف له أهميته في تاريخ القرن السادس عشر. وقد أعلن أعضاء الحلف بيانا على الملأ يوضحون فيه أنهم لن يرضخوا للقوة وسوف يدافعون عن مبادئهم ومصالحهم مهما اقتضى الأمر، وأنهم اتفقوا على الدفاع متضامنين عن حقوقهم ومبادئهم، «وإن تعرض فريق منهم للعدوان فى سبيل كلمة الله ومذهب الكتاب المقدس هب الجميع لنصرته بكل ما يملكون من قوة ومساعدته على الخلاص».

وقد ناقش اجتماع شمالكالد الوسائل العسكرية التى تضمن الدفاع عن مصالح الأعضاء وتقرر تكوين جيش نظامى مجهز بأحدث الأسلحة ويشترك فى قيادته أمير سكسونيا وهى الولاية التى اعتنقت مبادئ لوثر منذ ظهورها، وكذلك حكام هيس وبرنزويك ولنبرج Luneburg وأنالت Anhalt ومدن ستراسبورج وألم Ulm وكونستانس وبريمن وغيرها فى الشمال والجنوب.

والواقع أن هذا الحلف كان بمثابة نواة لنمو البروتستنتينية وانتشارها وتدعيمها، فقد أصبح لها تنظيمها السياسى والعسكرى، ولها كنيستها وعقيدتها وازداد عدد المنضمين إلى الحلف من المدن والولايات الألمانية، وقويت عزائم البروتستنت فاجتمعوا مرة أخرى فى شمالكالد (١٩ فبراير ١٥٣١) لتجديد ما تعاهدوا عليه، ورأوا الاستعانة بملكى فرنسا وإنجلترا الحاقدين على الإمبراطور، فالملك فرنسوا الأول كان لا ينسى هزيمته فى إيطاليا، ومع أنه كان عاجزا عن مد يد المساعدة الفعالة للأمراء الألمان البروتستنت، إلا أنه كان يشجعهم على الثبات فى وجه الإمبراطور وتحدى قراراته ضدهم، أما الملك هنرى الثامن ملك انجلترا فقد كان حانقا على الإمبراطور لأنه كان السبب فى الاتجاه إلى البابا ـ الذى كان أسيرا لديه ـ أن يؤخر الحكم بطلاق زوجته كاترين ويعارض هذا الطلاق، وفى الوقت نفسه كان من مصلحة هنرى أن تتاح له الفرصة لقطع صلة انجلترا بالكنيسة فى روما، إلا أنه لم يكن بوسعه إقحام نفسه فى الحرب ضد الإمبراطور، ولذلك اكتفى بتشجيع أمراء ألمانيا البروتستنت ولكنها كانت وعودا مبهمة مشفوعة بمبلغ يسير من المال.

المجلس الإمبراطورى فى نورنبرج ١٥٣٢:

على أن الإمبراطور كان يرى فى ذلك الحين أن وسائل الشدة والبطش فى جمع الحركة البروتستنتينية سوف يؤدى إلى تمزيق وحدة الصف الألمانى. ورأى أن مراعاته للبابا قد أضلته عن سبيل الصواب وأوقعته فيما لا يفيد السياسة الحكيمة لجمع كلمة الشعب، ولذلك لم يبذل أى مجهود لتنفيذ مراسيمه بالقوة ضد البروتستنت، وكان أى إجراء من هذا القبيل يهدد بقيام حروب أهلية خطيرة فى الوقت الذى كان الأتراك العثمانيون يدقون أبواب المجر.

لذلك قرر دعوة مجلس الديت فى مدينة نورنبرج Nurenberg عام ١٥٣٢ وكانت مناقشات هذا المجلس ثم قراراته أكثر ميلا إلى التفاهم وبعدا عن روح البطش والتعنت، فقد أصدر قرارات أطلق عليها «سلام نورنبرج» تدعو إلى وقف جميع المشاحنات والحروب الأهلية المدنية داخل الإمبراطورية فإن «عدو المسيحية المشترك يتوقف طرده على تحقيق السلام فى الإمبراطورية».

وقد كان صلح نورمبرج عاملا آخر نجم عنه انتشار البروتستنتينية إذ انضمت إلى المذهب الجديد مدن أخرى هى أوجزبرج وفرانكفورت وهمبرج وهانوفر، وقبل البروتستنت دعوة الإمبراطور لتوحيد الصف أمام العدو المشترك وأمده أمراؤهم بالعون العسكرى حتى تم انسحاب الأتراك نهائيا عام ١٥٣٢.

مجلس ترنت ١٥٤٥:

ومرت الأيام، والإمبراطور مشغول بالحرب مع الأتراك العثمانيين، وبالحروب الإيطالية، وبالخلاف الناشب فى ألمانيا بين البروتستانت والكاثوليك، ولكن خطر الحروب الإيطالية انتهى بعقد صلح كرسبى عام ١٥٤٤ وزال خطر الأتراك، وبذلك خفت متاعبه الخارجيه ولم يبق سوى العمل على حسم النزاع الدينى فى ألمانيا ومعالجة الموقف بالحزم الذى كان ينقصه فى الماضى. وعندما عاد إلى ألمانيا وجد أن معظم الإمارات الألمانيا قد أعلنت انضمامها إلى المذهب اللوثرى الواحدة بعد الأخرى. فقرر أن يقوم بآخر محاولة سلمية بأن دفع البابا الجديد «بول الثالث» إلى

دعوة مجلس دينى عام يجمع بين الكاثوليك والبروتستنت فى مدينة ترنت Trent فى منطقة التيرول عام ١٥٤٥ ، ودعا البروتستنت لإرسال مندوبين عنهم، إلا أنهم رفضوا المثول فى هذا المجلس، لأنهم يعلمون أن أغلبية أعضائة من الإيطاليين والأسبان غلاة الكاثوليكية. ورأوا ألا يقيدوا أنفسهم بقرارات مثل هذا المجلس، معتقدين أن الإمبراطور لم يقصد إلا مخادعتهم حتى يكسب الوقت لتدبير القضاء عليهم .

عندئذ قرر الامبراطور نهائيا أن يستخدم القوة، وفى هذه الظروف العصبية مات مارتن لوثر (١٧ فبراير ١٥٤٦) وخسر البروتستنت زعيمهم الروحى الكبير، واستطاع الإمبراطور أن يجذب إلى صفه موريس دوق سكسونيا نصير البروتستنت وبذلك خسرت القوات البروتستنتية قائدا عظيما مدربا، ودخلت الحرب ضد القوات الإمبراطورية التى كانت تضم جنودا من أسبانيا وإيطاليا يقودها دوق ألفا القائد الأسبانى الكبير .

وفى موقعة مهلبرج Muhlburg (أبريل ١٥٤٧) أوقعت القوات الامبراطورية بالبروتستنت هزيمة حاسمة ووقع معظم قواد الجيش البروتستنتى فى الأسر وأصبحت ألمانيا بأسرها فى قبضة الإمبراطور . ولكنه بدلا من التمادى فى تحطيم المذهب الجديد حاول مرة أخرى أن يوفق بين الكاثوليك والبروتستنت، مدفوعا فى هذا المسعى بعلاقاته السيئة بالبابا ، وكان البابا الثالث يبادله الكراهية وعدم الثقة، وعلى الرغم من أن انتصار الإمبراطور فى مهلبرج على البروتستنت كان فى مصلحة الكنيسة الكاثوليكية فى روما أن إلا أن البابا كان يخشى من نشوة الانتصار التى قد تدفع الإمبراطور إلى تدعيم نفوذه فى شبه الجزيرة الإيطاليا ومحاولة إخضاع الكنيسة لسيطرة الإمبراطورية ، ولذلك شرع البابا فى الاتصال بهنرى الثانى ملك فرنسا ليكون حليفا له ضد شارل الخامس. كذلك كان الإمبراطور يقدر مدى تمسك رعايا البروتستنت بمذهبهم، وحرص الأمراء البروتستنت على مكاسبهم واستقلالهم. لذلك قرر دعوة المجلس الإمبراطورى للانعقاد بمدينة أوجزبرج عام ١٥٤٨ .

مجلس أوجزبرج . والنظام المؤقت Interim :

وقد كلف الإمبراطور بعض علماء اللاهوت بدراسة أوجه الخلاف بين المذهبين تمهيدا لوضع نظام جديد يلتزم به الكاثوليك والبروتستنت. وقد تم التوصل إلى نظام أطلق عليه اسم النظام المؤقت The Interim - وكان النظام المقترح كاثوليكيا فى روحه ولكنه انطوى على شيء من التسامح مع البروتستنت يكفل رضاءهم كإباحة زواج القسس (رغم النص على عدم استحسانه) وطقوس العبادة البروتستنتية وغيرها، وقد عرض المشروع على المجلس فوافق عليه وأصدر نصوصه.

ولم ينجح شارل الخامس فى فرض النظام المؤقت، اذا لم يرق لأى من الطرفين، لأن البروتستنت لم يجدوا فيه الكفاية لتحقيق رغباتهم، أما الكاثوليك فقد رفضوا أن يروا ديانتهم تعبث بها السلطة الزمنية بالتدخل فى تفسير المسائل الدينية. وعاد الصراع يحتدم من جديد بين الولايات الكاثوليكية والولايات البروتستنتينية التى تلقت المساعدات من فرنسا وحاول الإمبراطور أن يفرض نظامه بالقوة واستخدام فى ذلك القوات الأسبانية ضد البروتستنت. وكان من أثر ذلك أن خرج عليه موريس ناخب سكسونيا الذى انضم إليه من قبل وعاد إلى صفوف البروتستنت الذين اكتسبوا بعودته قوة جديدة.

وسارت الأحداث فى غير مصلحة الإمبراطور فقد استطاع موريس بمساعدة بعض القوات الفرنسية واشتراك قوات بقية الأمراء الألمان أن يهزموا الإمبراطور الذى، لم يجد بدًا من مغادرة ألمانيا ورأى أخيرا أن ينزوى فى أحد الأديرة بأسبانيا ويعهد إلى أخيه فرديناند أن يعالج المشكلة ويعمل على وضع تسوية نهائية. وفى فبراير ١٥٥٥ دعا المجلس الإمبراطورية للاجتماع فى أوجزبرج تحت رياسة فرديناند لتقرير الصلح مع البروتستنت

صلح أوجزبرج ١٥٥٥:

وقد توصل هذا المجلس إلى صلح دينى كان أهم ما جاء فيه المبدأين التاليين أولا: تقرير المبدأ الذى نص عليه مجلس سبير الأول (١٥٢٦) من إعطاء الحرية لكل أمير أن يختار المذهب الذى يروق له فى إمارته، وعلى الرعايا الذين يريدون البقاء حيث هم أن يدينوا بالمذهب المختار، وإلا فلهم الحق فى مغادرة الولاية التى يعيشون فيها إلى الولاية التي تدين بالمذهب الذى اختاروه لأنفسهم ولكل شخص منهم الحق فى أن يأخذ معه أمواله دون التعرض له بأى أذى.

ثانيا: تبقى أملاك الكنيسة الكاثوليكية التى أخذها البروتستنت قبل عام ١٥٥٢ فى أيدى من استولى عليها من رجال الدين أو غيرهم، وأما الأملاك التى فقدتها بعد عام ١٥٥٢ فيجب ردها إلى الكنيسة الكاثوليكية فى روما.

والواقع أن صلح أوجزبرج كان من الناحية الدينية انتصارا كبيرا للبروتستنتية ولكنه أدى إلى تجزئة ألمانيا من الوجهة السياسية والدستور وبعثرتها إلى دويلات كثيرة منفصلة بعضها عن بعض. وبوجه عام سادت اللوثرية وفى دوقية فورتمبرج فى الجنوب، بينما سادت الكاثوليكية في الجنوب باستثناء بعض مدن قليلة — وفى حوض الراين وفى ممتلكات الإمبراطورية التى امتدت سنة ١٥٥٥ إلى شمال الأراضى المنخفضة (هولنده).

ولم تقتصر حركة الإصلاح الدينى على ألمانيا، بل تسربت منها إلى البلاد الاسكندنافية، فى الدنمرك حيث تأسست بها أول كنيسة قومية عام ١٥٦٠ وترجم الإنجيل إلى اللغة الدنمركية فى النرويج التى كانت فى ذلك الحين تابعة للدنمرك، وفى السويد دخلت البروتستنتية فى عهد جوستاف فاسا ملك السويد (١٥٢٣ ـ ١٥٦٠) وتأسست هناك الكنيسة السويدية بعيدا عن كاثوليكية روما. كذلك تسرب المذهب البروتستنتى إلى المقاطعات السويسرية، ثم قامت حركة الإصلاح الدينى فى كل من انجلترا وفرنسا لأسباب سياسية واجتماعية ودينية كما سيرد فى حينه.

أما ألمانيا فقد استراحت فترة من الزمن من الحرب الأهلية رغم أن كلا من الفريقين، الكاثوليكية والبروتستنتى، لم يعتبر صلح أوجزبرج نهاية المطاف أو الحل النهائى للمشكلة، ولكنه على أى حال وضع حدا للنزاع المسلح ثلاثا وستين سنة، وعادت بعدها الحروب الدينية فى صورة دولية اشتركت فيها كل من ألمانيا والدنمرك وفرنسا والسويد، وهى الحرب المشهورة فى التاريخ باسم (حرب الثلاثين عاما ١٦١٨ ـ ١٦٤٨).

زونجلى وكلفن:

كانت حركة الإصلاح الدينى من واقعها من وحى اليقظة التى سرت فى ضمير الأفراد فى عصر النهضة، ولكنها اختلفت فى مظاهرها ودوافعها ومراميها تبعا للبلاد التى ظهرت فيها، وشخصيات الرجال الذين قادوها وتزعموها، ومن هؤلاء الرجال المصلحين أوليرخ زوغلى Ulricn Zuringli ١٤٨٤ ـ ١٥٣١ جون كلفن John Calvin (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤)، وكان للأخير أثره الفعال فى توجيه حركة الإصلاح.

وقد اتخذ كلا الزعيمين سويسرا مركزا للدعوة الإصلاحية التى نادى كل منهما بها ولا عجب من اختيار سويسرا بالذات مصدر الإشعاع الإصلاحى الجديد الذى يرتكز قبل كل شيء على حرية الفكر، ولكى نفهم السبب فى ذلك لابد لنا من دراسة التطور التاريخى للاتحاد السويسرى.

الاتحاد السويسرى:

لم تكن سويسرا وحدة منفصلة عن الإمبراطورية الرومانية المقدسة بل كانت مع باقى الأراضى الألمانية جزءا من تلك الإمبراطورية ولكن سيادة الإمبراطور عليها كانت إسمية وقد ولى الحكم فى الإمبراطورية خلال القرن الثالث عشر حكام غير أكفاء نتج عن سوء حكمهم انتشار الفوضى والاضطراب، وكان من بين هؤلاء الحكام أمراء من أسرة هبسبرج استغلوا تلك الفوضى فى بسط نفوذهم والتوسع على حساب جيرانهم، وكان موطن هؤلاء فى الولاية الكبرى سوابيا Suvalia وهى الولاية

التى كانت تضم داخلها سويسرة الحالية. وظل ذلك الحكم الغاشم قائما حتى قبيل نهاية القرن الثالث عشر عندما اتفقت ثلاث مقاطعات تقع على شواطىء بحيرة لوسرن على إقامة اتحاد فيما بينها بقصد الدفاع عن مصالحها ضد الطغاة من آل هبسبرج، وكان هذا الاتحاد الصغير بذرة تنمو حولها سويسرة الحالية.

وكان على هذا الاتحاد أن يكافح ويناضل ضد آل هبسبرج من أجل البقاء والنمو، ولم تأل الإمبراطورية جهداً فى سبيل استعادة السيطرة على تلك البقاع، وقد استمر الصراع مدى قرنين من الزمان. وترتب على هذا الصراع نتيجتان: أولهما ازدياد التماسك والترابط بين ولايات ذلك الاتحاد، وثانيهما أن جهاد الشعب فى سبيل الحرية، والبطولات التى ظهرت أثناء الصراع المستميت، أثارت مشاعر الشعب السويسرى فى الجهات المجاورة وجعلتهم ينضمون بالتدريج إلى حركة الجهاد.

وقد خاض المجاهدون معركة مورجارتن Morganten فى عام ١٣١٥، وانتصرت قواتهم على ليوبولد (من الهبسبرج) وقواته الإمبراطورية، وبذلك أمنوا استقلالهم، وكان هذا النصر الوطنى حافزاً لبقية المقاطعات السويسرية على إعلان الانضمام إلى الاتحاد، فانضمت لوسرن وزيوريخ وبرن وغيرها، وتعزز ذلك الاتحاد باشتراك الجميع فى موقعة سمباخ Sempack عام ١٣٨٦ ضد القوات الإمبراطورية وحققوا انتصارا رائعا. وفى النصف الأول من القرن الخامس عشر انضمت أقاليم أخرى واتسع الاتحاد حتى شمل سويسرا الحالية.

وفى عام ١٤٩٩، تعرض استقلال الإتحاد السويسرى أمام حكم الإمبراطور مكسمليان الأول لخطر جديد، وذلك عندما حاول القيام بإصلاح الدستور، فأسس مجلس الديت الذى كانت مهمته صيانة الأمن والنظام وجمع الضرائب، ولما كان استقلال الاتحاد السويسرى لا تعترف به الإمبراطورية، فقد كان المفروض أن يطبق النظام الدستورى الجديد على سويسرا كما يطبق على ألمانيا، ألا أن السويسريين الذين يعتزون باستقلالهم الذى انتزعوه بعد كفاح مرير وتضحيات كبيرة، عارضوا أية

محاولة للمساس بحرياتهم أو انتقاص استقلالهم، وأخيراً نشبت الحرب بين الإمبراطور مكسمليان والاتحاد السويسرى، واستطاع أن يهزم قوات الإمبراطور هزائم منكرة فى وقائع كثيرة حتى اضطر مكسمليان إلى توقيع صلح (بالBale) وبمقتضى هذا الصلح تم للإتحاد السويسرى التخلص من التبعية الفعلية للإمبراطورية ولم يعد الشعب السويسرى خاضعاً للتشريع الإمبراطورى، ألا أنها ظلت تبعية إسمية إلى أن زالت عنها نهائيا بمقتضى معاهدة وستفاليا عام ١٦٤٨ وأصبحت دولة تتمتع بالاستقلال التام.

وفى نطاق الاتحاد السويسرى ظهرت دعوة كل من زونجلى وكلفن ضد الكنيسة الكاثوليكية فى روما.

زونجلى:

كان أولريخ زونجلى Ulirich Zuingli (١٤٨٤-١٥٣١) من رجال الدين السويسريين، بدأ دعوته فى مدينة زيوريخ بعد أن اكتملت ثقافته الدينية عن طريق قراءاته فى الدراسات الإغريقية والرومانية القديمة ودراسة أفكار المصلحين المعاصرين أمثال أرزمس، وقد بدأ يسمع الناس أفكاره عندما كان واعظاً فى كنيسة زيوريخ الكبرى، فتأثر به جمهور كبير من السويسريين، وانقسمت مقاطعات الاتحاد السويسرى- نتيجة لبث أفكاره وقيادة حركة الإصلاح الدينى- إلى بروتستنت وكاثوليك، فقد قاد الحركة البروتستنتية التى كان لها طابع خاص يختلف عن الحركة اللوثرية، فى ألمانيا، فهى فى الوقت الذى كانت تعارض فيه مساوىء الكنيسة فى روما، كان لها مهمة أخرى وهى العناية بالإصلاح السياسى والاجتماعى والتنديد بما يقترفه الحكام من مظالم تجاه الطبقات الفقيرة من الشعب والقضاء على ظاهرة نظام الجنود المرتزقة السويسريين الذين كانوا يتخذون الارتزاق من الحرب فى صفوف الجيوش الأجنبية فى فرنسا أو ألمانيا أو إيطاليا مهنة لهم.

وقد عارض زونجلى بيع صكوك الغفران عندما وفد على زيورخ أحد الرهبان المكلفين من قبل البابا لبيع تلك الصكوك فى سويسرة عام ١٥١٩، فقد كان يبدو

فى أول الأمر منضماً إلى حركة مارتن لوثر، ولكن سرعان ما تبين الخلاف بين آرائهما فى بعض المسائل الدينية، فاختلف مع لوثر فى مسألة القربان، والنظرة إلى الكنيسة إذ اعتبرها زونجلى مؤسسة ديمقراطية تتألف من جميع المسيحيين الذين يشتركون بواسطة هيئة معينة ينتخبونها منهم للفصل فى المسائل المتعلقة بالشئون الكنسية والتعيين فى الوظائف الدينية، بينما اعتبر لوثر أمير الولاية أو حاكم البلاد رئيسا أعلى للكنيسة والمهيمن على شئونها.

ومنذ عام ١٥٢٨، تجلى الانقسام بين أتباعه البروتستنت، والكاثوليك، وكانت الحرب مرتين بين الفريقين، واشترك فيها زونجلى بنفسه، وانهزم الجيش البروتستنتى عام ١٥٣١، ولقى زونجلى حتفه فى موقعة كابل Cappel وأحرق الكاثوليك جثته. وأخيراً تم عقد الصلح بين الفريقين عام ١٥٣٢ حيث تقرر أن يكون لكل مقاطعة ومدينة الحق فى الاحتفاظ بعقيدتها وتقرير مسائلها الدينية، واتباع المذهب الدينى الذى تختاره حسب إرادتها.

جون كلفن.

ولد جون كلفن John Calvin فى عام ١٥٠٩ فى بلدة نويون Nayon بالقرب من باريس. والتحق بجامعة باريس ليدرس علم اللاهوت، وعندما كان فى الرابعة والعشرين من عمره تفتحت بصيرته على معان جديدة فى الدين المسيحى، فدرس آراء المصلحين الذين كان مارتن لوثر على رأسهم، وهيأه استعداده لقيادة حركة إصلاح جديدة، واعتزل وظيفته الدينية (مايو ١٥٣٤) وغادر فرنسا بسبب اضطهاد الملك فرنسوا الأول للبروتستنت، وأخذ يتنقل بين عدة مدن إلى أن استقر به المقام فى سويسرا عام ١٥٣٦، وهناك أصدر كتابه المشهور بعنوان «تنظيمات الدين المسيحى» Institutes of Christian، وهو خلاصة التعاليم البروتستنتية.

وقد اتفقت عقيدة كلفن مع اللوثرية من حيث الإعتماد على الكتاب المقدس وحده فى جميع المسائل الدينية،وأن المسيح هو وحده الذى يشفع للعباد عند

الله، وأن التبرير يكون بالإيمان وليس بالأعمال، ألا أن الكلفنية اختلفت عن اللوثرية في مسألة الغفران، إذ كان كلفن يرى أن الغفران من الأمور القدرية التي لا تربط بالأعمال، فالخلاص منحة خاصة يقدمها الله لمن يشاء بصرف النظر عن عيوبهم أو نقائصهم أو فضائلهم، فالقصاص أو غفران الذنوب من المسائل المقدرة، فقد آمن كلفن بفكرة القضاء والقدر، أكثر مما اعتقد بها لوثر، ويسمى هذا المبدأ القدرية Predestination.

كذلك اختلفت الكلفنية عن اللوثرية في موقف كل منهما من المجتمع والدولة، فالكلفيون رفضوا الاعتراف بخضوع الكنيسة للدولة أو بحق أية حكومة أو ملك أو هيئة مدنية في سن تشريعات خاصة بالدين، بل على العكس من ذلك، فقد كان الكلفنيون يتطلعون إلى مجتمع على شاكلة المجتمع الديني يتصف أهله بحسن الخلق وصفات القديسين وتكون واجبات الملوك فيه خدمة الدين والعمل طبقا لما أنزله الله في الكتاب المقدس. أي (تنصير المجتمع بأكمله). وقد أقام كلفن في مدينة جنيف بسويسرا نموذجاً لمجتمعه المسيحي حيث تأسست هيئة من رجال الدين لحكم الكنيسة، ومجتمعا كنسيا من القسس وكبار المواطنين الصالحين لحكم المدينة، وقد كان الحكم صارما يحاسب المسيء ويقضي على المستهترين بمبادىء الدين، وكانت طقوس العبادة تهتم كل الاهتمام بالوعظ والإرشاد وشرح العقيدة، وأزيلت الصور التي تمثل القديسين والعذراء والمسيح، واستعملت الشموع بدلا من البخور، واستبدل الغناء بالتراتيل ومنع استعمال الموسيقى في الكنائس، وبالجملة كان كلفن يحاول أن يوجه كنيسته وفق تعاليم الإنجيل.

وقد اضطر إلى مغادرة جنيف لظهور معارضة لصرامة الحكم وقسوة الكنيسة في معاملة الخارجين عن تعاليمها والحجر على الحرية الشخصية للرعايا، ووجد كلفن أن حياته معرضة للخطر أمام المعارضة الشديدة التي تطالب ببطلان النظام الجديد في حكم المدينة وإعادة المنفيين إلى بلدهم ولم يجد بدا من الخروج من جنيف (أبريل ١٥٣٨).

وطاف كلفن أثناء نفيه بعدة بلاد فزار مدينة بال بسويسرا، ودُعِى إلى مدينة ستراسبورج لإنشاء كنيسة فرنسية لها على النمط الذى يهواه، وهناك شرع فى التبشير بمبادئه بإلقاء المحاضرات التى كان يؤمها عدد وفير من المؤمنين بالكلفنية، ولم يلبث المواطنون فى جنيف أن طالبوه بالعودة إليها بعد أن تدهورت الأحوال فيها بعد خروجه. وعاد كلفن إلى جنيف عام ١٥٤١ لإتمام نشر رسالته وتوجيه الحياة فيها طبقا لمذهبه إلى أن مات عام ١٣٦٤.

وقد انتشرت الكلفنية بين عدد كبير من سكان المجر وبوهيميا باعتبار البروتستنتية والكلفنية وسيلة لمناهضة حكم آل هبسبرج وكذلك انتشرت فى بولنده، وفى فرنسا حيث أصبح الهيجونوت وهم بروتستنت فرنسا من أنصار مذهب كلفن، وفى الأراضى الواطئة (بلجيكا وهولنده)، ووصلت الكلفنية إلى اسكتلندا وإنجلترا.

الفصـــل السادس

انتعاش الكنيسة الكاثوليكية
حركة الإصلاح المضادة

انتشرت البروتستنتيه انتشاراً واسعاً فى أوروبا على أيدى لوثر وزونجلى وكلفن وتحطمت الوحدة الروحية للمسيحية التى أضعفتها ونالت منها الثورة الدينية البروتستنتية. وعلى الرغم من انقسام البروتستنتية على نفسها واختلاف روادها بعضهم عن بعض فى تفسير العقيدة الجديدة فى بعض نواحيها إلا أنهم يشتركون جميعاً فى معارضة السلطة البابوية ورفض دكتاتوريتها وعدم الاعتراف بالصفة القدسية لطبقة الإكليروس أو أنهم فوق المستوى الطبيعى لجماهير الشعب، ولذلك نادوا بحرية القسيس فى الزواج، ولم يعد هناك رهبان أو راهبات من البروتستانت، وأصبحت لغة الكنيسة البروتستنتية هى اللغة القومية بدلا من اللاتينية، ونادوا جميعاً بالتبرير عن طريق الإيمان، إلى غير ذلك من المبادىء الدينية التى آمن بها جميع البروتستنت، فهم ينكرون استحالة المادة (القربان) إلى لحم المسيح ودمه، ويعارضون فى طريقة (الاعتراف) الذى يدعو إليه رجال الدين بقصد تحقيق الغفران عن ذنوب المعترف وخطاياه على يدهم، ويعلنون أن المصدر الوحيد الحقيقى للدين المسيحى هو الكتاب المقدس.

ولا شك أن الناحية الإقتصادية كانت أحد العوامل التى ساعدت البروتستنتية على الظهور والانتشار فى عديد من الدول الأوروبية كانجلترا وهولنده، حيث كانت الرغبة الجامحة فى مصادرة أراضى الكنيسة تتبين فيها الرغبة المادية الملحة. كذلك كان لعوامل السياسية أثرها، ولكن يظل العامل الدينى هو المسيطر الحقيقى على نجاح الحركة.

وقد تنبه زعماء الكاثوليكية بعد وضوح الصورة إلى المخازى والمعايب فى الكنيسة الكاثوليكية، وهى المخازى التى كانت السبب فى ظهور البروتستنتية، لذلك رأى بعض المفكرين المصلحين فى إيطاليا أن يحاولوا التوفيق بين المذهبين الكاثوليكى والبروتستنتى لصيانة الوحدة المسيحية، ولكن محاولاتهم لم تُجْدِ نفعا وأخفقت

حركتهم لعدة أسباب، منها أن دعاتها فى إيطاليا لم يجاوزوا علية القوم، فلم تكن الحركة نابعة من ضمائر الشعب، ولأن البابا لم يستجب لهم بالنزول عن شيء من حقوقه أو حقوق كنيسة روما لاعتقاده بأن تهاونه فى حقوقه يترتب عليه تقوية الإمبراطور- وهو ألد أعدائه، وقد كان البابا إذا ذاك مرتاحاً إلى ما يعانيه الإمبراطور فى بلاده من جراء الثورة البروتستنتية ومن اتساع هوة الخلاف بينه وبين أمراء البروتستانت.

ثم إن بابوات النصف الأول من القرن السادس عشر، كانوا منغمسين فى الأعمال السياسية والمشكلات الإيطالية، موجهين عنايتهم للأمور الدنيوية والاشتراك فى رعاية النهضة وتقدم الفنون، مفضلين وظيفتهم الروحية التى هى أساس مركزهم الدينى، لذلك لم يهتموا اهتماماً جديا فى أول الأمر بحركة الإصلاح الدينى وظهور البروتستنتية، حتى إن البابا كلمنت السابع قد ساعد اللوثريين بسبب خلافه مع الإمبراطور شارل الخامس وكراهيته له، ألا أن ذلك التحالف لم يكن مقدراً له أن يدوم طويلاً بسبب سرعة انتشار البروتستنتية، فقد انضمت إليها ثلاثة أرباع ألمانيا، وتأثرت بها فرنسا والأراضى المنخفضة أعمق تأثير، وسعت انجلترا إلى قطع كل صلاتها بروما، واعتنقت اللوثرية شعوب الدنمرك والسويد والنرويج، وجماهير غفيرة فى بولنده وبوهيميا بل وفى إيطاليا نفسها.

من أجل ذلك كله، أصبح الخطر ماثلا يهدد الكنيسة فى روما مما يستدعى القيام بإجراءات مضادة لدرء هذا الخطر أو تخفيفه، ولذلك نجد أن بابوات النصف الثانى من القرن السادس عشر يختلفون كثيراً عن أسلافهم من حيث تفهمهم لمدى الخطر الذى يحيق بالكنيسة من جراء تغافل الأسباب التى دعت إلى السخط على الكنيسة، وظهر تدريجيا فى بلاط البابا حزب الكرادلة الإصلاحية الذين نادوا بأن الوقت قد حان لإجراء إصلاح ضرورى وعاجل تقوم به الكنيسة نفسها.

وما وافت نهاية القرن السادس عشر حتى بدأ المد البروتستنتى يتراجع بعض

الشيء حيث أخذت الكنيسة تعمل على إصلاح ما فسد فيها، وفي الوقت نفسه تحمست الكنيسة الكاثوليكية في روما، تلك هي الحركة التي عرفت في التاريخ باسم الاصلاح المضاد. Counter Reformation

وقد أجمع كبار رجال الدين في الكنيسة على الاعتراف بوجوب القيام بالإصلاح من الداخل للحفاظ على مكانة الكنيسة الكاثوليكية ولقطع الطريق على الاتهامات التي يوجهها إليها البروتستنت، وإزالة الأسباب التي نفّرت منها أولئك الذين اعتنقوا البروتستنتية.

وقد ساعد على قيام حركة الإصلاح المضاد ثلاثة عوامل: أولها ما ذكرناه من أن عددا من البابوات الذين تولوا ذلك المنصب في النصف الثاني من القرن السادس عشر كان من رأيهم أن تقوم الكنيسة بثورة مضادة. وثانيهما قيام الحركة اليسوعيين (الجزويت). وأخيراً انتشار السخط على محاكم التفتيش التي كان فيليب الثاني من أكبر دعاتها، ولعل ظهور جماعة اليسوعيين كان العامل الفعال في انتعاش الكاثوليكية وعودة الحياة الروحية إليها.

جمعية اليسوعيين (الجزويت)،

ظهرت جماعات كاثوليكية مختلفة ساعد نشاطها على انتعاش المذهب الكاثوليكي كجماعات الفرانشسكان والدومينكان والبزكتين وغيرها من الطوائف والأحزاب الدينية الجديدة، ولكن كان أهم هذه الجماعات أثرا في المحافظة على كيان الكنيسة هم اليسوعيون أو جماعة الجزويت التي أسسها زعيمها اجناتيوس لويولا Ignatius Loyola (١٤٩١ - ١٥٥٦) أحد الفرسان الأسبان، وينتمي إلى أسرة عريقة في أسبانيا الذى كان في شبابه جنديا مناضلا، ملكت قلبه الهداية وغلبت عليه الروح الدينية الإصلاحية، درس في تعمق وخبرة حياة المسيح، ووهب نفسه لخدمة الكنيسة الكاثوليكية والبابوية، وقد التحق في حداثته بخدمة فرديناند حاكم الأراجون بأسبانيا. وجرح في عام ١٥٢١ جرحاً أدى به إلى الكساح. وقد صرف

فترة مرضه فى مطالعة الكتب للشفاء، حج إلى بيت المقدس، ووهب حياته لخدمة المسيح، وبدأ فى تأسيس الجمعية المعروفة باليسوعيين، واشترط أن تكون عضوية هذه المنظمة الكهنوتية التى باركها البابا بول الثالث مقصورة على أولئك الذين برهنوا على متانة خلقهم واتساع أفقهم، وفى عام ١٥٣٤ ذهب إلى باريس، وهناك جمع حوله نفر من أعوانه المؤمنين بدعوته وتعاهد معهم على التخلى عن مظاهر الدنيا واحتمال الآلام والتدرب تدريبا قاسيا وفق التعاليم والمبادىء التى وضعها لويولا فى كتابه «التدريبات الروحية».

وقد كان عدد أعضاء الجمعية عند بدء تكوينها سبعة رجال فقط، تمسكوا بالمبادىء التى اشترطها فيها أعضاء جمعيته من طهر وعفه وتقشف، وتعهد الأعضاء بالرحيل إلى بيت المقدس بعد الفراغ من دراستهم ليكرسوا حياتهم لخدمة الدين والدعوة إلى انتزاع بيت المقدس من أيدى الأتراك المسلمين، ولما تعذر على هؤلاء الأعضاء الذهاب إلى بيت المقدس بسبب الحرب الدائرة مع الأتراك عرض «اجناتيوس لويولا» خدمة جماعية على البابا بول الثالث، وذهب مصطحباً إخوانه إلى روما، وكانت سياسة البابا قد بدأت تتجه نحو الإصلاح لمجابهة التحدى البروتستنتى ولذلك رحب بمبادىء هذه الجمعية.

وكانت أنظمة الجزويت صارمة شبيهة بالأنظمة العسكرية، فكان على كل فرد ينضم إليها الخضوع لأوامر رئيسه، وأن يطيع تلك الأوامر طاعة عمياء وكأنه لا يملك فى نفسه شيئا وأن يرى فى رئيسه المباشر العصمة الكاملة التى تتصف بها الكنيسة المقدسة، وأن يحلف يمين الطاعة لأوامر البابا دون تردد، وقد كان لظهور هذه الجمعية فى الوقت الذى تداعت فيه سلطة البابا فى أوروبا أكبر الأثر فى إحياء سلطان الكنيسة وإعادة النفوذ الروحى إلى البابا. كذلك نجح الجزويت فى الوقوف إلى حد كبير فى وجه تيار البروتستنتية المتدفق، وخصوصا فى فرنسا وبولنده وممتلكات أسرة هبسبرج. وأوقفوا المد البروتستنتى فى إيطاليا وأسبانيا اللتين ظلتا على ولائهما

للكنيسة الكاثوليكية. ثم كان لهم الفضل فى تدعيم موقف أولئك الذين تمسكوا بعقيدتهم الكاثوليكية فى ألمانيا وانجلترا واسكتلنده.

وقد لعبت جماعات الجزويت دوراً هاماً فى الحياة العامة المسيحية وتدخلوا فى السياسة خدمة للكنيسة وقد لاقوا نجاحاً فى هذا السبيل فكان بعضهم مستشارين ووزراء ذوى نفوذ، على أن أكبر مجال نجحوا فيه هو اهتمامهم بالتربية والتعليم، وأشرفوا على إدارة مئات المدارس فى أوروبا، وأمكنهم بما وضعوه لها من حسن النظام وكمال الرعاية أن يجتذبوا إليها الآباء الذين كانوا يتسابقون على إلحاق أبنائهم بها، وعندما توفى اجناتيوس لويولا ترك بعده مائة مدرسة وعدداً من المعاهد الدينية، ثم لم يمض قرن ونصف على تأسيس هذه الجمعية حتى أصبح لها ما يزيد على سبعمائة مدرسة، وبلغ من شدة تأثير الجزويت أنهم سيطروا على عقول رجال الأجيال التى تلت ظهور جمعيتهم، ولم يكن أمرهم مقصوراً على النهوض بالمذهب الكاثوليكى ونشره وسيادته فى أوروبا، بل كان لإقدامهم ومثابرتهم وحماستهم اليد الطولى فى نشر الكاثوليكية فى مجاهل الأمريكتين والشرق الأقصى والجزر النائية.

وقد تميز الجزويت عن غيرهم من الكاثوليك بأنهم يقدسون الكنيسة نفسها باعتبارها مؤسسة إلهية فى حين كان الكاثوليك أنفسهم قد بدأوا فى ضوء حركات الإصلاح والفكر ينظرون إلى الكنيسة من زاوية الإطار القومى.

محكمة التفتيش:

وقد ساعدت هذه الحركة التى قوت ظهر البابا بول الثالث وجعلته يعمل على تأسيس محكمة للتفتيش فى روما وتشكيلها على النمط الأسبانى عام ١٥٤٢[١]. ليتسنى له إخماد أنفاس البروتستنتية فى إيطاليا عن طريق محاكمة كل من زاغ عن

---

(١) قد عرفت هذه المحكمة باسم الديوان المقدس Holy Office وكانت محكمة التفتيش فى روما أخف وطأة من محكمة التفتيش الأسبانية فى اتباع وسائل التعذيب وإحراق الأحياء، ولم تزاول هذه المحكمة عملها خارج إيطاليا.

الكاثوليكية، فعين ستة من كبار رجال الدين (الكرادلة) منحهم سلطة التحقيق فى كل الأمور التى تتعلق بالدين، ولهم الحق فى الحكم بالإعدام، ومصادرة الأملاك، ومحاكمة زعماء البروتستنت ومفكريهم ومصادرة مؤلفاتهم، يؤيدهم فى ذلك البابا بول، وقد اتسعت سلطات محاكم التفتيش فى عهد البابوات الذين خلفوه وأصبح من اختصاصها النظر فيما يستأنف لديها من القضايا الدينية، ومكافحة المارقين فيها على سلطان الكنيسة. وقد نجحت محكمة التفتيش فى القضاء على البروتستنتية فى إيطاليا، وأذكت روح التعصب الشديد عند أتباع الكنيسة. والوقع أن تأسيس هذه المحكمة عام ١٥٤٢ يمثل عهد الإصلاح الكاثوليكى ولكن فى أسوأ وأضيق معانيه، فهى تستخدم القوة والعنف لإرجاع الكنيسة إلى مكانتها ومهابتها. ولم يقتصر عملها على قمع الحركة البروتستنتية فى إيطاليا بل تعدى ذلك إلى اضطهاد الكاثوليك الذين يدعون إلى الإصلاح الكاثوليكى على أساس التسامح والتفاهم.

مجمع ترنت:

على أن حزب الإصلاح الكاثوليكى الذى يضم الكرادلة الإصلاحيين والذين كانوا ينادون بالحاجة الملحة إلى الإصلاح. عادوا إلى الإلحاح على البابا لتشكيل مجلس كنسى عام للنظر فى الأمور الدينية. وماطل البابا فى أول الأمر إلا أنه اضطر فى عام ١٩٤٥ أن يوافق على عقد هذا المجلس حينما طلب ذلك فى تشدد وإلحاح الإمبراطور شارل الخامس الذى كان يريد الوصول إلى حل يقضى على الانقسامات الدينية فى ألمانيا، وأذعن البابا بول الثالث أمام تدخل الامبراطور وقوة نفوذه، حيث دعا إلى إصدار قرار بدعوة المجلس المنشود إلى الإنعقاد فى بلدة فرنت Frent الواقعة على حدود جبال الألب بين ألمانيا وإيطاليا. وظل هذا المجلس يجتمع فترات متقطعة وغير منتظمة -والى عشرين سنة، فى عهد عدة بابوات خلفوا بول الثالث.

وقد تميز مجلس فرنت بالسعي نحو تحقيق هدفين، أولهما تدعيم المذهب الكاثوليكي وإقرار مبادئه، وثانيهما إصلاح مفاسد الكنيسة وإزالة شكوى الرعايا الكاثوليك. وقد توصل المجلس في الجلسات الأخيرة التي تمت في عام ١٥٦٣ إلى عدة قرارات، تنقسم إلى قسمين.

(أ) قسم يتعلق بنظام الكنيسة، وقد تقرر بشأن ذلك عدة مبادىء أهمها ضرورة إستعمال اللغة اللاتينية في الصلاة لأنها لغة العبادة الدينية، وتحريم زواج القسس (الأكليروس) والتمسك بنظام الأديرة والتنسك فيها، وتثبت نظرية منح الغفران على أن تطبق تطبيقاً صحيحا، وأن سلطة البابا مستمدة رأسا من المسيح.

(ب) أما القسم الثاني من القرارات فيتعلق بالعقيدة الكاثوليكية نفسها، فقرر أن عقيدة لوثر القائلة بالتبرير بالإيمان فقط بدون وسيلة أحد من البشر ضرب من ضروب الزيغ والكفر. ورفض ما دعا إليه لوثر وكلفن بالاعتماد على الكتاب المقدس وحده في تفسير العقيدة بل إن عقائد الكنيسة تستند إلى الكتاب المقدس في ترجمته اللاتينية المعترف بها ثم إلى توجيه التقاليد القديمة المصطلح عليها، وحتمت القرارات على القساوسة والرهبان أن يكونوا مثال الطهارة والعفة والأخلاق الكريمة في كل أقوالهم وأفعالهم، وأن يحافظ رجال الدين على الإقامة في مقر أعمالهم، وأن يحرصوا على القيام بواجباتهم خير قيام، وأمر المجلس بأن توضع خطة لتثقيف الأكليروس وتعليمهم، وتأسيس مدارس لاهوتيه في كل أبرشية لتعليم القساوسة .

وهكذا خطت قرارات فرنت خطوات واسعة نحو الانتعاش الكاثوليكي، فقد أزالت معظم المساوىء التي ضج منها اتباع الكنيسة أجيالا طويلة وحرر العقيدة ذاتها من الشوائب، وأعطت الكاثوليك تعريفا صحيحا للعقيدة، فلم يعدهناك جدال حول تفسير ما غمض عليهم من قبل، ولكن المجمع تجنب كل اقتراح من شأنه ملاقاة العقيدة الجديدة في منتصف الطريق أو الحد من اختصاصات البابا.

وأخيراً قرر مجلس فرنت تفويض البابا إعداد فهرس كامل Index بأسماء الكتب التى تحرم الكنيسة قراءتها لجميع ما كتبه لوثر وكلفن وزونجلى وغيرهم من الكتّاب الذين تعتبرهم الكنيسة زائغين عن الدين منذ عهد النهضة.

الفصل السابع

فرنسا وحركة الإصلاح الدينى

كانت أسرة فالو تحكم فرنسا عند بداية العصور الحديثة وقد تربع على عرش البلاد فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر أقدر ملوك هذه الأسرة ، لويس الحادى عشر (١٤٦١-١٤٨٣)، الذى يرجع إليه الفضل فى تدعيم التاج والقضاء على نفوذ الأشراف وتثبيت الحدود الفرنسية عن طريق القوة والعناية بتكوين جيش ملكى قوى، وحكم البلاد حكم فرديا بعد أن عطل المجلس النيابى الذى كان قائما وهو مجلس الطبقات، الذى لم يجتمع طول مدة حكمه سوى مرة واحدة ، فكان الملك يصدر المراسيم ويسن القوانين على مسئوليته الخاصة، وقضى على الحقوق المكتسبة لعدد كبير من المدن وعلى استقلالها المجلس فى إدارة شئونها، وكان وحده يعقد المعاهدات ويقرر الشئون الخارجية لفرنسا .

وقد زجت فرنسا نفسها فى السياسة الأوروبية بمشروعها الذى بدأ ملكها شارل الثامن وهو يغزو الأراضى الإيطالية عام ١٤٤٩ ، وبذلك زرعت بذرة الصراع بين مماليك أسرة فالوا وأباطرة أسرة هبسبرج فى محاولات لمنع تسلط الأسرة الأخيرة على القارة الأوروبية، ومع انشغال ملوك فرنسا الذين تولوا العرش بعد ذلك بالحروب الإيطالية إلا أنهم لم يفضلوا تدعيم عروشهم ضد الأشراف وضد النزاعات الإقليمية فى البلاد وأصبحت السلطة الملكية أكثر تحكما وأشد قوة.

ولكن فى خلال الحروب الدينية التى أثارتها طائفة الهيجونوت فى فرنسا، تزعزعت هيبة التاج فترة من الزمن ، وخبأ الشعار الذى كان يرفعه الملك فرانسوا الأول فى قوله «ملك واحد، ودين واحد، وقانون واحد».

ولكن بعد أن اعتلى هنرى الرابع العرش وعاد السلام فى عام ١٥٩٤ استطاع الملك بفضل وزيرين نابغين متتالين الكاردينال ريشلييه والكاردينال مازاران Mazaran . أن تستعيد الملكية مهابتها وقوتها وتجلت تلك القوة بأجلى مظاهرها فى عهد الملك لويس الرابع عشر (١٦٤٨-١٧١٥) حيث كان له الفضل الأكبر فى ازدهار النفوذ الفرنسى فى القارة الأوروبية بأكملها.

البروتستنتية الفرنسية:

قبل أن يتولى الحكم لويس الحادى عشر كان رجال الدين يتمتعون بامتيازات جعلتهم فى مقدمة طبقات الأمة ، وكان مركز الكنيسة الرومانية قويا فى فرنسا لأن طبقة الاكليروس فيها كانوا يرتبطون بالبابا أكثر من ارتباطهم بالدولة، وظل الأمر كذلك حتى جاء الملك فرانسوا الأول وتوصل فى عام ١٥٦١ إلى اتفاق مع البابا وهى اتفاقية بولونيا التى أسفرت عن اعتراف البابا بحق ملك فرنسا فى تعيين الأساقفة رؤساء الأديرة فى بلاده، وهكذا ازدهرت سلطة ملوك فرنسا تجاه طبقة رجال الدين الذين انقطعت صلتهم بروما وضعف ولاؤهم للبابا، ولعل تلك الخطوة هى السبب فى جعل ملوك فرنسا لايتحمسون للمذهب البروتستنتى ولا يجدون مصلحة شخصية لوجوده فى تشجيعه فى بلادهم الدينية مدى أربعين عاما تقريبا، بين عام (١٥٦٢-١٥٩٨) على أن دوافع هذه الحروب لم تكن دينية فحسب بل كانت سياسية أكثر منها دينية على الرغم من الحماسة الدينية التى كانت سمة الفريقين المتنازعين باسم الدين.

وقد انتشرت اللوثرية فى فرنسا فى أول الأمر ، ثم استقر رأى المصلحين هناك على اعتناق الكلفنة ، أى مبادئ كالفن وهى المبادى التى تتلاءم مع المزاج الفرنسى، بالاضافة إلى أن كالفن كان فرنسيا وكتب مبادئه باللغة الفرنسية ، فكانت أقرب لنفوس الجماهير حيث انتشرت بسرعة ، وأطلق عليها اسم الهيوجونت Huguenots [1] على الكلفنيين الإنجليزيين واستهوى المذهب الجديد عددا كبيرا من الأشراف والإقطاعيين الذين أخذوا على عاتقهم مبدأ الإصلاح الدينى فى مقاطعتهم مقلدين فى ذلك ألمانيا عندما قرروا أن يكون لهم وحدهم حق اختيار المذهب الذى يجب اتباعه فى أقاليمهم، وكثيرا ما كان هؤلاء يتبعون الأساقفة المحليين ويعينون فى الكنائس الجديدة قسسا من اتباع المذهب البروتستانتى على مبادىء كلفن وهى الكنائس التى كان يقود فيها القسيس الصلاة على حسب الطقوس الكلفنية ويؤدى المراسم باللغة الفرنسية.

---

(١) كلمة الهيجونوت تعبير فرنسى يبدو أنه ترجمة رديئة لكلمة (المتحالفين Confederales) الألمانية، وهو الاسم الذى كان يعرف به أحياناً المصلحون السويسريون.

وانتشرت البروتستنتية أولا فى جنوب فرنسا باعتبارها حركة عامة ثم تسربت إلى مدن أخرى كثيرة فى جميع أرجاء البلاد وانضم إليها إلى جانب الفلاحين والعمال الطبقة البرجوازية في المدن، وكانت النتيجة أن انتشرت حتى شملت العمال الذين كان عليهم اتباع سادتهم الذين يعملون فى خدمتهم .

وفى عهد الملك فرانسوا الأول (١٥١٥-١٥٤٧م) اشتدت حركة الصراع الدينى بين الكاثوليكية والبروتستنتية ،فى الوقت الذى كان فرانسوا مشغولا بصراعه مع الإمبراطور شارل الخامس وحروبه الطاحنة فى إيطاليا، التى ألقت به كأسير حرب بعد هزيمتة فى بافيا Pavia عام ١٥٢٥ حيث سيق إلى أسبانيا تحت رحمة الإمبراطور وعندما أطلق سراحه فى عام ١٥٢٦ وعاد إلى باريس كان يبدو كأنة راض عن حركة الإصلاح الدينى فى بلاده نظرا لعدائه الشديد الذى يكنه للبابا ولميله الشخصى للمبادئ التى ينادى بها المصلحون ، إلا أن تطور الحوادث جعله يضع مصلحة العرش ووحدة البلاد فوق ميوله الشخصة، فقد كان يخشى أن تؤدى الخلافات الدينية إلى الانقسام السياسى فى فرنسا كما حدث فى ألمانيا، وعندئذ رأى حسم الموقف بكل شدة وبطش، وبدأت حركة الاضطهاد الدينى فى فرنسا فى عام ١٥٣٥ مما دفع كلفن إلى الفرار من فرنسا إلى "بازل " بسويسرا، وهناك وضع كتابه مبادئ الدين المسيحى، وأعد رسالة إلى الإمبراطور فرانسوا بعنوان Epitre Dedicatoie a Francois (رسالة إلى فرانسوا الأول) وقد تضمنت المبادئ الرئيسية لحركة الإصلاح الدينى كما يراها كلفن وكان لهذين الكتابين أثرهما فى سير الحركة البروتستنتية فى فرنسا واتخاذها الكلفنية بدلا من اللوثرية .

ومنذ ذلك الحين انقسمت حركة الإصلاح فى فرنسا إلى فرقتين رئيسيتين: الفترة الأولى شملت ما تبقى فى عهد فرانسوا الاول، ثم عهد الملك هنرى الثانى (١٥٤٧-١٥٥٩)وعهد فرنسوا الثانى (١٥٥٩-١٥٦٠)، وشارل التاسع (١٥٦٠-١٥٧٤)، وقد تميزت مدة حكم هؤلاء الملوك باستمرار الاضطهاد الذى

أدى إلى مذابح ومعارك طاحنة، ثم جاء حكم الملك هنرى الثالث الذى كان الصراع فى عهده سياسيا أكثر منه دينيا وتولى العرش بعده هنرى نافار الذى كان زعيما للبروتستانت وأصبح ملكا باسم هنرى الرابع (١٥٨٩ـ١٦١٠)، وبتوليته العرش تبدأ الفترة الثانية التى غنم أثناءها البروتستانت امتيازات جعلت فرانسا تبدو كأنها انقسمت إلى قسمين وظل الانقسام على أشدة حتى تولى الوزارة الكردينال ريشلييه Richelieu فى عهد الملك لويس الثالث عشر فجاهد طوال مدة حكمه ووضع الأساس السليم لوحدة البلاد ، ونستطيع الآن أن نتتبع فى إيجاز حركة الإصلاح الدينى فى فرنسا خطوة خطوة.

هنرى الثانى (١٥٤٧ـ١٥٥٩) .

واصل الملك هنرى الثانى ما بدأه أبوه فرانسوا الأول من اضطهاد للبروتستنت بقصد القضاء عليهم واستئصال شأفتهم فكان يأمر جنوده بمهاجمتهم وهدم منازلهم، وحدثت مذابح راح ضحيتها الألوف من البروتستنت وبلغت حركة الاضطهاد حدا لا يطاق حتى إن عدداً كبيراً من زعماء الحركة حكم عليه بالموت حرقا ومع ذلك لم يستطع الملك وأعوانه نزع العقيدة من قلوب المؤمنين بها بل إن حركة البطش والاضطهاد التى لاقاها الهيجونوت زادت من عطف الجماهير على المضطهدين وانتشر المذهب الجديد بين طبقات الشعب من الفلاحين وأصحاب المهن والمثقفين ، إلى جانب العدد الكبير من الأشراف الذين اجتذبتهم الحركة البروتستنتية ، لا لإيمانهم بها فحسب بل لأنها تمنحهم الفرصة والكفاح ضد التاج ثم يحيى أملهم فى الاستيلاء على الكنيسة .

كاترين دى مديتشى،

وفى سنة ١٥٥٩ لقى الملك هنرى الثانى حتفه أثناء ممارسته لبعض ألعاب الفروسية، وذلك فى حفل أقيم تخليدا لذكرى معاهدة كتو كمبرسيس التى أنهت القتال بين فرنسا وأسبانيا، تاركا أربعة أولاد قاصرين لم يتجاوز سن أكبرهم خمسة عشر عاما تحت رعاية أمهم كاترين ديمتشى، وكان الملوك الثلاثة الذين توالوا على

الحكم من أضعف الملوك الذين جلسوا على عرش أوروبا لأن السلطة الحقيقية كانت فى يد أمهم .

وكانت كاترين تنتمى إلى أسرة مديتشى العريقة فى إيطاليا ، ولم يكن عمرها إذ ذاك يزيد على ثلاثين عاما ولكنها كانت تتميز بشخصية قوية ونزعة إلى التسلط والانفراد بالرأى، ولكنها فى حياة زوجها كانت تعيش وراء الأسوار لا يعبأ زوجها بها كثيرا، فما إن مات حتى وجدت الفرصة سانحة للتسلط على البلاط وشئون الحكم، وبقيت الشخصية الأولى فى البلاد مستغلة الفراغ الذى تركه زوجها بعد وفاته، ولكنها رغم قوة شخصيتها لم تستطع أن تتحكم فى الموقف المرتبك الذى كان سائداً فى عصرها وهو موقف الانقسام والفوضى وانتشار الدسائس، حيث تسابقت جماعات قوية للسيطرة على الملوك الصغار الذين تتباعوا على الحكم بقصد استغلال ضعفهم وسوء منبتهم لتحقيق الغايات، وكان من بين هؤلاء جماعات تنتمى إلى الهيجونوت وآخرون ينتمون إلى الكاثوليك، وحاولت كاترين أن تقيم سلاما دينيا يقوم على التوفيق بين طوائف المتعصبين، ولكنها لم تتخذ مبدأ التسامح مبدأ ثابتا لها.

وقد قامت فى ذلك العهد منافسات شديدة بين أسر فرنسية كبرى كل منها يعمل على احتكار الزعامة فى البلاد، وأولهما أسرة جينز Guises والتى تتحمس أشد التحمس إلى الكاثوليكية وعلى رأسها ثلاث شخصيات هم الأخوة فرانسوا دوق جينز وشارل كاردينال اللورين ولويس كاردينال جيز، ولهم شقيقة اسمها مارى كانت متزوجة من جيمس الخامس ملك اسكتلندة[1] وكان الهدف الأكبر لتلك الأسرة هو أن تحكم فرنسا والأسرة العريقة الثانية أسرة بربون والتى كانت من أشد خصوم أسرة جيمس وأسرة جيمس تعتنق المذهب البروتستانتى على مبادئ كلفن.

وجدت الكلفنية فى فرنسا زعيما قديرا هو الأدميرال جسباردى كولينى Gaspard de Coligng الذى قاد الهيجونوت فى معظم حروبهم وهو من أسرة

(١) كانت أسرة جيز على اتصال بفليب ملك أسبانيا الذى كان يمدهم بالرجال والأموال لمساعدة الكاثوليك فى فرنسا ضد البروتستنت أو الهيجونوت.

موغورتسى وأنطوان ملك نافا وأخوه لويس كونديه، وكان نفوذهم عظيما فى جنوب وغرب فرنسا مما ترتب عليه ضم كثير من صغار النبلاء وأعيان الريف فى هذه المناطق إلى ميدان الصراع .

الحروب الدينية :

وتولى عرش فرنسا الملك الصغير فرانسو الثانى الذى لم يعش كملك سوى ثمانية عشر شهرا فقد توفى فى ديسمبر ١٥٦٠ وخلفه على العرش أخوه الأصغر الذى لا يزيد عمره على عشر سنوات وتولى الوصاية على أمه كاترين التى اغتنمت الفرصة لمحاولة السيطرة على زمام الموقف، وكانت خطتها واضحة فى إشعال التنافس بين أسرتى جيز وبوربون حتى تتحطم قواهما وتستطيع الحكم بالاعتماد على العناصر المعتدلة التى قد تكون أكثر ولاءً للأسرة المالكة.

وكانت أسرة جيمس تستأثر إذ ذاك بأكبر نفوذ فى فرنسا و لاسيما أن الملكة الأم كاترين كانت تشجع تلك الأسرة باعتبارها حامية الكاثوليكية، وكان ذلك سببا لإغضاب الأسرات البروتستنتية الكبرى، على الأخص أسرة بربون وأسرة مونت مونمورنسى[١] وهى أسر أعطت الكلفنية صبغة سياسية وثورية إلى جانب صبغتها الدينية، وكان الصراع بين هذه الأسر الكبيرة على السلطة دافعا قويا لقيام الحروب الدينية فى فرنسا.

وقد تعرض الهيجونوت لمذبحة كبيرة دبرها أعوان أسرة جيز بقصد القضاء عليهم، فقد حدث أن «فرنسوا دى جيز» كان يمر فى طريقه إلى باريس بمدينة فاسى Vassy (مارس١٥٦٢)، وهى مدينة مسورة وحصينة، فشاهد جماعة من الهيجونوت يقيمون صلواتهم فى مكان فسيح، فأقحم عليهم جنوده الذين اشتبكوا معهم وعندئذ أمر الدوق جيز بإطلاق النار عليهم وتذبيحهم، ونتج عن ذلك مصرع

(١) كان آل مونمورنسى مخلصين للعقيدة الكاثوليكية ولكنهم كانوا يكرهون الملكة الوالدة وآل جيز ولذلك انضموا أخيراً للهيجونوت.

أعداد كبيرة من الهيجونوت وجرح آخرين، وكان لتلك المذبحة آثار خطيرة عندما ذاع خبرها بين الكاثوليك فى أقاليم إذا قام هؤلاء من جانبهم بالقيام بمثل ما قام به أعوان الدوق جيز وهاجموا الهيجونوت أينما وجدوهم ولقى حتفه منهم الكثيرون.

ولم يقف الهيجونوت أمام تلك المذابح موقفا سلبيا بل أقدموا على الإنتقام بمهاجمة الكنائس الكاثوليكية، فخربوها وقتلوا عدداً كبيراً من رجال الدين الكاثوليك، وتفاقم الأمر حتى بدأت تلك المذبحة أول فتيل يشعل نار الحرب الوطنية فى فرنسا والتى لم يطفأ أوارها مدى ثلاثين عاماً، وشرع الفريقان يسعيان فى تسليح قواتهم والاستنجاد بحلفاء من الخارج، ووجد البروتستانت فى اليزابيث ملكة إنجلترا حليفا يشد من أزرهم إذ كانت تعتقد أن انتصار الكاثوليك يجعلهم يؤيدون غريمتها الملكة مارى ملكة اسكتلنده التى تحاول انتزاع عرش انجلترا منها، ولكن الملكة اليزابيث اشترطت على البروتستنت أن يعدوها بالاستيلاء على ديب Dippe وهافر Havre، وفى الوقت نفسه حصل الكاثوليك فى فرنسا على تأييد فيليب الثانى ملك أسبانيا.

وقد اشتعلت الحرب بين أصحاب المذهبين فى فرنسا بصورة رهيبة لم يسبق لها مثيل فى أوروبا، ولم تكن حربا أهلية بين منطقة وأخرى كما كان الحال فى الحرب الأهلية الأمريكية أو الحرب الأهلية فى إنجلترا فى القرن السابع عشر بل كانت حربا تنشب بين المواطنين حيث لا قانون يحمى المعتَدى عليهم ولا حكومة له من السلطة ما يوقف المذابح التى تجرى فى المدن والقرى بين الأهلين، وكلما ظهر زعماء بارزون من أحد المذهبين التف حولهم الأتباع لتكوين فرق محاربة تعبث بالأمن والأرواح فيهرع الفلاحون إلى الغابات وتغلق الطبقة المتوسطة فى المدينة أبواب بيوتها، وفى بعض المدن كان السكان يلجأون إلى تشكيل حرس وطنى لحماية الأرواح والأملاك.

استمرت تلك الحروب من عام ١٥٦٢ حتى عام ١٥٩٣ وقد تولت أسرتا جيز ومونت موارانسى قيادة الكاثوليك معتمدين على ما كان يبذله لهم فيليب الثانى من مساعدات، أما البروتستنت (الهيجونوت) فكان يقودهم الأدميرال كولينى Coligny ودوق كونديه Conde معتمدين على ما يتلقونه من مساعدات ملكة إنجلترا (اليزابيث)، وفى المرحلة الأولى من تلك الحروب انتصر الكاثوليك إلا أنهم فقدوا دوق دى جيز، ورأت كاترين دى مديتشى ألا تدع الأسر الكاثوليكية النبيلة تنعم بانتصاراتها، فأصدرت– بالاتفاق مع الزعيم البروتستنتى كونديه – مرسوم أمبواز Amboise (مارس ١٥٦٣)، منحت بموجبه الهيجونوت حرية العبادة فى بلدة واحدة من كل إقليم، ومضت فترة سلام بعد هذا المرسوم استمرت خمس سنوات شعر الهيجونوت بعدها أن المؤامرات بدأت تنظم ضدهم من جديد.

صلح سان جرمان:

وعادت الحروب من جديد عام ١٥٦٨، وانهزم الهيجونوت فى معارك كثيرة قتل أثناءها زعيمهم كونديه، ولكن لم يستطع الكاثوليك مواصلة انتصاراتهم، ولا سيما أن الملكة الوالدة كاترين كانت لا تزال تخشى تسلط زعماء أسرة دى جيز الذين اشتد صلفهم وغرورهم وتتحاشى أن تقع تحت تأثير نفوذهم، أو أن ينتقل إليهم عرش فرنسا، ولذلك رأت مصالحة الهيجونوت مرة أخرى ومنحتهم فى مرسوم سان جرمان St. Germain شروطا أكثر تسامحا من مرسوماتها السابقة حيث أصبح لهم حرية العبادة فى بلدتين من كل إقليم إدارى من أقاليم فرنسا الاثنى عشر، وأن تكون لهم أربع مدن يجتمعون بها ويلجأون إليها [1]، على أن تظل هذه المدن الحصينة فى أيديهم لمدة عامين، وذلك ضماناً لتنفيذ شروط الصلح، كذلك سمح لكبار الأشراف بأن يقيموا شعائر الدين طبقا لمذهب الهيجونوت فى قصورهم لكل من يرغب فى حضورها.

---

(١) كانت هذه المدن لاروشل، ومونتوبان، وكونيال، ولا شاريتيه.

وقد كان لصلح سان جرمان أثره في بعث الأمل فى نفوس الهيجونوت، وهيأ السبيل أمام كولينى للعمل فى خطة يقرب بها هوة الخلاف بين الكاثوليك والهيجونوت، وأهاب بهم أن ينبذوا خلافاتهم الدينية لمواجهة الخطر الأسبانى على كيان فرنسا وهى سياسة أعجب بها الملك الصغير الشاب شارل التاسع، وازداد التقارب بينه وبين كولينى مما أثار حقد الملكة الوالدة التى خشيت إزدياد نفوذ كولينى على ابنها، كما كانت تخشى أن يأخذ آل جيز المبادرة فيضربوا ضربتهم إذ تخلت هى عن واجبها فى القضاء على الهيجونوت وتكون النتيجة أن ينتزعوا لأنفسهم السيطرة على فرنسا.

والواقع أن الملك شارل التاسع– وقد بلغ إحدى والعشرين عاما من عمره –كان فى أشد الاستياء من طول حرمانه كملك لأن والدته كانت تستأثر بالسلطان من سلطته كله، كما يحقد على الملك فيليب الثانى الذى يدّعى لأسبانيا زعامة الكاثوليكية فى أوروبا، وفى الوقت نفسه لم يكن راضيا عن تزايد النفوذ الأسبانى فى البلاط الفرنسي. فصحت عزيمته على كسب الهيجونوت إلى صفه وبإظهار عطفه عليهم وعلى قائدهم كولينى، وعلى تغيير سياسة البلاد الخارجية بما يتلاءم مع مصلحة البروتستانت فى معارضة النفوذ الأسبانى فى أوروبا، وكان من الإجراءات التى تمت موافقته على المعاهدة الدفاعية التى وقعها كولينى مع انجلتر فى بلوا Blois (ابريل ١٥٧٢) وتمتع الهيجونوت أثناء تلك الفترة بنفوذ وسلطان لم يمارسوه فى فرنسا من قبل.

مذبحة سان برثلميو ١٥٧٢،

أدركت كاترين أن الوقت قد حان للتخلص من الموقف الذى يهدد نفوذها، فقررت أن تقضى على الهيجونوت وزعمائهم فى عملية واحدة، وبدأت بقائدهم كولينى، ففى شهر أغسطس ١٥٧٢ كانت باريس مكتظة بالهيجونوت الذين أتوا من كل فج للاحتفال بعقد زواج هنرى نافار على الأميرة مرجريت شقيقة الملك، وكان كولينى على رأس المحتفلين بتلك المناسبة، وبينما كان يغادر القصر ٢٥ أغسطس ١٥٧٢ هاجمه كاثوليكى متعصب بتدبير من الملكة وحاول اغتياله إلا أن كولينى نجا من الموت ولم يصب إلابجرح غير مميت، ولما افتضحت المؤامرة أصبح موقف

الملكة دقيقا وحرجاً، ولاسيما أن العاصمة كانت مزدحمة بجماهير الهيجونوت بمناسبة الزواج الملكى فسارعت إلى تنفيذ خطتها الكبرى ضد جميع الزعماء البروتستانت بعد أن أوهمت الملك أن الهيجونوت يدبرون مؤامرة ضد عرش فرنسا .

وفى فجر يوم أغسطس– وهو يوم القديس بارثلميو – أعطت إشارة القيام بالمذبحة الكبرى التى قتل فيها بطريقة وحشية الآلاف من الهيجونوت وزعمائهم، ولم تقتصر المذبحة على باريس بل هوجم الهيجونوت فى الأقاليم أيضا، وقد نفذ هذه المذبحة الوحشية آل جيز الذين انتظروا هذه الفرصة طويلاً حتى ينتقموا لأنفسهم شر الانتقام، وقد لاقى كولينى حتفه فى تلك المذبحة وأرسل رأسه إلى البابا الذى أمر بنقش ميدالية تخليدا لتلك الذكرى التى اعتبرها سعيدة وموفقة .

أما هنرى دوق نافار فقد نجا من الموت عندما عرض عليه فى البلاط الملكى أن يختار بين الإعدام أو العودة إلى الكاثوليكية فقبل الكاثوليكية إنقاذاً لحياته وكذلك فعل «كونديه».

وكانت تلك المذبحة صدمة كبرى لآمال البروتستانت لا فى فرنسا وحدها بل فى أوروبا كلها. على أن تلك المذبحة لم تزد من بقى من الهيجونوت إلا تحمسا وإصراراً وقرروا ألا يستسلموا لليأس مصممين على مواصلة الكفاح فى سبيل عقيدتهم وكيانهم حتى آخر رجل منهم، وبدلا من أن تجتث المذبحة جماعة الهيجونوت كانت مقدمة لحرب أخرى، ولذلك لم يتوقف النضال على مدى عشرين عاماً أخرى.

هنرى الثالث:

وفى عام ١٥٧٤ مات الملك شارل التاسع وخلفه على العرش أخوه هنرى الثالث الذى كان أحب الأبناء عند كاترين، ولم يظهر أثناء حكمه أى دليل على كفايته أو مهارته السياسية، بل على العكس كان ملكا طائشا يحب اللهو والتزين بالحلى والأقراط الذهبية.

وقد تغير الموقف فى عهده، فإن هنرى دوق نافار، الذى كان موضوعاً تحت الرقابة الشديدة فى البلاط تمكن من الهرب ليعود إلى عقيدته البروتستنتية التى يؤمن بها أشد الإيمان وعاد إلى الهيجونوت ليواصل الكفاح ويقود أتباعه ضد الإرهاب الكاثوليكى والقوات الملكية.

وفى الوقت نفسه ظهر فى فرنسا حزب جديد من بين الكاثوليك المعتدلين أطلق على أعضائه اسم (السياسيون Les Politiques). وكانوا يرون أن من الواجب وضع الاعتبارات السياسية فوق الاعتبارات المذهبية، والعمل على إعادة الأمن والسلام والطمأنينة إلى البلاد، وذلك بالتسامح مع الهيجونوت، ومنحهم بعض الحقوق التى يطالبون بها ولكن لم يكن لجماعة «السياسيين» قيادة ولا لائحة تنظم جهودهم.

وعلى النقيض من هذا الحزب، ظهرت جماعة أخرى من الكاثوليك المتعصبين تتخذ لنفسها طريقا مخالفا ومتصلبا، وتنعى على الملك والملكة الوالدة أنهما لا يزالان يتبعان سياسة الضعف بعرض سلام أو هدنة على الهيجونوت فى كل مناسبة ويمنحونهم أمكنه لإقامة شعائرهم البروتستنتية حيث يتمتعون بكامل الحرية فى غير خفاء فى ثمان مدن فرنسية، على أن أهم ما كان يشغل بال هذه (العصبة) الكاثوليكية هى مسألة وراثة العرش الفرنسى فى المستقبل، عندما توفى الأخ الوحيد لهنرى الثالث، ولما لم يكن لهنرى ابن يرث العرش فإن الوريث التالى للعرش هو هنرى نافار من أسرة بوربون، ولذلك أرادوا الحيلولة دون وقوع هذه الكارثة التى تضع على العرش الفرنسى زعيماً بروتستانتيا يقود قوات الهيجونوت، ولكى يمنعوا الكارثة لم يكن لديهم مانع من التحالف مع أسبانيا والإرتماء فى أحضان الملك فيليب الثانى.

هنرى الثالث، وهنرى دى جيز، وهنرى نافار،

ومنذ ذلك الوقت، أخذ التاريخ الفرنسى يدخل فى ظلال غامضة، فالملك هنرى الثالث رغم أنه كاثوليكى، وأحد مدبرى مذبحة سانت بارثلمو، إلا أنه كان حانقا على هذه (العصبة) الكاثوليكية التى أظهر أعضاؤها عدم ولائهم للملكية الفرنسية حتى إن بعضهم كان يفضل أن ينادى بفيليب الثانى ملك أسبانيا ملكاً

على فرنسا أيضاً، وكانت نفس هنرى الثالث مملوءة أيضاً بالغيرة والحقد على هنرى دوق جيز، ولكنه كان ضعيفاً غير حازم، وتبين مدى ضعفه فى اليوم المسمى فى التاريخ الفرنسى بيوم المتاريس La Journee de Baricade (١٢ مايو ١٥٨٨) عندما هبت باريس تؤيد هنرى دوق جيز وترتب على ذلك فرار الملك هنرى الثالث من العاصمة، وعجزت قواته عن دخول المدينة لإخماد الثورة، وفقد الملك هيبته بين الكاثوليك والبروتستنت على السواء، بينما تدعم غريمه هنرى دى جيز. ولذلك لم يجد حلا لأزمته وسوء طالعه سوى أن يلجأ إلى الاغتيال، فقتل هنرى دى جيز وأخيه كاردينال اللورين فى أواخر عام ١٥٨٨.

وكانت أمه العجوز كاترين على فراش المرض [1] عندما حمل إليها ابنها الخبر قائلاً «الآن غدوت ملك فرنسا الحقيقى. لقد قتلت ملك باريس»، ولكن مات الملك فوجد أنه لم يعد له أنصار، وضاع مركزه بين الحلف الكاثوليكى، فقد اعتبر عدوا لمبادئهم، وعندما أدركه اليأس، اتجه إلى غريمه الآخر هنرى نافار، وارث العرش بحكم القانون وصاحب الحظوة عند الشعب، معترفاً له بأحقيته فى ولاية العهد، ووعده بأن تكون سياسته الجديدة هى سياسة التسامح مع الهيجونوت.

وأخيراً اتفق هنرى الملك الكاثوليكى. وهنرى نافار البروتستنتى على أن مصلحتهما المشتركة تدعوهما إلى مهاجمة الحلف الكاثوليكى، ذلك الحلف الذى يضم عصبة المتطرفين الذين قرروا من قبل خلع هنرى الثالث، وأعلنوا فى الوقت نفسه أن هنرى نافار لا يستحق العرش، وقد نتج عن تحالف الملك وابن عمه البروتستنتى تدعيم مركز الملك وإضعاف موقف الحلف الكاثوليكى الذى سيطر بأنصاره على باريس، وكانت أول خطوة اتخذها هنرى الثالث وهنرى نافار أن حاصرت قواتهما باريس، وبينما كان النصر معقوداً للملك وابن عمه، أفلح أحد الكاثوليك فى اغتيال الملك (أغسطس ١٥٨٩)، وبذلك أصبح الحلف الكاثوليكى وهنرى نافار وجها لوجه، وبدأ الصراع بين الطرفين.

(١) توفيت الملكة الوالدة كاترين دى مديتشى فى يناير ١٥٨٩.

ولم يكن الطريق ممهداً أمام هنرى نافار صاحب الحق الشرعى فى التاج الفرنسى، فقد تضافرت ضده قوى عديدة، كان على رأسها رجال البلاط أنفسهم من الذين كانوا فى خدمة الملك السابق وكان ولاؤهم له ومحبتهم إياه بسبب أنه كان كاثوليكيا وملك البلاد الشرعى، وما كانوا يتصورون إعتلاء ملك بروتستنتى عرش البلاد. كذلك كانت أسبانيا تمد الحلف الكاثوليكى بالمساعدات العسكرية والمادية حيث تحركت قوة أسبانية من الأراضى المنخفضة فى طريقها إلى فرنسا لشد أزر الكاثوليك.

ودام الصراع قرابة عامين شعر بعدهما هنرى نافر أن الموقف أصبح فوق الاحتمال، وأن المخرج الوحيد أمامه هو أن يعلن على الملأ اعتناقه الكاثوليكية ليضمن العرش لنفسه، ويقضى على أطماع ملك أسبانيا. وذلك لأنه وجد أن العقبة الكبرى فى سبيل الوصول إلى العرش واكتشاف رضاء أغلبية الشعب هى أنه بروتستنتى فى حين أن الكاثوليكية هى المذهب الرسمى للدولة. ولما أعلن قراره هدأت المقاومة فى باريس ثم فتحت له المدينة أبوابها هاتفة للملك الكاثوليكى الذى أصبح هنرى الرابع ملك فرنسا[1]، وكان ذلك فى عام ١٥٩٤، وتبع ذلك تسليم بقية المدن والمعاقل وانتهت الحروب الدينية فى فرنسا.

هنرى الرابع ١٥٨٩- ١٦١٠م

وبتولى هنرى الرابع العرش انتقل الحكم من أسرة فالوا إلى أسرة بوربون، وقد أثبت الملك الجديد أنه جندى شجاع وسياسى من الطراز الأول، سلك طريقا حكيما مع الأشراف الكاثوليك والتف حوله عدد من زعماء الحزب الكاثوليكى، فتثبت بذلك دعائم حكمه، ولاسيما أن البابا رفع عنه قرار الحرمان الذى كان قد أصدره بحقه، واعترف به ملكا لفرنسا.

---

(١) كان تعصب الجماهير الكاثوليكية فى باريس حادا حتى أنه لم يستطع دخول المدينة إلا بعد ثمانية أشهر إذ ظلت مقاومة هؤلاء حتى بعد إعلانه التخلى عن البروتستنتية.

وكان اهتمام هنرى الرابع موجها فى الدرجة الأولى إلى إنهاء الخلاف المسلح بين الكاثوليك وبين أنصاره القدماء من البروتستنت (الهيجونوت)، لذلك دعا إلى سياسة التسامح وشرع فى مفاوضة زعماء الهيجونوت ومساومتهم على قبول تسوية تضمن لهم حرية العبادة، وأخيراً أصدر فى أبريل ١٥٩٨ مرسوم نانت Edict of Nantes وهو المرسوم الذى اعتقد أنه سوف يرضى رعاياه الهيجونوت وينهى الصراع المذهبى فى فرنسا، وكان المرسوم بمثابة معاهدة بين العرش والهيجونوت لأنه صدر بعد مفاوضات مضنية وقبول من الطرفين.

وقد منح المرسوم حرية العبادة فى قلاع النبلاء أو الأشراف أى أن كلا منهم كان من حقه إقامة الشعائر الدينية البروتستنتية فى نطاق إدارته، وسمح للمدن التى يتضح أن أغلبية سكانها العظمى من البروتستنت أن تزاول العبادة طبقا لمذهبهم، ولكنه منع إقامة الشعائر البروتستنتية فى باريس وضواحيها أو فى المدن التى بها أسقفيات كاثوليكية.

كذلك منح المرسوم البروتستنت التمتع بالحقوق المدنية والحماية القانونية التى يتمتع بها الكاثوليك وأن يكونوا معهم على قدم المساواة فى التعيين بالوظائف العامة والالتحاق بالجامعات الكاثوليكية، وحرصا على سلامتهم وأمنهم منحوا حق وضع حاميات بروتستانتية وقيادة بروتستنتية فى نحو مائة مدينة محصنة وكان أكثر هذه القواعد فى لاروشيل ومونبلييه وسومير، وهكذا انتزع الهيجونوت بموجب مرسوم نانت امتيازات لم يكن الكاثوليك ليسمحوا حتى يجعلها موضع نقاش، ولكن الملك استطاع أن يقضى على المعارضة ولكنه فى الوقت نفسه لم يضن بتقديم كل عون ومساعدة للجزويت فى فرنسا.

والواقع أن مرسوم نانت خلق دولة هيجونوتية صغيرة داخل الدولة الفرنسية بجيشها وقلاعها ونظامها الدينى والمدنى وصار لهم الحق فى عقد مجلس يمثلهم وينعقد مرة كل ثلاث سنين للبحث فى شئونهم ورعاية مصالحهم، ولكن الملك لم يظهر أى ضعف تجاه الهيجونوت بل كان واضحاً أنه لم ينزل من الوجهة النظرية عن حقه فى تقرير العقائد فى مملكته، فهو السلطة العليا، وهو الذى يمنح ويمنع.

وبعد أن هدأت الفتن الدينية على هذا النحو وجه هنرى الرابع عنايته نحو إصلاح أحوال البلاد الاقتصادية والعمرانية، والتى اضطربت سنين عديدة نتيجة لانغماس البلاد كلها فى الفوضى والاشتباكات، ووفق إلى وزير قدير، هو صديقه القديم دوق صلى Duke of Sully ليتولى شئون المالية فى الدولة، وعالج صلى مشكلات البلاد بمقدرة وكفاءة، إذا كانت الزراعة مهملة وفى أسوأ حال، والضرائب الحكومية يقوم على شئونها فئة من المختلسين، وتعطلت الصناعة والتجارة فى المدن وخلت خزينة الدولة وكثرت ديونها.

وقد نجح صلى فى إنقاذ البلاد من أزمتها المالية دون أن يثقل كاهل الشعب بضرائب جديدة ونظم سجلات المالية وفصل كل من ثبت عليه الاختلاس أو الإهمال وألغى امتيازات الإشراف فى عدم دفع الضرائب بعد أن برهن لهم على بطلان ادعائهم، وبالتدريج جعل موارد البلاد كافية لسد حاجتها بل لقد زاد الدخل عن المنصرف.

وكان من رأى الملك ووزيره أن الزراعة فى فرنسا تستطيع لو صلحت أن تدر أموالا وفيرة على البلاد وتغنى الحكومة عن إثقال كاهل الشعب بالضرائب، وبما أن الفلاح هو عماد الأرض كان على الحكومة أن تهتم براحته وكرامته، ولذلك تقرر تخفيض الضرائب التى يدفعها وحرم على جباة الضرائب مصادرة الحيوانات والأدوات الزراعية نظير ما على الفلاحين من ضرائب.

ووجه الملك هنرى الرابع اهتماماً آخر للصناعة والتجارة فأحيا الصناعات القديمة وأسس مصانع للأقمشة والسجاد والبللور وأدوات الزينة والحرير، واتخذ عدة تدابير لتنشيط التجارة الداخلية والخارجية بمد السكك الحديدية وتعبيد الطرق وبناء المعابد والجسور، وكان يتطلع إلى جعل فرنسا دولة بحرية كبرى ولها مستعمرات كالمستعمرات الأسبانية والبرتغالية.

ولم تشغله الإصلاحات الداخلية عن السياسة الخارجية فاهتم بعلاقات فرنسا التجارية والسياسية بجاراتها، فعقد المعاهدات التجارية مع إنجلترا وتركيا وهولنده، وأقدم

على محاولات إستعمارية واستكشافية جديدة فى أمريكا الشمالية وخاصة فى كندا، وعنى بالقضاء على نفوذ آل هبسبرج النمسوى الأسبانى فى أوروبا، وكان يرى أن ذلك لا يتحقق إلا بتضافر كل أعداء هذا النفوذ كالانجليز والفرنسيين والإيطاليين والأقاليم التى تم اتحادها فى الأراضى المنخفضة، والأمراء البروتستنتيين، حتى إذا تم تدمير النفوذ الأسبانى النمسوى تفرغت فرنسا إلى بسط نفوذها فى أوروبا.

ولكن لم يعش هنرى الرابع لتحقيق أمانيه، فقد تصدى له كاثوليكى متعصب وطعنه بمدية حادة فسقط قتيلاً فى شوارع باريس (مايو ١٦١٠). فقد كان القاتل يعتقد كما يعتقد الكثيرون من الكاثوليك أن هنرى الرابع قد خان القضية الكاثوليكية وتسامح مع الهيجونوت وتحالف مع البروتستنت فى ألمانيا.

الفترة العصيبة (١٦١٠- ١٦٢٤):

بعد مصرع هنرى الرابع، تولى عرش فرنسا ابنه القاصر لويس الثالث عشر، فأقيمت أمه مارى دى مديتشى Marie de Medici وصية عليه، ومرت بفرنسا فترة عصيبة (١٦١٠- ١٦٢٤) عادت البلاد أثناءها لتصبح فريسة لأنانية فئة من الأشراف وعصبة من الإنتهازيين المتسلقين، وأصبح بلاط مارى دى مديتشى فى يد حاشية من الإيطاليين، ولم تكن مارى سعيدة فى زواجها من هنرى الرابع، لأنها كانت تختلف معه فى آرائه وفى السياسة التى اتبعها فى الحكم، فقد كانت ترى- على عكس سياسة زوجها- ضرورة التحالف مع أسبانيا وتنسيق السياسة الفرنسية معها، كذلك كانت تخالفه فى السياسة التى اتبعها مع الهيجونوت، ورغبة فى تنفيذ سياستها فى التحالف الأسبانى عقدت زواجا مزدوجا بين الأسرتين المالكتين. فعقدت زواج ابنها لويس الثالث عشر الذى لم يكن يتجاوز الحادية عشرة من عمره على الأميرة آن النمسوية إبنة فيليب الثالث ملك أسبانيا. وفى الوقت نفسه تم زواج الأميرة اليزابيث شقيقة الملك الفرنسى بالأمير الأسبانى فيليب نجل الملك فيليب الثالث، وهذا الأمير هو الذى أصبح فيما بعد فيليب الرابع ملك أسبانيا، وقد تمت صفقة المصاهرة فى عام ١٦١٦.

وكان وزيرها، صاحب الحظوة لديها، إيطالى من تسكانيا، إسمه كونسبينى Coneini الذى وصل بفضل زوجته وصيفة الملكة مارى إلى رتبة «مارشال فرنسا». وقد حاول بعض المتألبين من أشراف فرنسا الثورة على الأوضاع القائمة ولكن محاولاتهم كانت تعالج بإغداق المال عليهم وكان الذهب كفيلا بإسكاتهم، ولهذا ولغيره من الأسباب المماثلة نفد إحتياطى الذهب الذى ادخره صلى لخزينة الدولة.

ولما بلغ لويس رشده عام ١٦١٤ دعا مجلس الأمة النيابى للنظر فى شئون البلاد وخاصة ماليتها، ويتألف هذا المجلس من طبقات الأشراف ورجال الدين والطبقة البورجوازية، ولكل طبقة منها مصالحها الخاصة التى تدافع عنها ولا شىء غير ذلك، ولذلك لم يستطع المجلس أن يتفق على المبادىء التى يرجى منها إصلاح مالية البلاد، ولما رأى الملك اختلافهم ومشاحناتهم قرر فض المجلس إلى غير رجعة، وفعلا لم يعد هذا المجلس إلى الانعقاد مدى مائة وستين عاماً عندما انعقد قبيل إندلاع الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩.

وأصبحت يد الملك أقوى مما كانت عليه قبل أن يبلغ سن الرشد، فرأى أن يتخلص من النفوذ الطاغى الذى كان يتمتع به «كونسينى» رئيس الوزارة الذى عينته أمه، ثم اتهمت زوجه كونسينى ووصيفة الملكة الأم بالسحر وأحرقت، وشعرت ماردى دى مديتشى عقب ذلك بالعزلة فاعتكفت فترة بعيدة عن البلاط ولكنها ما فتئت تسعى لاستعادة سلطاتها، فوسطت الكاردينال ريشلييه أسقف لوسون Lvcon لدى الملك وتم الصلح بينهما وعادت مارى دى مديتشى إلى القصر الملكى.

وفى تلك الفترة تحرك الهيجونوت وقاموا بثورة عندما شعروا بعزم الحكومة على الانتقاص من حقوقهم التى اكتسبوها فى مرسوم نانت، وكانت حرب الثلاثين عاما قد اندلعت فى ألمانيا بين الكاثوليك والبروتستنت، وكان لها تأثيرها فى نفوس الأحزاب الدينية فى فرنسا، وكان من أهم أهداف الهيجونوت أن يستقلوا بمدنهم فى جنوب فرنسا فسار إليهم لويس الثالث عشر وحاصرهم فى «مونبلييه» و «لاروشل»

«ومنتوبان» ، وقد قاوم الهيجونوت واستبسلوا فى الدفاع عن كيانهم إلى أن سقطت مونبليه وقبلوا الصلح الذى كانت أهم شروطه أن يراعى مرسوم نانت بعد إنقاص المدن التى كانت فى أيدى الهيحونوت إلى اثنتين فقط وهما لاروشل ومونتوبان، وتقرر بموجب هذا الصلح ألا يعقد الهيجونوت فيما بينهم أية إجتماعات سياسية.

الكاردينال ريشلييه (١٦٢٤-١٦٤٢)،

عندما عادت الملكة إلى القصر، دخل فى خدمة البلاط الفرنسى شخصية فذة تتمثل فى مستشارها القدير الكاردينال ريشلييه الذى تولى الوزارة عام ١٦٢٤ ، ومنذ ذلك الحين بقى ثمانية عشر عاماً كان أثناءها الحاكم الحقيقى فى فرنسا، والمحرك الأكبر للسياسة الأوروبية، وكانت سياسته تتلخص فى شعار واحد هو (تفوق فرنسا) ، وكان هذا يعنى فى نظره تحقيق هدفين: الأول وحدة الشعب تحت التاج الفرنسى وفى ظل حكومة مركزية قوية، وهذا يتحقق بتدعيم نفوذ الملك وسلطانه داخل البلاد وإخضاع الأشراف والإجهاز على استقلال الهيجونوت، والثانى وهو هدف السياسة الخارجية فى القضاء على سيادة آل هبسبرج النمسوية والأسبانية فى أوروبا حتى تكون فرنسا صاحبة السيادة العليا والنفوذ الأكبر فى القارة.

وكانت أول عقبة رأى أن يبدأ بتذليلها هى مركز الهيجونوت السياسى وكيانهم المستقل داخل الدولة وعنادهم الصامد ضد المساس بحقوقهم التى اكتسبوها بموجب مرسوم نانت مما جعلهم عقبة كؤود فى سبيل تحقيق وحدة المملكة، أما الهيجونوت فكانوا يتوقعون المزيد من الاعتداء على حقوقهم بعد أن أصبحت السلطة فى يد الكردينال ريشلييه، لذلك رأوا أن خير طريق يسلكونه هو أن يضربوا ضربتهم قبل أن يستفحل سلطان ريشلييه، حيث كان حينئذ محاطاً بأعدائه الكثيرين فى البلاط ويواجه عداوة الأشراف الذين كانوا يخشون من سطوته التى قد تحرمهم من الامتيازات التى يتمتعون بها، وفى الوقت نفسه كانوا يأملون فى أن تمدهم إنجلترا بالمساعدات الفعالة.

وفى عام ١٦٢٥ شرعوا فى العمل فقاموا بالاستيلاء على سفن كان ريشلييه قد أعدها لتكون نواة للأسطول الفرنسى، وحصلوا على سفن أخرى من هولنده وإنجلترا، إلا أن ريشلييه تمكن من قمع هذه الحركة وإلحاق الهزيمة بمن قاموا بها، وعزم على المضى فى القضاء على كل ما اكتسبه الهيجونوت من الامتيازات السياسية.

وفى عام ١٦٢٧، أمر ريشلييه بمهاجمة ميناء وحصن مدينة «لاروشل» التى كانت أهم معقل للبروتستنتية فى فرنسا، واستعد الهيجونوت للدفاع عنها اعتماداً على المساعدة التى يتلقونها من إنجلترا، وأخيراً أحكمت قوات ريشلييه الحصار على «لاروشل» ولم تفلح النجدات الإنجليزية للهيجونوت، وبعد أن طال الحصار وحلت المجاعة بالمدينة اضطر المدافعون عنها إلى التسليم فى سنة ١٦٢٨ إلا أن ريشلييه لم يتعنت مع الهيجونوت بعد تسليمهم بل عقد معهم معاهدة جديدة.

«صلح أليه Alais» سنة ١٦٢٩، وبموجب هذه المعاهدة بقى للهيجونوت حريتهم الدينية ولكنهم فقدوا استقلالهم السياسى الذى كان خطراً يهدد الوحدة الفرنسية، ولم يعد لهم الحق فى المدن المحصنة وبذلك أصبحوا مواطنين فرنسيين عاديين ليس لهم أى امتياز سياسى. وصاروا بعد ذلك من أخلص الموالين للملك بعد أن زالت عنهم صفتهم السياسية القديمة.

والتفت ريشلييه بعد ذلك لمشكلة الأشراف تحقيقا لكمال الوحدة الفرنسية، ونجح فعلا فى إضعاف نفوذهم- ولم يعد فى استطاعة نبيل أو شريف أن يتعامل مع الحكومة على قدم المساواة، على أن هؤلاء الأشراف ظلوا على حالهم من حيث الثراء، واستمرار نفوذهم فى إقطاعاتهم، على الرغم من كل الضربات التى وجهت إليهم، معتقدين أن الزمن كفيل باسترجاع كل ما كان لهم من مهابة وسلطان، والغريب فى الأمر أنهم وجدوا من بعض أعضاء الأسرة المالكة حليفاً لهم ضد الملك نفسه.

وفى الوقت نفسه كانت الملكة الأم مارى دى مديتشى تعطف عليهم وتعارض فى انتقاص حقوقهم أو اضطهادهم- لذلك وجد الأشراف فى شقيق الملك جاستون دوق أورليان ساعدا لهم على التآمر لقلب ريشلييه وإقصائه عن منصبه، وكاد أعداؤه ينجحون فى مؤامرتهم إلا أنه انتصر فى النهاية، واضطر جاستون إلى الهرب إلى اللورين، وغادرت مارى دى مديتشى البلاد إلى بروكسل، وهكذا كانت المؤامرات العديدة تدبر لريشلييه وينجو منها ويخرج من كل مأزق أقوى مما كان ويعود إلى مواصلة تحقيق برنامجه فى تحطيم سلطان الأشراف، فهدم كل قلاعهم وحصونهم، ونظم جيشاً نظامياً ثابتاً يركن إليه عند الحاجة، وكان أشد ضربة وجهها إلى الأشراف تعيين حكام للأقاليم من الطبقة الوسطى انتقلت إليهم السلطة التى كانت للأشراف تدريجياً، وتم تعميم هذا النظام بمرسوم وقعه الملك عام ١٦٣٧ فى جميع أقاليم فرنسا، وأصبحت السلطة فى أيدى هؤلاء الحكام [١]، ومنحوا سلطة كاملة حتى كان البعض يصفونهم بأنهم (ملوك الأقاليم) ولكن الواقع أن سلطتهم كانت مستمدة من الملك وفى خدمته ويعتبرون التاج الملكى فوق كل السلطات

ولم يفكر ريشلييه فى العمل على إرساء الحكم النيابى وتدعيمه بل على العكس كان يعمل دائماً على تحطيم أية قوة دستورية تحاول أن تعارض النظام الذى وضعه لفرنسا، ولم تكن المجالس النيابية الفرنسية سوى ظل باهت للحكم الدستورى، لا تستطيع التدخل أو مناقشة التشريعات التى تصدرها الحكومة

أما سياسته الخارجية فكانت كما ذكرنا موجهة إلى القضاء على سيادة آل هبسبرج التى كانت تتمتع بها فى أوروبا- ولا سيما أن السياسة الأسبانية كانت تضرب نطاقاً حول فرنسا من ناحية جبال البرانس، والبحر الأبيض المتوسط، وبرجنديا الحرة، وبلجيكا، وكان بيت هبسبرج النمسوى له مطالب وادعاءات بالسيادة على ألمانيا ووسط أوروبا، وسنحت الفرصة لريشلييه ليزج أسرة هبسبرج فى الحروب الأهلية التى بدأت تظهر إذ ذاك فى ألمانيا، وهى الحروب التى تطورت لتصبح حرب الثلاثين عاماً

---

(١) كان هؤلاء الحكام أو المحافظون يطلق عليهم إسم Inicndanis

الفصـــل الثامن

حرب الثلاثين عاما

١٦١٨ - ١٦٤٨

فشل صلح أجزبرج الذى تم فى عام ١٥٥٥ فى أن يُرضى كل الأطراف، إذ لم يستطع الإمبراطور أن يفرض الكاثوليكية على الشعب الألمانى كله، بل اضطر إلى ترك الحرية لكل حاكم فى ولاية أو أبرشية أن يختار المذهب الذى يروق له ويفرضه على رعاياه

كذلك لم ينصف الصلح أتباع مذهب كلفن بألمانيا، مع أن الكلفنية كانت المذهب الذى اعتنقه الكثيرون من الألمان، وأصبحت المذهب الرسمى لبعض الولايات الألمانية مثل براند نبرج Brandenburg وبلاتين Platine وقصر صلح أجزبرج شروط الصلح على اللوثريين متجاهلاً الكلفنيين كل التجاهل، وترتب على ذلك أن حقد هؤلاء على اللوثريين، ولذلك لم تتقارب وجهات النظر وانقسم الفريقان البروتستيان على أنفسهم، واختلفوا فى تحديد مبادئ البروتستنتية وشعائرها، وذلك فى الوقت الذى انتعش فيه المذهب الكاثوليكى عن طريق الثورة الإصلاحية المضادة، وبالجهود العملية التى بذلها اليسوعيون (الجزويت) مما ساعد على تثبيت دعائم الكاثوليكية فى بولنده، والأراضى المنخفضة الأسبانية وفرنسا، وساد المذهب تماماً فى كل من أسبانيا وإيطاليا، وقد أدى هذا الانتعاش الكاثوليكى إلى بعث الأمل فى احتمال القضاء على البروتستنتية، وعودة ألمانيا إلى كنف الكنيسة الرومانية، والواقع أن صلح أجزبرج لم يكن سوى منح فترة لالتقاط الأنفاس، ولم يكن بطبيعته حلا حاسما للمشكلة الدينية التى عادت إلى التفجر بعد ذلك فى عام ١٦١٨ فى حروب ضارية استمرت ثلاثين عاماً وانتهت بصلح وستفاليا عام ١٦٤٨ .

وقد اختلطت المشكلات الدينية بالدوافع السياسية، فقد كان الإمبراطور الزعيم الطبيعى للكاثوليكية وحامى حماها فى ألمانيا ولكن الأمراء الألمان الذين اختاروا الكاثوليكية مذهباً لولايتهم كانوا يخشون من أن تأييدهم للإمبراطور ضد الأمراء البروتستنت سوف يؤدى إلى تدعيم سلطانه المطلق على الجميع من حكام كاثوليك

وبروتستنت على السواء، ولذلك كان هؤلاء الأمراء الكاثوليك الذين يمقتون البروتستنتية يكرهون أيضاً وجود امبراطور قوى، وهذا يفسر إلى حد كبير التغير الذى كان يطرأ على مواقف بعض هؤلاء الأمراء إبان حرب الثلاثين عاماً.

وثمة مشكلة أخرى أدت إلى تدهور العلاقات بين الكاثوليك والبروتستنت فى ألمانيا، أن أمراء الشمال والجنوب البروتستنت قد تجمعوا أو كونوا «الإتحاد البروتستنتى» سنة ١٦٠٨ ، وفى مقابل ذلك تكون «الحلف الكاثوليكى» سنة ١٦٠٩ فتهيأ بذلك الجو لاندلاع حرب دينية فى ألمانيا، ومن هنا بدأت حرب الثلاثين عاماً وكانت بوهميا أول مسرح دارت عليه تلك الحروب، إلا أنها بعد ذلك انتشرت ولم تعد حروباً دينية فحسب، بل ما لبثت أن أصبحت حرباً دولية بين أمم مختلفة قامت تناهض سيادة آل هبسبرج لحفظ التوازن فى أوروبا.

وقد انقسمت حرب الثلاثين سنة إلى أربع مراحل هى: الحرب البوهيمية (١٦١٨ـ١٦٢٥) والحروب الدنمركية (١٦٢٥ـ١٦٢٩) والحروب السويدية (١٦٣٠ـ١٦٣٥) والحروب السويدية الفرنسية (١٦٣٥ـ١٦٤٨) .

الحرب تبدأ من بوهيميا:

انطلقت أول شرارة للحرب فى بوهيميا والتى كانت معقلا من معاقل البروتستنتية، وقد حدث فى عام ١٦١٨ أن انتخب فرديناند أمير النمسا ومن أسرة هبسبرج امبراطوراً باسم فرديناند الثانى، وكان فى الوقت نفسه ملكا على البوهيميين ومعروفا أنه من غلاة الكاثوليكية وخصما عنيدا للمذهب البروتستنتى، وقد تأكد للبوهيميين مدى الخطر الذى يحيق بهم وبمذهبهم عندما أمر بهدم بعض الكنائس البروتستنتية، فعارضوا وتظلموا، وانتفض الشعب البروتستنتى فى براج واشتدت المقاومة مما أدى إلى قيام حرب بين الأهالى والقوات الكاثوليكية واعتدى الثوار على ثلاثة من رجال الحكومة كانوا مبعوثين من الإمبراطور، وألقوا بهم من نافذة دار البلدية. وكان هذا الاعتداء فاتحة للحرب الطاحنة، حيث سير عليهم فرديناند قواتة لقمع ثورتهم .

ولم يكن في وسع البروتستنت أن يأملوا النجاح في تلك الحرب بغير مساعدة خارجية، فاتجهوا إلى فريدريك حاكم ولاية البالاتين وهو أحد زعماء البروتستنت الكلفنيين فلبى فريدريك دعوتهم وتزعم حركتهم وقبل التاج البوهيمي ولقب فريدريك الخامس واستقدم قوات من الاتحاد البروتستنتي لتحارب في صف القوات البوهيمية، أما الإمبراطور "فرديناند" فقد تلقى عونا ماليا من البابا واستقدم قوات أسبانية من ميلان وقوات كاثوليكية من بافاريا ثم اجتاح بوهيميا بجيش لا يقل عدده عن خمسين ألف مقاتل، ولما التحم الجيشان في موقعة «الجبل الابيض» بالقرب من براغ، لم تستطع قوات فريدريك أن تصمد أمام الهجوم الكبير، وانتصر جيش فريدريك وهرب تاركا قواته لأسوأ مصير، وقد أطلق عليه «ملك الشتاء» لأنه لم يستمتع بتاج بوهيميا إلا في فترة الشتاء، وضرب فرديناند بيد من حديد على أمراء البروتستنت ونفى عددا كبيرا منهم، واستخدم البطش والتنكيل ليرغم المواطنين في بوهيميا على اعتناق الكاثوليكية، وترتب على ذلك هجرة آلاف الأسر البروتستنتية وتدفق اليسوعيون فأنشأوا فيها إرسالياتهم التبشيرية والمدارس، وهكذا بدأت كثلكة بوهيميا من جديد وأخمدت أنفاس البروتستنت في النمسا عندما ثار أهلها انتصاراً لبوهيميا، وأدت النكسة إلى إخلال الاتحاد البروتستنتي في عام ١٦٢١ وانتقال زعامة البروتستنت إلى يد ملك الدنمارك وانتهى الدور الأول من حرب الثلاثين سنة.

الدور الدنماركي (١٦٢٥ ـ ١٦٢٩)

كانت الدنمارك وانجلترا تتتبّعان سير الحروب البوهيمية بكل قلق واهتمام، وكان كريستيان الرابع ملك الدنمارك ـ وكان في الوقت نفسه دوقا لإمارة هولشتين وهي ولاية تابعة للإمبراطورية الرومانية المقدسة ـ وله أهداف سياسية إلى جانب تعصبه المذهبي، فقد كان يأمل في الاستيلاء على بعض الأبشريات ويكونها مملكة باسم ولده، وقد دخل الحرب معتمدا على تحالفه مع انجلترا وزعماء ألمانيا، وعلى ما بذله له الوزير الفرنسي ريشيلييه من وعود بالمساعدة .

وهكذا بدأت المرحلة الثانية من حرب الثلاثين عاما، ورأى الإمبراطور أن البروتستنت فى هذه المرة أكثر قوة وأشد مرساً، فاستعان بأعظم قوات ألمانيا فى ذلك العصر «والنشتين Wallentien» دوق فريدلند، المعروف بمقدرته على جمع الجند المرتزقة من مختلف جنسيات أوروبا وهم الذين يعيشون على كسب المواقع توطئة للسلب والنهب. واشترط «والنشتين» أن تكون القيادة العليا له وحده رغم أن لقوات الإمبراطور قائداً قديراً هو تلى إلا أن الإمبراطور كان مضطراً لقبول شروط والنشتين لكسب المعركة ضد البروتستنت.

وما لبث أن استطاع والنشتين ومن معه من قواد الإمبراطورية من هزيمة ملك الدنمرك وطرد قواته من الأراضى الألمانية واحتلال معظم الأراضى الدنمركية نفسها، وحاول والنشتين بعد ذلك المزيد من التوسع نحو الساحل لتقوية دفاعه ضد أى غزو محتمل من جانب السويد وفى الوقت نفسه يستغل موارد الموانى بفرض الضرائب فيها لإعالة جيشه والإنفاق على مطالب المرتزقة من قواته، وقد رفضت ميناء سترالسند Stralsand الإذعان لما فرضه عليها واستعدت للدفاع عن نفسها فحاصرها لمدة خمسة أشهر خلال عام ١٦٢٨ ولكنها قاومته واستبسلت فى الدفاع، وساعدها أن حصارها كان بريا فقط أما البحر فكان مفتوحاً لمدها بالمساعدات عن طريق الأسطولين الدنمركى والسويدى، ولما يئس والنشتين اضطر إلى رفع الحصار عنها، وعلى أثر ذلك أدرك كل من الإمبراطور، وكرستيان ملك الدنمرك أنه لا مفر من الاتفاق ولا سيما أن الأخير يئس من وصول أية مساعدة فعالة من إنجلترا التى وعده بها ملكها شارل الأول، أما الإمبراطور فرأى أن يسارع بعقد اتفاق قبل أن يدخل ملك السويد الحرب فى صف البروتستنت.

وعلى ذلك تم صلح لوبك Lubeck سنة ١٦٢٩ على أن يتنازل كرستيان عن كل ما يدعيه فى الأسقفيات الألمانية على شرط أن يسترد أملاكه الوراثية وهى هولشتين وشلزويج وجتلند.

وبذلك قوى مركز الإمبراطور وشعر البروتستنت أنهم أصبحوا تحت رحمة الكاثوليك الذين صمموا من جانبهم على انتهاز الفرصة لتدعيم مركزهم، فحرضوا الإمبراطور فرديناند على إصدار «مرسوم الاعادة» Edict of Restitution خول فيه للكنيسة الرومانية استرجاع كل الأملاك التى انتزعت منها منذ معاهدة أخزبرج عام ١٥٥٥، وقد روع هذا المرسوم جميع البروتستنت لا فى ألمانيا فحسب بل أفزع أيضاً البروتستنت فى كل أوروبا، وخصوصا حكام الدول التى تخشى أطماع الامبراطور وأحلامه فى إنشاء حكومة ملكية من آل هبسبرج تمد سلطانها إلى أوروبا بأسرها.

وكان من بين من أوجسوا من نواياه خيفة، الفرنسيون والسويديون، وكان المسيطر على السياسة الفرنسية حينذاك ريشلييه ولكنه لم يكن فى ذلك الحين فى وضع يمكنه من التفرغ لمناهضة الإمبراطور، إذ كان لا يزال مشغولا بكسر شوكة أشراف فرنسا من جهة وقمع حركة الهيجونوت من جهة أخرى ولذلك اكتفى بتأييد المغامرة التى قام بها جستاف أدولف ملك السويد، وأمده بالمال، وفى الوقت نفسه أجرى اتصالات مع بعض الولايات الكاثوليكية الألمانية لإثارتهم ضد الإمبراطور مستغلا المخاوف التى تراودهم تجاه عزم الامبراطور على أن تكون السلطة الألمانية مركزة كلها فى يده.

الدور السويدى (١٦٣٠-١٦٣٥)،

كان جوستاف أدولف Custavus Adolvus ملك السويد من أعظم القواد الأوروبيين فى القرن السابع عشر، وحاكماً قديراً استطاع جمع الشعب السويدى تحت لوائه وتكوين جيش جهزه بأحدث الأسلحة ودربه على أيدى خبراء من الهولنديين العسكريين.

وقد دفعه إلى القيام بمغامرته الحربية ضد الإمبراطورية حماسته الدينية وغيرته على طائفة البروتستنت الذين كانوا يعيشون فى مأساة كبرى عقب هزيمتهم فى ألمانيا، وفى الوقت نفسه كانت سياسته تهدف إلى حماية بحر البلطيق والسيطرة عليه حيث كانت الممتلكات السويدية تمتد على ساحله الشرقى، وكان يعتقد أن انتصار الإمبراطور فى ألمانيا على البروتستنت قد يدفعه إلى القيام بمغامرة حربية ضد دولة السويد البروتستنتية فى شمال ألمانيا، وأخيراً فقد كانت تخامره فكرة يحلم بتحقيقها وهى أن انتصاره على الإمبراطور يؤدى إلى استيلاء السويد على شريط من الأرض على الساحل الشمالى لألمانيا وعندئذ يصبح بحر البلطيق بحيرة سويدية.

نزل جوستاف بقواته فى ألمانيا فى يونيه ١٦٣٠، وتعلقت به آمال البروتستنت فى كل مكان، واعتقد أن أمراء الولايات البروتستنتية سوف يسارعون للإنضمام إليه، إلا أن أمير سكونيا وأمير براندنبرج رفضا التعاون معه وخيبا أمله فيهما.

وتقدم جوستاف من پوميرانيا لنجدة «مجدبرج Magdeburg» التى كان يحاصرها القائد الإمبراطورى تلى لينزعها من يد الإمبراطور تطبيقا لمرسوم «الإعادة»، وهنا رفض أمير سكونيا وبراندنبرج السماح لقوات جوستاف بالمرور عبر ولايتيهما للوصول الى «مجدبرج»، وكانت النتيجة أن اكتسحتها قوات الإمبراطور قبل أن ينقذها الجيش السويدى وارتكب الفاتحون أكبر مجزرة فى التاريخ، حيث ذبحوا بوحشية ما لا يقل عن عشرين ألفا من سكانها من رجال ونساء ثم أشعلوا الحرائق فى المدينة، وزهوا بالنصر الذى حازه القائد تلى تقدم لغزو سكسونيا، وبدأ بمطالبة أميرها أن ينزع سلاح جيشه وعندما أدرك الأمير خطأه بعدم التعاون مع السويد، لم يعد أمامه إلا أن يستنجد به وتعهد له بأن يكون حليفا مخلصا، وتبع ذلك انضمام أمير برانبرج للمعركة.

وقام جوستاف بمعاونة حليفيه بالتقدم نحو «ليبزج» Liepzig التى احتلتها قوات تلى. وتقابل الجيشان عند ضاحية بريتفلد Breitenfeld بالقرب من ليبزج وهنا ظهرت مقدرة جوستاف الحربية وكفاءة جيوشه المدربة، وانهزم أمامه قواد الامبراطور وتم قتل وأسر عشرات الآلاف من جنود الإمبراطورية.

وشرع جوستاف بعد ذلك فى التقدم نحو الغرب فى الأراضى الألمانية مستوليا على عدة مدن، وحاول تلى أن يقاوم الهجوم السويدى والتحم مع جوستاف فى موقعة على نهر « لخ Lech » أحد روافد نهر الدانوب جرح فيها القائد تلى جرحا مميتا لم يمهله أكثر من أسبوعين واضطرت جيوشه إلى التقهقر تاركين السبيل مفتوحا أمام جوستاف ليتقدم نحو ميونخ عاصمة بافاريا.

وارتاع الإمبراطور فرديناند وخصوصا أن جيش ملك السويد كان يزداد عددا وقوة بانضمام الكثيرين من الألمان إليه وكان الحل الوحيد أمامه أن يستدعى من جديد القائد والنشتين [1]، الذى أصر على أن يكون من جديد صاحب الكلمة الأولى على جيوشه وأن يترك له التصرف فى البلاد التى يدخلها والغنائم التى تستولى عليها قواته، وأن يلغى مرسوم «الاعادة» الذى قال عنه والنشتين أنه ينافى مبادئه ومبادئ جيشه فى التسامح الدينى، فلم ير فرديناند بُدا من الرضوخ لتلك الشروط رغم ما فيها من مساس بهيبته وكرامته.

وسرعان ما جمع والنشتين حوله، وفى مدة وجيزة، جيشا بلغ ستين ألفا، وسار به عبر سكسونيا لمقابلة عدوه ــ وكان جوستاف قد بعد كثيرا عن بلاده داخل ألمانيا واتخذ «نورمبرج » مقرا لعملياته الحربية، وعندما هاجمه والنشتين اضطر إلى التقهقر، وعند لوتزن Lutzen (١٦٣٢) التقى الجيشان فى موقعة عنيفة تشتت أثناءها جيش والنشتين وهزم هزيمة ساحقة، إلا أن الجيش السويدى فقد مَلِكَهُ أثناء المعركة فقد جُرِح جُرحا مميتا ثم أجهز عليه الأعداء.

وأما والنشتين فقد تراجع إلى بوهيميا ليحاول جمع فلول جيشه المنهزم، وأخذ بعد ذلك يعيد تنظيمه وتدريبه، ومع أنه خرج من الموقعة الأخيرة مهزوما إلا أنه كان لا يزال مزهوا بقوته، وبأنه صاحب الكلمة العليا فى ألمانيا، ثم فكر فى إرغام

---

(١) كان الإمبراطور قد عزل والنشتين من القيادة العامة للجيش بناء على تظلم المواطنين من عبث جنوده المرتزقة، ولصلفه وكبريائه وتحريض الأمراء للإمبراطور ضده.

الإمبراطور والسويد على عقد صلح يضع هو شروطه، وشرع يفاوض الوصى على عرش السويد سرا، وغضب الإمبراطور من تصرفات والنشتين فقرر عزله من قيادة الجيش واتهمه بالاتصال بالعدو، وأباح قتله، وقد تبع هذا مصرع والنشتين على يد جندى أيرلندى طمعا فى المكافأة، وتولى قيادة الجيش فرديناند ابن الإمبراطور ـ وكان ملكا على المجر ـ فتقدم نحو بافاريا وحاصر نوردلنجن Nordlingen وهناك انهزم السويديون هزيمة ساحقة، ونتج عن الهزيمة خروج سكسونيا من الحرب وعقدت صلحا منفردا مع الامبراطور (مايو ١٦٣٥)، وحذت حذوها الولايات البروتستنتية الألمانية الأخرى وسحبت تأييدها للتدخل السويدى، ومقابل ذلك ألغى الإمبراطور معظم بنود مرسوم «الإعادة» لتهدئة روع البروتستنت وتأمينهم على حياتهم الاقتصادية، هكذا تخلى الألمان البروتستنت عن مساعدة من جاءوا لمساعدتهم، وتهيأ الجو للتقارب بين الولايات الألمانيا، حتى بدت الحروب الدينية الداخلية على وشك الانتهاء، وفى حين كانت حرب الثلاثين عاما لا تزال مشتعلة لأن فرنسا ـ وعلى رأس سياسييها ريشيلييه ـ قررت بعد الهزيمة السويدية أن تلبى طلب الوصى على عرش السويد بالتدخل، وأصبح دور فرنسا فى حرب الثلاثين سنة إيجابيا بعد أن ظل سلبيا عدة سنين.

الدور الفرنسى السويدى ١٦٣٥ ـ ١٦٤٨:

بعد أن كانت فرنسا تكتفى بمد يد المساعدة المالية للسويد، قرر ريشلييه أن يرسل إلى الميدان جيشا فرنسيا لمهاجمة جيش الإمبراطور فى الجبهة الغربية، وفى الوقت نفسه أعلن الحرب على أسبانيا التى يحكمها الفرع الثانى لأسرة هبسبرج.

وهكذا دخلت حرب الثلاثين سنة فى دورها الأخير والحاسم، يشترك فيها الفرنسيون إلى جانب السويديين على الأرض الألمانية، ولم يعد الخلاف الدينى هو الدافع لهذه ا حرب، فقد كان غزاة ألمانيا هذه المرة يتألفون من كلا المذهبين، البروتستنتى والكاثوليكى، وعلى الرغم من أن ريشلييه كان كردينالا كاثوليكيا تابعا

للكنيسة الرومانية، إلا أنه بدوافع سياسية أظهر نواياه علانية فى الحرب إلى جانب البروتستنت الألمان، وصارت الحرب دولية ذات أهداف سياسية بعيدة، حاول ريشلييه أثناءها أن يضم إلى جانبه جميع أعداء أسرة هبسبرج ممن يستطيعون القيام بالعون الحربى الفعال، وعلى الأخص ضد الفرع الأسبانى العدو الأول لفرنسا، وكان هدفه الأول إضعاف سيطرة أسبانيا على الأرض المنخفضة الأسبانية لأن الوجود الأسبانى فى تلك البلاد يعتبر تهديدا دائما للعاصمة الفرنسية، وفى ذلك العام نفسه ١٦٣٥ الذى قرر فيه دخول الحرب إلى جانب السويد عقد تحالفا آخر مع الهولنديين الثائرين الذى جددوا حرب الاستقلال بعد أن انتهت هدنة الاثنى عشر عاما منذ عام ١٦٢١ – وهكذا كانت حرب الثلاثين عاما في دورها الأخير صراعا على السيادة بين آل بوربون وآل هبسبرج بفرعيهم الألمانى والأسبانى.

أعد ريشلييه خطة الحرب، بأن يزحف الجيش الفرنسى عبر الراين، ويزحف الجيش السويدى من قواعده على بحر البلطيق جنوبا داخل الأراضى الألمانية حتى يجد الإمبراطور نفسه محصورا بين قوتين عاتيتين، ومع ذلك فقد صمم الإمبراطور على المقاومة المستميتة رغم ضعف التأييد الذى كان يلقاه من شعبه ومن الأمراء الألمان، واستطاع فعلا فى بادئ الأمر أن ينتصر فى عدة مواقع، إلا أن توالى الهجمات التى كانت يقوم بها الفرنسيون والسويديون أثقلت كاهله وبعثت اليأس فى نفسه، بينما كان الشعب الألمانى يعانى أقسى ضروب الذل والهوان فقد تحولت بعض المدن والقرى إلى أنقاض وتحطمت الحياة الزراعية وانتشرت المجاعة فى البلاد وتفشت على أثرها الأوبئة والطاعون.

وبتوالى الكوارث والهزائم، اضطر الإمبراطور إلى أن يجنح للسلم فقد كانت الجيوش الفرنسية تزداد والنصر يحالفها فى كل المعارك تحت قيادة الأمير «كنديه» Conde والقائد الكبير تورين Turenne ، بينما الجيوش السويدية من جانبها منتصرة على طول الخط.

وأدرك الإمبراطور سوء المصير، ولكنه لم يدرك نهاية الحرب فقد أدركته المنية عام ١٦٣٧ ، وخلفه على العرش ابنه فرديناند الثالث (١٦٣٧ – ١٦٥٧) الذى

شهد عهده هزيمة ألمانيا النهائية مما اضطره إلى الدخول فى مفاوضات صلح مع أعدائه المنتصرين وأفضت المفاوضات فى النهاية إلى عقد معاهدة وستفاليا عام ١٦٤٨.

صلح وستفاليا ١٦٤٨:

ابتدأت محادثات الصلح فى مقاطعة وستفاليا الواقعة فى حوض الرين الأسفل فى المدينتين مونستر[١] Munster وأسنابروك Osnabruck وطالبت فرنسا والسويد باشتراك الولايات الألمانية فى المفاوضات، كل منها على انفراد بقصد تفتيت القوى، ورغم مقاومة الإمبراطور لتلك الفكرة إلا أنه لم يستطع فرض إرادته، وازدحمت وستفاليا بمئات الدبلوماسيين والمفاوضين من الامبراطورية وممثلى الولايات المتحدة وحضره كذلك مندوب عن البابا وبذلك أصبح مؤتمرا أوروبيا يمثل كافة الاتجاهات، وكانت المفاوضات المبدئية تجرى بينما كانت الجيوش لا تزال تقاتل فى الميدان ولذلك كانت الشروط التى يعرضها كل فريق تتغير وتتبدل بعد كل معركة، ونتج عن ذلك أن تعثرت المفاوضات فى البداية، ثم استقامت بعد ذلك بالشروط التى اتفقت عليها الأطراف المعنية جميعا وتتلخص أهم شروطها فيما يلى:

أولا: يتمتع اتباع لوثر وكلفن على السواء بالحرية الدينية فى جميع أنحاء الامبراطورية وأن يحتفظ الكاثوليك والبروتستنت بما كان فى أيديهم من أملاك الكنيسة منذ عام ١٦٢٤ مع الاحترام الكامل لشروط صلح أجزبرج (سنه ١٥٥٥)، وأن ليس لأمير الحق فى إجبار رعاياه على اتباع المذهب الذى يروق للأمير.

ثانيا: أن تحتفظ بافاريا بالبلاتين العليا Upper Platinate . وبذلك اتسعت مساحتها مما جعل لها الزعامة على الولايات الألمانية الجنوبية، وأعيدت البلاتين السفلى إلى ابن فردريك، ملك بوهيميا السابق.

(١) استخدمت مونستر مقرا للمفاوضين الفرنسيين والولايات الكاثوليكية، وأما اسنابروك فكانت مقرا للسويديين والولايات البروتستنتية.

ثالثا: أن يبقى في يد فرنسا هتز، وتول، وفردان Vardun[1]، وتضم معظم الالزاس ما عدا مدينة ستر السبورج الحرة وبذلك أصبح لفرنسا السيطرة على أعالى الراين.

رابعا: تستولى السويد على النصف الغربي لبوميرانيا، وعلى أسقفيتى بريمن Bremen وفردن Varden وبضم هذه الأملاك إلى السويد أصبحت تتحكم في مصبات الأنهار الإمبراطورية التي أصبحت تحت رحمة دولة غير ألمانية، وسيطر السويديون بذلك على أنهار الأودر والألب والوزر Weser.

خامسا: أن تستولى براندنبرج Brandenburg الواقعة في قلب الإمبراطورية على بوميرانيا الشرقية ومعظم مجد بورج وعدة أسقفيات أخرى مجاورة، وانتقلت زعامة البروتستنت بهذا الاتساع من أمير سكسونيا إلى أمير براندنبرج.

سادسا: الاعتراف رسميا باستقلال هولندا وسويسرة.

أثر الحرب في ألمانيا:

تركت الحرب أثرا سيئا في الإمبراطورية إذ انسلخت عنها كثير من الولايات التي تشكل حدودها، فلم تعد هولنده وسويسرة تابعتين للإمبراطور وانقسمت ألمانيا إلى ما يزيد على مائتي ولاية، وأصبح كل أمير يدعى استقلاله في ولايته وضاعت هيبة الإمبراطور وبذلك فشلت الجهود التي بذلها الأباطرة للسيطرة على سائر ولايات الإمبراطورية، وقد أظهر صلح وستفاليا أن الامبراطورية لم يكن لها كيان الإمبراطوريات الموحدة ولم تعد سوى اتحاد ضعيف بين حكومات منها الكبير والصغير، ولم تعد هناك سلطة مركزية تستطيع سن القوانين وتجنيد الجيوش وفرض الضرائب، وسنحت الفرصة - ما بين حين وآخر - لقادة آخرين يتزعمون ألمانيا وتتمثل هذه الظاهرة في حكام براندنبرج الذى أصبحوا بعد ملوك بروسيا.

---

(١) كانت فرنسا مستولية عليها منذ عام ١٥٥٢

وأخيرا فإن صلح وستفاليا كان نهاية للعصر الذى أطلق عليه فى التاريخ عصر الإصلاح الدينى فقد أصبح الوضع الدينى واضحا، فقد قضى على أمل المصلحين الأوائل فى تحطيم الكاثوليكية الرومانية التى تتبع روما، وكذلك فشلت حركة الثورة الإصلاحية المضادة فى إعادة الولاء المطلق للبابا وكنيسة روما، ومن ثم كان لابد من بقاء المذهبين ـ الكاثوليكى والبروتستنتى ـ وتعايشهما جنبا إلى جنب فى أوروبا، وساد فى أوروبا مبدأ التسامح الدينى الذى فرضته الدول التقدمية على رعاياها.

الفصل التاسع

عصر التفوق الفرنسي
(لويس الرابع عشر)

مزران:

نجح ريشليه فى تنفيذ الخطة التى وضعها لتحقيق التفوق السياسى لفرنسا فى أوروبا، ورفع شأن التاج الفرنسى فى الداخل والخارج، واقتضت تلك الخطة صراعا مريرا مع أسبانيا والنمسا فى الخارج، وصراعا داخليا مع الأشراف لنزع السلطة من أيديهم ونقلها كلها إلى يد الملك، وبذلك خلص الملكية من القيود التى كبلتها قرونا عديدة وأصبحت مطلقة السلطة، كذلك أقحم فرنسا فى حرب الثلاثين سنة وجنى منها لفرنسا مكاسب سجلتها معاهدة وستفاليا عام ١٦٤٨.

ومات ريشليه، ثم مات بعده بشهور قليلة مليكه لويس الثالث عشر عام ١٦٤٣، تاركا العرش لابنه الصغير، لويس الرابع عشر، وكان طفلا فى الخامسة من عمره، وتولت الوصاية عليه أمه الملكة آن النمسوية، وفى الوقت نفسه كانت رئاسة الوزارة من نصيب الكردينال مزران Mazarin الذى تدرب على شئون الحكم فى رعاية سلفه ريشليه، وتبنى سياسته وخططه خطوة خطوة، مسترشدا بالمبادئ التى وضعها لتأييد سلطة الملكية المطلقة، وأحرز التفوق الدولى فى الخارج. لم يكن مزران فرنسى الأصل فقد ولد بإيطاليا، وشب لا يعرف الشىء الكثير عن البيئة الفرنسية وطبائع الفرنسيين، ومع أنه لم تكن له شخصية ريشليه الحاسمة فى معالجة الشئون الداخلية إلا أنه فى الشئون الخارجية لم يكن أقل من سلفه مهارة وبصيرة، ولذلك نجح نجاحا باهرا فى تسيير السياسة الخارجية لفرنسا.

كان لويس الرابع عشر دون الخامسة، ولذلك طالت مدة الوصاية عليه، إلا أن الوصية على العرش، الملكة الوالدة آن، رأت أن تضع كل ثقتها فى مزران. وأيدت سياسته تأييدا كاملا، حتى شك عدد كبير من الأشراف فى علاقتها به وظنوه قد تزوجها سرا، ولذلك كانوا حانقين عليه، واتهموه بأنه (رجل أجنبى منافق متملق ومخادع)، وكرهوا أن يسيطر مثل هذا الرجل على شئون الدولة، ومع أنه سار على سياسة ريشليه الا أنه اتبع وسائل أخرى فى تنفيذها، لم تعجب امراء البيت المالك والنبلاء وبرلمان باريس وعامة الشعب، حتى قيل فيه «ظهر الثعلب بعد اختفاء الأسد» وذلك بسبب ما كان الجميع يلاحظونه من تباين فى أخلاق ريشلييه ومزران: أحدهما يعتمد على الحزم والشدة والثانى يعتمد على الخداع.

وقد اشتد السخط على حكومة مزران بسبب الضرائب التى فرضت لتمويل الحرب العديدة التى خاضتها فرنسا وخصوصا الحرب الألمانية والحرب الأسبانية التى استمرت أحد عشر عاما بعد صلح وستفاليا.

والواقع أن صلح وستفاليا كان أكبر نصر حازه مزران، ولكنه على أى حال لم يكسبه التأييد المنشود من الرأى العام الفرنسى بل على العكس، ما انتهت فرنسا من الحروب التى اشتركت فيها أثناء حرب الثلاثين سنه حتى هبت العناصر المعارضة للحكومة والساخطة على سياسة مزران تبذل جهدها لمقاومة نظام الحكم، ومن ثم ثارت قلاقل داخلية عرفت «بحرب الفروند» [1].

حرب الفروند ١٦٤٨ـ ١٦٥١

وقد ثارت القلاقل لأسباب ثلاثة: كراهية البلاد لمزران وطموح الأشراف إلى استرجاع نفوذهم، واستياء بعض الطبقات من النظام الاستبدادى الذى وضع أساسه رشيلييه.

---

(١) الفروند كلمة فرنسية معناها المقلاع، وهو السلاح الذى يستعمله الأطفال فى شوارع باريس فى ذلك الحين. وقد سميت بهذا الاسم ازدراء واستخفافا بها.

وقد كانت فرنسا إذ ذاك ترزح تحت أعباء اقتصادية ثقيلة بسبب الحروب الداخلية والخارجية التى خاضتها وترتب عليها التزام الحكومة بفرض ضرائب فادحة استحدثت فى عهد ريشلييه ومزران، وفى الوقت نفسه رأى الأشراف أن الفرصة سانحة لطرد مزران بعد أن خلصهم الموت من غريمهم السابق ريشلييه، ولذلك قامت سلسلة من الحروب التى كانت من أشد الحروب الداخلية تعقيدا، لأنها قامت على أسباب متناقضة ومصالح متباينة وقد فشلت بسبب ذلك التناقض والتباين.

وقد بدأت تلك الحروب بعد صلح وستفاليا مباشرة، وكان الملك لا يزال طفلا، والأمر كله بيد مزران، وكان الشرارة الأولى يوم رفض برلمان باريس. وكان البرلمان أشبه بمحكمة عليا، وكل المراسيم التى يصدرها الملك لا يعمل بها إلا بعد تسجيلها فيه، ولكن من حق برلمانات فرنسا أن تسن القوانين، وإذا حدث أن رفض البرلمان تسجيل أى مرسوم، كان للملك بمقتضى الحق المسمى «سرير العدل» أن يظهر أمام البرلمان ويأمر بتسجيله.

وكانت ثورة الفرونديين عقيمة عير ناضجة. قادتها عناصر غير مهيأة للزعامة من أعضاء البرلمان وغيرهم من الأشراف، وقد بدأت بتأليف لجنه للدفاع عن حقوق البرلمان الدستورية تعمل على أن يكون له الحق فى مراقبة الضرائب التى تفرض على البلاد، وحماية حرية الفرد بحيث إذا ألقت الحكومة القبض على أى شخص فيجب تقديمه إلى المحاكمة فى خلال أربع وعشرين ساعة.

ورأت الحكومة خطورة الموقف فقررت استعمال العنف فى قمع تلك الحركة، ووضعت قيادة القوات المسلحة التى أمرت بمحاصرة باريس فى يد القائد المعروف «كنديه» واندلعت الحرب بين الحكومة والبرلمان ونشب القتال فى باريس، وحاول الأشراف مد الثورة إلى الأقاليم وأخذوا يطوفون البلاد فى جماعات مسلحة ومعهم من انضم إليهم من الجند العاطلين المسرحين بعد صلح وستفاليا، وفى محاولة يائسة استنجدوا بالقوات الأسبانية على الرغم من أن فرنسا نفسها كانت لا تزال فى حرب مع أسبانيا، وتنبهت الطبقة الوسطى (البورجوازية) إلى خطر هذه الفئة من الأشراف فحسب ممثلوها فى البرلمان تأييدهم لأولئك الثائرين، وتبين عندئذ أن الطبقة

البورجوازية والطبقة الارستقراطية لم يستطيعا العمل المشترك، وتبين للشعب أن طبقة الأشراف تعمل لمصلحتها الخاصة لا لمصلحة فرنسا ولا تتورع فى سبيل ذلك عن الاتصال بأعداء البلاد، وأن هؤلاء الفرونديين الثائرين لم يضعوا منهجا صالحا ولا خطة بناءة، وإنما كانت مصلحتهم فى كسب السلطة وإقصاء مزران عن الحكم، ولعل ظهور هذه الحقيقة من الأسباب القوية التى جعلت الطبقة البورجوازية وطبقة الفلاحين تفضل تقوية سلطة الملك وجعلها فوق كل السلطات.

ولذلك انتهت حرب الفروند التى استمرت خمس سنوات (١٦٤٨-١٦٥٣) بانتصار مزران وتدعيم سلطان الملكية، وكانت حرب الفروند آخر محاولة من الأشراف للثورة على التاج، ولكنهم أخيرا رضخوا للأمر الواقع الذى تمثل فى ضياع سلطانهم كطبقة مميزة لها حقوق لا ينازعها فيها أحد، إلا أنهم على كل حال ظلوا محتفظين ببعض الامتيازات كالإعفاء من دفع الضرائب واحتكار بعض الوظائف الهامة، ولم يجدوا بُدا من الخضوع للملك والالتفاف حول عرشه، ولم يخل بلاط الملك بعد ذلك من عدد منهم لعبوا دورا هاما فى توجيه السياسة الفرنسية.

الحرب بين فرنسا وأسبانيا:

وفى غضون تلك الحروب الداخلية، كانت فرنسا لا تزال فى حرب مع أسبانيا، واضطرت فرنسا تحت انشغالها داخليا أن تقف موقف الدفاع أمام الأسبان ولذلك استطاعت أسبانيا أن تسترد بعض ما فقدته فى الحرب، ولكن عندما انتهت حرب الفروند، دفع مزران بالقوات الفرنسية إلى ميدان الحرب فى الأراضى المنخفضة وانهزمت أسبانيا هزائم منكرة اضطرت بعدها إلى طلب الصلح، وفى عام ١٦٥٩ ابتدأت مفاوضات الصلح ووقع الطرفان « معاهدة البرانس Pyenees» التى كانت نذيرا بانتهاء التفوق الأسبانى، وبداية للتفوق الفرنسى ، وكان من أهم شروطها أن تستولى فرنسا على أرتوا Artois بالقرب من الأراضى المنخفضة الأسبانية، وعلى

روسيون Roussilon الواقعة على منحدرات جبال البرانس، ومن شروط المعاهدة أن يتزوج لويس الرابع عشر « مارى تريزا » ابنة ملك أسبانيا فيليب الرابع وقد اعترف لويس فى المعاهدة بأن هذا الزواج لا يترتب عليه أى حق فى وراثة عرش أسبانيا.

وكانت معاهدة البرانس ختام المنجزات التى تمت على يد مزران ولم يطل أجله بعد ذلك إذ مات سنه ١٦٦١، وكان لويس عندئذ فى الثالثة والعشرين من عمره.

عصر لويس الرابع عشر

تولى لويس الرابع عشر مقاليد الأمور بنفسه فى فرنسا، عازما على أن ينفرد بالسلطان ولا يترك المجال لوزير أو صاحب حظوة لتوجيه شئون الدولة مستقلا عن الملك، ولقد عبر عن سياسته هذه تعبيرا عميقا عندما كان يردد بفخر واعتزاز: «الدولة أنا L'etat S'est moi ولم يكن لويس الرابع عشر يمتاز بقدرة خارقة فى الحرب والسياسة، ولكنه كان قوى الشكيمة، جم النشاط، حريصا على حفظ مكانة الملك وإضفاء الهيبة والجلال والأبهة على العرش، وقد حكم فرنسا نحو أربع وخمسين سنة بعزم خارق وكفاءة نادرة لم توجد فى غيره من ملوك عصره، وساعده الحظ بوجود نخبة من الرجال ذوى القدرة الفائقة يعملون فى خدمته، فكان يدير مالية البلاد «كلبير» أعظم اقتصادى فى عصره و«تورين» القائد المحنك و«كونديه» أعظم قائد للفرسان، وغيرهم ممن أخلصوا فى خدمته وخدمة فرنسا، ولذلك أحرز من النجاح فى الداخل والخارج ما لم ينله ريشليه ومزران حتى لقب «بالملك الأعظم Legrand Monarque» وكان لويس مغرما بأبهة الملك ومظاهر العظمة. بنى لنفسه مدينة جديدة فى ضاحية فرساى القديمة التى تبعد عشرة أميال من باريس. وبنى فيها قصر فرساى الذى كان من أجمل ما شيده ملوك أوروبا فقد كان نموذجا فنيا جمع فيه كل ما يبهر الأعين ويضم بين جدرانه كل مظاهر التأنق وروائع الفن وقد زين بالمرايا الصقلية والثريات المتوهجة وامتلأ بالأثاث الأنيق الفاخر

وكان القصر كعبة القصاد من العلماء والأدباء ورجال السياسة والفكر أمثال «راسين» و «موليير» و «ديكارت» و «بسكال» وغيرهم من أعاظم الكتاب والأدباء والفلاسفة في عهده، ودعا لويس طبقة الأشراف للسكنى في فرساى ليبعدهم عن الحياة العامة في المدينة.

كولبير Colbert :

وكانت الفترة الأولى من حكمه فترة إصلاح على يد وزرائه ورجاله العاملين في خدمته وعلى رأسهم وزير المالية كولبير، الذى نشأ في ظل مزران وتدرب على يدية ثم عين وزيرا في عام ١٦٦١، وكان أول ما فكر فيه أن يعيد الحالة المالية إلى سيرتها الأولى ويخلص البلاد من حالة الارتباك والفوضى الاقتصادية التى كانت تعانيها منذ نصف قرن، وكان شعاره « أن عظمة فرنسا إنما تتوقف على ثروتها وأن ثروتها تتوقف على العمل، وأن قوة الأمة لا تقوم بالأزياء البراقة، وإنما تقوم بالصناعة والتجارة والزراعة والخدمات التى تؤديها كل طبقات المجتمع » ولذلك وضع لمالية البلاد خطة إصلاحية حازمة تؤدى إلى زيادة الثروة القومية عن طريق تنظيم الضرائب وتنمية الموارد الزراعية والصناعية والتجارية.

وقد وجد نظام الضرائب في فرنسا جائرا ولا تستفيد منه الدولة بقدر ما يستفيد الموظفون وجباة الضرائب، فالضرائب المباشرة تنتقل في أيدى عدد كبير من الموظفين كان معظمهم من المختلسين، أما الضرائب غير المباشرة فكان يجمعها ملتزمون مدينون يستفيدون منها بربح إضافى فلا يعود على الدولة إلا مبالغ أقل كثيرا مما يجمع من دافعى الضرائب، ولكن النظام الذى وضع «كولبير» ضيق الخناق على المختلسين وضبط موارد الحكومة من جباية الضرائب فزادت مالية الدولة ملايين الجنيهات رغم أنه خفض الضرائب المفروضة على الفلاحين إلى النصف بغرض تحسين أحوالهم واستعاض عن ذلك بفرض ضريبة على المواد الكمالية، ثم وجه اهتمامه إلى تنمية محصولات البلاد وصناعاتها وحمايتها من المنافسة الأجنبية وذلك بفرض رسوم على المنتجات المستوردة وتشجيع تصدير المنتجات الفرنسية بإعفائها من

المكوس لإعطاء الفرصة للمصنوعات الدقيقة التى تشتهر بها فرنسا لتغمر أسواق العالم كالمصنوعات الحريرية والدنتله والزجاج والحرير والمزوركشات والأثاث ـ وفى الوقت نفسه منح ذوى الصناعات الحرفية مساعدات مالية تعينهم على مضاعفة إنتاجهم، ورغبة منه فى تسهيل النقل أدخل تحسينات كثيرة على وسائل المواصلات بإنشاء الطرق وشق الترع والقنوات. ثم أبدى اهتماما خاصا بالاستعمار فيما وراء البحار وأسس شركة الهند الشرقية الفرنسية، وكانت أحلامه الاستعمارية واسعة، حتى أنه كان يأمل فى أن تصبح مصر تابعة لفرنسا وأن تقوم فرنسا بحفر قناة السويس وتستولى على قواعد بحرية فى طريق الهند والشرق الأقصى.

ومع كل هذه الجهود الجبارة التى بذلها كولبير فى سبيل إصلاح مالية البلاد إلا أن حروب لويس الرابع عشر وأحلامه التوسعية كانت تحتاج إلى أموال أكثر مما جمعه كولبير وخصوصا أن مفاسد النظام المالى فى فرنسا كانت عميقة الجذور بحيث لم يستطع كولبير محوها جميعا، فبقى امتياز الاشراف فى إعفائهم من الضرائب، وبقى نظام الالتزام الذى يحتكره (جباة الضرائب) وابتلعت حروب الملك ومظاهر البلاط كل ما كان يدخل خزانة الدولة من أموال، فقد كانت مطامعه متشعبة، وترمى إلى توسيع ملكه فى أوروبا وخاصة على حساب الممتلكات الأسبانية.

حروب لويس الرابع عشر:

- حرب الوراثة فى الأراضى المنخفضة (١٦٦٧ـ ١٦٦٨).

ظل النزاع بين الأسرة المالكة فى فرنسا وبين أسرة هبسبرج قائما مدة قرن من الزمان، وقد استطاعت فرنسا الانتصار على فرع هذه الأسرة النمسوى فى صلح وستفاليا، ولكنها بقيت فى حرب مع فرع آل هبسبرج الأسبانى إلى أن تم صلح البرانس سنة ١٦٥٩، والواقع أن أسبانيا كانت فى طريقها إلى الانحلال والاضمحلال.

وقد لاحت في عام ١٦٦٧ للملك لويس الرابع عشر فرصة التوسع فى الشمال، فى الأراضى المنخفضة الأسبانية، وذلك عندما مات ملك أسبانيا (فيليب الرابع) الذى تزوج لويس ابنته بعد أن نزل عن كل حق فى وراثة عرش أسبانيا، ولكنه بعد وفاة فيليب الرابع ادعى حق زوجته الأسبانية فى وراثة الأراضى المنخفضة. وبادر إلى إرسال حملة فرنسية إلى تلك البلاد، وانتصرت قواته واستولت على مدن على الحدود بدون صعوبة تذكر ولم تستطع أسبانيا أن تقوم بأى عمل من شأنه صد العدوان عن أملاكها فقد كانت مغلولة اليد بسبب انهماكها فى قمع ثورة البرتغال التى هبت تطالب باستقلالها، ولم يكن لديها جيش قوى فى الأراضى المنخفضة تستطيع مجابهة الجيش الفرنسى المنظم، ولذلك لم تجد قوات لويس من يوقف تقدمها فاستولى القائد (تورين) على عدة قلاع محصنة وكانت هذه الانتصارات الفرنسية سببا فى انزعاج كل من انجلترا، وهولندا ـ والسويد، فقام «التحالف الثلاثى» بين تلك الدول لوقف لويس الرابع عشر عند حده وحدثت اتصالات بين التحالف الثلاثى أعلن لويس بعدها أنه على استعداد للمناقشة فى أمر الصلح، وقد تم الصلح فى أكس لاشيل Aix- la- Chapelle (١٦٨٨) ونص الصلح على أن تحتفظ فرنسا بالجهات التى فتحتها وهى شرلوا وليل وترناى وثمانية بلدان أخرى على حدود الأراضى المنخفضة.

٢- حروبه مع الجمهورية الهولندية (١٦٧٢- ١٦٧٩).

حقق لويس بمعاهدة إكس لا شابل أطماعه فى الاستيلاء على بعض ما كان يطمح فى ضمه إلى أملاكه، وقد أدرك أثناء الحرب أن هولنده كانت أكبر عقبة اعترضته فى إتمام مهمته، وهى التى حرضت على إقامة حلف ثلاثى ضده، ولذلك عزم على الانتقام منها، ولكنه قبل أن يقدم على مهاجمتها رأى أن يسعى فى عزلها عن دولتى التحالف ، وانجلترا والسويد، وحل هذا التحالف الثلاثى حتى تجد هولنده نفسها وحيدة أمام فرنسا القوية، فبدأ حملته الدبلوماسية مع الدولتين ونجح فى إبرام

معاهدة دوفر السرية مع ملك إنجلترا شارل الثانى عام ١٦٧٠، ثم أفلح فى ضم السويد إلى جانبه وبذلك تهيأت له الفرصة للبطش بهولنده التى وقفت حجر عثرة فى طريق أطماعه.

وفى ربيع عام ١٦٧٢ كان كل شيء معداً للهجوم، بعد أن اتفق لويس مع شارل الثانى فى المعاهدة السرية على أن يعملا معا وأن يشترك الأسطول الانجليزى مع الأسطول الفرنسى فى الهجوم البحرى، وكان شارل الثانى قد رجحت لديه فكرة التحالف مع فرنسا على التحالف مع هولنده، ليتخلص من المنافسة الهولندية لانجلترا فى ميدان التجارة والملاحة، واعتقد أن الأسطولين الانجليزى والفرنسى يستطيعان القضاء على الجمهورية الهولندية الصغيرة فى وقت قصير.

وحدث الهجوم البرى الفرنسى بقيادة «تورين» و «كونديه» أمهر قائدين عرفتهما فرنسا فى تاريخها الحديث، أما فى البحر فقد أثبت الهولنديون كفاءتهم فى حرب البحار وانتصروا على الأسطولين الانجليزى والفرنسى (يونيه ١٦٧٢).

على أن القوات الفرنسية كانت قد نجحت فى الاستيلاء على بعض الولايات والمدن الهولندية مما دفع بعض تلك الولايات إلى طلب الصلح، ولكن لويس عرض شروطاً مجحفة لم يقبلها الشعب وثار ضد الرئيس «دى وت De Witt» الذى لقى مصرعه على يد الثوار الذين كانوا يتهمونه بأنه كان يميل إلى الصلح، وطلبوا عودة آل أورنج الذين نحوا عن الحكم عشرين عاماً، وكان لهم ما أرادوا، ونصب «وليم أورنج» حفيد البطل الهولندى القديم وليم أورنج «وليم الصامت» رئيسا للجمهورية وقائداً لجيوشها البرية والبحرية، وكان وليم شابا متحمساً للدفاع عن بلاده والاستماتة فى سبيل النصر.

وقبل أن يثبت الفرنسيون أقدامهم فى قلب هولنده، عمد الهولنديون إلى هدم السدود وإغراق بلادهم بالمياه، فاضطر الفرنسيون إلى التراجع ولم يتمكنوا من الوصول إلى امستردام.

وكانت أوروبا قد أحست الخطر الذى استفحل من جراء الأطماع الفرنسية، فأعلن الإمبراطور وبعض أمراء الولايات الحرب على فرنسا وحذت حذوهما أسبانيا والدنمرك. وفى أوائل عام ١٦٧٩ كان الرأى العام البريطانى كله ضد لويس الرابع عشر وأجبر البرلمان الانجليزى الملك شارل أن يهادون الهولنديين وينفصل عن لويس، وبذلك لم يبق فى جانب فرنسا غير السويد.

ووجد لويس الرابع عشر نفسه فى عزلة خطيرة وأنه أصبح فى مواجهة تحالف يضم عدداً كبيراً من الدول الأوروبية، وفى الوقت نفسه أدرك أن ليس فى مقدوره أن يجنى بالقوة أكثر مما استولى عليه، فقرر أن ينهى تلك الحرب، وهنا أخذ يعقد معاهدة مع أعدائه كل على حدة، وتعرف هذه المعاهدات جميعاً بمعاهدة «نيمجن Nemugen» (١٦٧٨) وبمقتضاها قبل لويس أن تخرج الجمهورية الهولندية من الحرب بدون أن تفقد شبراً واحداً من أرضها، وتنازلت أسبانيا لفرنسا عن «فرانش كستيه» وعدة مدن على الحدود الفرنسية الشمالية الشرقية وبذلك لم ينل لويس شيئا من الهولنديين ولكنه وسع نطاق ممتلكاته فى جهات أخرى، بعد أن كلفته الحرب تخريب الأقاليم الفرنسية الواقعة على الحدود وخسر من الأموال ما جعل خزانة البلاد تكاد تكون خاوية.

ومع ذلك فلم يكتف لويس بما حصل عليه، فقد كان لا يزال معتزاً بجيشه النظامى الكبير وبأسطوله الذى يتألف من مائتى قطعة بحرية، ولذلك استمرت عملية التوسع بالطمع فى الأملاك المجاورة له، وكان عذره فى هذا أن معاهدة نمجن نصت على أن لفرنسا الحق فى الاستيلاء على توابع الولايات والمدن التى استولت عليها، فشكل محاكم محلية عرفت باسم «مجالس استرجاع الأملاك الفرنسية Chambers Of Reunion لتعيين هذه التوابع حسب أهواء الملك، ولكى تقرر مدى حقوق الملك فى الإلزاس والأسقفيات الثلاث، وبذلك ضم عدة بلاد ليست من حقه، ومن الحدود الفرنسية إلى الرين، ومنحت فرنسا السيادة على الإلزاس واضطرت أسبانيا بعد هزيمتها أمام قواته– إلى مهادنته والتنازل له عن لكسمبرج وبعض بلاد أخرى.

وكانت الإمبراطورية فى ألمانيا ناقمة على ذلك التوسع الفرنسى على حساب ممتلكاتها، ولذلك دعا الإمبراطور إلى عقد الديت الألمانى فى عام ١٦٨٤ للنظر فيما آلت إليه الأمور بعد إنتصارات لويس الرابع عشر فى راتزبون وعندما علم الملك بعقد الديت أرسل إنذاراً يطلب فيه الموافقة على أن يترك له لمدة عشرين عاماً تلك الأملاك التى ضمها ووافقت عليها مجالس استرجاع الاملاك الفرنسية، واضطر الديت تحت تأثير التهديد الفرنسى إلى الموافقة، وقد كان هذا النصر يمثل ذروة ما وصلت إليه قوة لويس الرابع عشر.

سياسته الدينية وإلغاء مرسوم نانت:

بعد أن بلغ لويس الرابع عشر قمة مجده السياسى والحربى فى الخارج، وجه جهده فى الداخل إلى انتزاع السلطة الدينية من يد البابا فى فرنسا، بحيث يصبح صاحب السلطة المطلقة فى شئون بلاده، مدنية كانت أو دينية، ولذلك دعا إلى عقد مجمع دينى عام ١٦٨٢ ، وأوعز إليه بإحياء قانون قديم كان يخول لملك فرنسا الحق فى الاستقلال عن سلطة البابا، وقد قرر المجمع هذا المبدأ، ونص على أن قرارات البابا لا تسرى على الكنيسة الفرنسية.

ومن جهة أخرى وجه اهتماماً خاصاً للقضاء على رعاياه من الهيجونوت الذين كانوا يتمتعون بحقوق خاصة بمقتضى مرسوم نانت، وكان ريشلييه قد بدأ من قبل سياسة البطش بهم وحرمانهم من حقوقهم السياسية المكتسبة، وجاء لويس ليُجهِز على ما بقى لهم من امتيازات ويحرمهم من حريتهم الدينية إذ كان يرى فى امتيازاتهم وكيانهم شبه المستقل انتقاصا من وحدة البلاد، وقد زاد من سخطه عليهم تحريض من حوله من المتعصبين الكاثوليك، وأصحاب النفوذ من اليسوعيين «الجزويت»، وقد بدأت مأساة الهيجونوت عام ١٦٦١ عندما قرر حرمانهم من مناصب الحكومة ومصادرة صحفهم ومدارسهم وتحويل التعليم فيها إلى مبادئ الكاثوليكية ووصل الأمر إصدار أمره بتحويل الحكومة بجمع أطفالهم وتسليمهم

لرجال الدين والمدرسين الكاثوليك لغرس مذهب الدولة فى نفوسهم منذ الصغر. وحاول الهيجونوت الهجرة لينقذوا أنفسهم من الاضطهاد إلا أنه حرمها عليهم ليجبرهم على إعتناق الكاثوليكية، ثم كانت الطامة الكبرى التى نزلت بهم عندما ألغى مرسوم نانت فى عام ١٦٨٥، وعلى الرغم من تحريم الهجرة على الهيجونوت إلا أن حوالى ٢٠٠,٠٠٠ منهم تمكنوا من الفرار واستوطنوا دولا يستطيعون فيها ممارسة عبادتهم البروتستنتية وخاصة هولنده وإنجلترا وألمانيا، وبعضهم هاجر إلى المستعمرات الانجليزية فى أمريكا الشمالية.

واعتقد الكثيرون منهم أن معظم ما أصابهم من العسف والبطش يعود إلى مدام دى مينتينون Madame de Maintenon، وهى سيدة شبت فى حداثتها على المذهب البروتستنتى (الهيجونوت) ثم تحولت إلى الكاثوليكية وتعصبت لها أشد التعصب، وقد كانت فى أول أمرها أرملة فقيرة، ثم شاء حظها أن تعين مربية لأطفال الملك. وكان الملك معجباً بها وبصفاتها وأفكارها، فصار لها عنده حظوة ونفوذ، فعندما ماتت زوجته الأولى «ماريا تريزا» الأميرة الأسبانية، عقد الملك على مدام مينتيون (١٦٨٣)، والواقع أنها استطاعت أن تؤثر على الملك فى إقباله على التدين والتعصب للكاثوليكية، ولكنها لم تكن السبب الفعال فى اضطهاد الهيجونوت لأن سياسة اضطهادهم بدأت قبل وجودها فى القصر بزمن طويل، وقد تركت مينتيون رسائل ومكاتبات أثبتت تلك الحقيقة، وأن كل ما كانت تبغيه أن يدينوا بالمذهب الكاثوليكى بدون اضطهاد وجور وبطش.

والواقع أن تبعة إلغاء مرسوم نانت وما جرى للهيجونوت تقع على لويس الرابع عشر والمقربين منه من زعماء الكاثوليكية المتعصبين، ولم تكسب فرنسا بقدر ما خسرت من هجرة الأعداد الكبيرة من الهيجونوت، فقد استطاع مئات الألوف منهم، ومعظمهم من مهرة الصناع والحرفيين، الهروب عبر الحدود، وحرمت البلاد من أهم طائفة كانت مصدر ثروتها الصناعية والاقتصادية.

٣- حرب البلاتين (١٦٨٨-١٦٩٧):

وبينما كان لويس يواصل سياسته الداخلية التي تنطوى على اضطهاد الهيجونوت وحرمان البلاد من خيرة أبنائها، وإتباع سياسة الإسراف فى بناء القصور ومظاهر العظمة والأبهة، كان أعداؤها فى الخارج يعدون العدة لمقاومته ووقف أطماعه التوسعية التي لا تنتهى عند حد، ولا سيما بعد أن أغضب الدول الكاثوليكية بسياسته العدائية نحو البابا وتحالفه مع الأتراك العثمانيين ، وكان أشد الحانقين عليه «وليم أورانج» الذى صمم على إقامة حلف جديد ضد لويس، وفى سنة ١٦٨٦ تمكن من الحصول على موافقة كل من أسبانيا والإمبراطور وعدد كبير من الولايات الألمانية على تأليف حلف ضد فرنسا سمى بحلف أجزبرج.

وأصبحت الحرب بين لويس وبين هذا الحلف لا مناص منها، وحاول لويس أن يتجاهل هذا الحلف ويواصل عدوانه كما يحلو له، فبدأ يطالب الإمبراطور بتغيير إتفاقية راتزيون وجعلها معاهدة ثابتة تقضى بضم الممتلكات الأخيرة وتوابعها نهائيا بدلا من امتلاكها لمدة عشرين سنة، فرفض الإمبراطور ذلك رفضاً باتاً، وانتهز لويس فرصة موت شارل أمير البلاتين وأعلن ادعاءه عرش هذه الولاية [(١)] ، وأعلن الحرب على الإمبراطور (سبتمبر ١٦٨٨) رعندئذ هب أعضاء الحلف لمناصرة الإمبراطور ضد عدوهم المشترك لويس الرابع عشر وما لبثت إنجلترا أن إنضمت إلى الحلف فى نفس العام، وهو عام الثورة الانجليزية (١٦٨٨) ضد جيمس الثانى حامى حمى الكاثوليكية فى إنجلترا، والذى ثار الشعب ضده واضطروه إلى الفرار وطلبوا من مارى إبنة جيمس الثانى وزوجها وليم أورانج رئيس الجمهورية الهولندية الحضور إلى إنجلترا لتولى العرش، وفعلاً تم تتويج ولين أورنج ملكا على إنجلترا باسم وليم الثالث، وكان ذلك إيذاناً بانضمام إنجلترا إلى الحلف ضد لويس الرابع عشر الذى لم يعد له حليف من بين ملوك أوروبا، ومع ذلك كان لا يزال فى عنفوانه الحربى، وسارع - قبل أن

(١) كان لويس يرمى إلى جعل عرش ولاية البلاتين لامرأة أخيه دوق أورليان، وهى أخت أمير الولاية المتوفى دون وريث.

يستعد الحلف- إلى الإغارة على البلاتين، فخرب قراها ودمر مزارعها، وفى عام ١٦٨٩، أصبحت الحرب عامة، ولكنها كانت فى بدايتها فى مصلحة لويس. فى البر والبحر، ثم انقلب الحظ فى عام ١٦٩٢ وخصوصا فى البحر حيث كان لانجلترا التفوق.

وامتدت الحرب البرية فى أوروبا وانتصر الفرنسيون فى إيطاليا وطردوا القائد النمسوى من إبيدمنت واستولوا فى الأراضى المنخفضة على منس ونامور (١٦٩١-١٦٩٢)، وفى البحر كانت فرنسا تبدو فى أول الأمر وكأنها صاحبة السيادة البحرية، فقد انتصرت الأساطيل الفرنسية على الأسطولين الإنجليزى والهولندى فى معركة رأس بتشى Beachy Head (١٦٩٠) ولكن ما لبث أن انقلب الحظ لصالح إنجلترا فى السنة التالية عندما تمكن قائد الأسطول الانجليزى «رسل» من دحر الأسطول الفرنسى فى معركة لاهوج La Hague ومنذ تم للبحرية الإنجليزية هذا النصر الحاسم أدرك لويس أن السيادة البحرية ستظل فى يد إنجلترا وأن عليه أن يصرف ذهنه عن مشروع غزو إنجلترا الذى كان يملأ تفكيره، والذى كان يقصد به إعادة العرش لجيمس الثانى الذى كان مقيماً إذ ذاك فى إيرلنده.

وبعد تسعة أعوام من الصراع المتواصل، لم يعد بمقدور الفريقين مواصلتها بنفس القوة التى بدأت بها الحرب، ولا سيما فرنسا التى كان عليها أن تمول حرباً متشعبة الأطراف وكانت مرغمة على مواصلة تجهيز أربعة جيوش برية بالمدن والسلاح عدا ما تحتاج إليه أساطيلها من صيانة وتسليح، ولذلك تهيأ الجو لمفاوضات الصلح، وعقد الفريقان معاهدة رزويك Ryswick uhl ١٦٩٨.

وبموجب شروط هذا الصلح تخلت فرنسا عن كل البلاد التى استولت عليها منذ معاهدة نمجن، ما عدا ستراسبورج والالزاس، واعترف لويس الرابع عشر بحق «وليم الثالث» فى عرش إنجلترا، وكان ذلك كسباً سياسياً لوليم حيث اضطر لويس بموجب المعاهدة أن يعد بعدم تأييد أسرة ستيوارت فى أى محاولة تقوم بها لاستعادة عرش إنجلترا.

ولا شك أن صلح رزويك كان صدمة سياسية لفرنسا فقد أثر على سمعتها الحربية وأذل كبرياءها، ولكن لويس كان مضطراً لتوقيعه ولا سيما عندما ظهرت مشكلة أخرى أشد تعقيداً وأكثر أهمية وهى مشكلة الوراثة الأسبانية.

٤- حرب الوراثة الأسبانية (١٧٠٢- ١٧١٣).

عندما تولى شارل عرش أسبانيا فى عام ١٦٦٥ ثارت فى أوروبا مشكلة خطيرة، فقد كان هذا الملك سقيم العقل والجسم معاً، وهو فى الوقت نفسه لم يعقب ولداً ولذلك كانت الدول الأوروبية الكبرى ترتجف هلعاً توقعاً لليوم الذى يموت فيه فتثار فى أعقاب موته مسألة الوراثة الأسبانية، يضاف إلى ذلك أن وريثيه الأقربين، كانتا أختيه ماريا تريزا التى تزوجت من لويس الرابع عشر، ومارجريت تريزا التى تزوجت الإمبراطور ليوبولد الأول، وقد انجبت الأخيرة إبنه تزوجت أمير بافاريا.

وبذلك تشعبت المطالبة بعرش أسبانيا إلى ثلاثة فروع:

(أ) ادعى الوراثة أمير بافاريا لأنه ابن أخ ملك أسبانيا، وكان أقل المطالبين بالوراثة نفوذاً ولا يشكل خطراً على التوازن الدولى، ولذلك كانت الدول تميل إلى جعل وراثة الملك فى ولى عهد بافاريا.

(ب) ادعاها الإمبراطور ليوبولد الأول، أولا لأنه حفيد فيليب الثالث وثانيا لأنه تزوج بنت فيليب الرابع وتنازلت له ابنته (ماريا انطونيا) عن كل حقوقها قبل أن تتزوج أمير بافاريا.

(جـ) ادعى لويس الرابع عشر حق وراثة هذا العرش لولى عهده من زوجته ماريا تريزا، ولكن لويس كان قد تنازل عند زواجه منها عن كل حقوقها فى عرش أسبانيا، ولكنه عندما لاحت مشكلة الوراثة الأسبانية ادعى أن تنازله ليس قانونياً ويعتبر باطلاً وتذرع بأسباب واهية[1].

(١) كانت ذريعته الأولى أن البرلمان الفرنسى والبرلمان الأسبانى (الكورتيز) لم يعرض عليهما ذلك التنازل ومن ثم لم يصدقا عليه.

وهكذا تعقدت مسألة الوراثة الأسبانية، وطمع فيها الكثيرون، فقد كانت أملاك شارل الثانى تشمل مع أسبانيا جزائر البليار، والأراضى المنخفضة الأسبانية، وميلان، ونابلى، وصقلية، وبعض ثغور على ساحل تسكانيا، ومستعمرات واسعة فى أفريقيا وأمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية وعدة جزر فى خليج المكسيك والبحر الكاريبى والمحيط الهادى، وكان موت شارل الثانى المريض متوقعاً فى أى لحظة، وكذلك كان الصراع الدولى على الوراثة متوقعاً بعد وفاته على الفور، حفظاً على مبدأ التوازن الدولى، ولذلك حدثت قبل موته عدة مناورات سياسية، ومحاولات سرية لتقسيم أملاكه ولكن باءت كلها بالفشل لتعارض المصالح بين فرنسا والإمبراطور، وانقسم بلاط شارل الثانى إلى حزبين أحدهما يؤيد الإمبراطور والثانى يؤيد أطماع لويس الرابع عشر، وأخيراً انتصر الحزب المؤيد لفرنسا حيث نجحوا فى إقناع الملك المحتضر بأن يوصى فى أكتوبر عام ١٧٠٠ بجميع أملاكه إلى «فيليب دوق أنجو» حفيد لويس الرابع عشر (ثانى أولاد ولى عهد فرنسا)، وبعد هذه الوصية بشهر واحد مات شارل.

وعندئذ تجاهل لويس الرابع عشر معاهدة التقسيم التى وقعها مع إنجلترا والأراضى المنخفضة عام ١٦٩٩ وقرر قبول وصية ملك أسبانيا الراحل لحفيده دوق أنجو وأعلن توليه عرش فرنسا باسم (فيليب الخامس) وكتب إلى وليم الثالث ملك إنجلترا يشرح له الأسباب التى أدت إلى قبول الوصية ونقض المعاهدة، وبعد مباحثات طويلة تبين لإنجلترا وهولنده مدى الخطر الذى يتهددهما من ازدياد الخطر الفرنسى على التوازن السياسى فى أوروبا.

وتزعم وليم الثالث ملك إنجلترا تعبئة الشعور الأوروبى ضد لويس، ونجح فى إقامة اتحاد سمى بالتحالف الأعظم The Crand Alliance (سبتمبر ١٧٠١)، ومات فى السنة التالية قبل إندلاع الحرب وشمل التحالف الأعظم كلا من إنجلترا وهولنده والامبراطور، وأيدته دوقية براندبرج (بروسيا) ثم البرتغال ودوقية سافوى الإيطالية.

لقد كانت الحرب طويلة الأمد ـ(١٧٠٢-١٧١٣) لأن قوى الفريقين كادت تكون متكافئة، ولم يحرز أحدهما نصراً حاسماً على الآخر، ووضعت قيادة الحلفاء فى يد دوق مـولبرا Marlborough أعظم قواد الإنجليز وانتـصر الحلفاء فى المعارك الهامة التى دارت رحاهافى بلنهايم Blenheim فى بافاريا سنة ١٧٠٤ وفى راملیز Rammlies ١٧٠٨ وفـى أودنـارد Oudnarde ١٧٠٨ وفى مالبلاكيه Mulpaquet سنة ١٧٠٩ وفى الأراضى المنخفضة الأسبانية.

وقد أرهقت الحرب فرنسا كل الإرهاق، فقد اندحرت قواتها فى مواقع كثيرة، وخسرت مئات الألوف من رجالها ولم يجد لويس الرابع عشر بدا من عرض الصلح على الحلفاء، وشجعه على ذلك علمه بأن الشعب الإنجليزى بدأ يسأم الحرب ويتطلع إلى السلام، ثم حدثت ظروف كانت سببا فى خلاص فرنسا من تلك الحرب الطاحنة فقد مات الإمبراطور جوزيف سنة ١٧١١ وتولى عرش الإمبراطورية أخوه الأرشيدوق شارل الذى كان مرشحاً لوراثة العرش فى أسبانيا فأصبح من المستحيل على الدول أن تقبل إتحاد عرش أسبانيا وألمانيا فى عاهل واحد، وفى الوقت نفسه تغيرت الوزارة الانجليزية وأصبح الحكم فى يد حزب التورى Tory الذى كان يرى إنهاء تلك الحرب واستدعت الوزارة القائد «ملبرا» صاحب الانتصارات العظيمة، وقبلت الدخول فى مفاوضات مع لويس تمهيداً لعقد الصلح، وخرجت من الحرب فى عام ١٧١٢، ثم تبعتها هولنده.

وفى إبريل سنة ١٧١٣تم توقيع معاهدة أترخت Utrecht وكان من أهم شروطها:

(أ) تثبيت فيليب حفيد لويس الرابع عشر ملكاً على أسبانيا وأملاكها الأمريكية مع مراعاة عدم الجمع بين عرشى فرنسا وأسبانيا فى الحاضر والمستقبل.

(ب) أن يستولى الإمبراطور على نابلى وسردانيا وميلان والأراضى المنخفضة الأسبانية (بلجيكا) التى أصبحت تعرف باسم الأراضى المنخفضة النمسوية، واستثنيت من تلك الأراضى المنطقة الصغيرة المعروفة باسم جلدرلند Guelderland

وقد منحت الأمير برندنبرج فردريك الأول تعويضاً لما تكبده من تضحيات فى الحرب، مع الاعتراف له أيضاً بلقب «ملك بروسيا».

(ج) أن تستولى إنجلترا من أسبانيا على جبل طارق وجزيرة منورقة، وتستولى من فرنسا على نيوفوند لاند ونوفاسكوشيا وخليج هدسن، ونالت من أسبانيا بعض امتيازات تجارية فى المستعمرات الأسبانية.

وكانت معاهدة أترخت بداية عهد جديد، فقد أنهت سلسلة الحروب التى حاولت بها أسرة بوربون الفرنسية السيطرة على أوروبا وزال الخطر إلى الأبد، ولم تجن منها فرنسا إلا تعيين فيليب الخامس حفيد لويس ملكاً على أسبانيا، وتخلى الفرنسيون عن مساعيهم فى غزو بلجيكا، وخرجت بريطانيا من الحرب دولة عظمى وأصبحت بعد الاستيلاء على قاعدة جبل طارق أعظم قوة فى البحر الأبيض المتوسط.

الفصل العاشر

إنجلترا فى القرن السادس عشر
(عصر اسرة تيودور)
١٤٨٥ - ١٦٠٣

يبدأ تاريخ الشعب الإنجليزى كأمة حديثه منذ فتح النورمنديون بلادهم عام ١٠٦٦ بقيادة وليم الفاتح دوق نورمانديا، وقد استوطن النورمانديون البلاد وتناسلوا مع أهلها الانجليز، ومن امتزاجهم نشأ الشعب الانجليزى الحديث تحت حكم ملوك أقوياء لم يقتصر حكمهم على إنجلترا فقط بل أصبحت نورمانديا تابعة للتاج الإنجليزى منذ أن اتخذ وليم الفاتح إنجلترا مقراً له. ثم اتسعت الأملاك الإنجليزية فى فرنسا وأدى ذلك إلى ما يعرف باسم «حرب المائة سنة» وهى الحرب التى كان لها أبعد الآثار فى تاريخ الدولتين، والتى يرجع أصلها إلى تصميم ملوك إنجلترا على البقاء فى ممتلكاتهم الفرنسية، وإلى عزم ملوك فرنسا على إجلاء الإنجليز عن بلادهم، وأخيراً لم يستطع الانجليز الاحتفاظ بالأراضى الفرنسية التى كانت تابعة لهم لأن الشعب الفرنسى نفسه أخذته العزة القومية وثار ضد الاحتلال الإنجليزى وتجلت قوته الوطنية فيما قامت به جان دارك من بطولة نادرة، إذ تألبت بفضل حماستها وتضحيتها جميع القوى التى طردت الانجليز من الأراضى الفرنسية وبعد عامين فقط من جلاء الانجليز عن فرنسا شبت بانجلترا نفسها حرب أهلية وهى «حرب الوردتين» (١٤٥٥–١٤٨٥) وهى الحرب التى سميت بهذا الاسم، إشارة إلى الوردة البيضاء التى كانت شعار آل يورك، والوردة الحمراء التى كانت شعار آل لانكستر وهما أسرتان تنتميان إلى أصل واحد ولكنهما تنازعتا على العرش.

وقد فاز آل يورك فى حرب الوردتين عام ١٤٧١، إلا أن ملكهم (ريتشارد الثالث) لم يكن موفقاً فى حكمه، وأغضب الشعب بارتكاب أفعال منكرة منها قتل إبنى أخيه إدوارد الرابع، فاستطاع «هنرى تيودور» من أسرة لانكستر أن يكتسب تأييد الشعب وينتزع العرش من أسرة يورك ويؤسس أسرة تيودور القوية التى قدر لها أن تقود البلاد حقبة من الزمان كانت مليئة بالمصاعب الدينية والسياسية، وقد اعتلى هنرى تيودور الحكم باسم هنرى السابع.

هنرى السابع ١٤٨٥ - ١٥٠٩م

يعتبر اعتلاء هذا الملك الجديد عرش البلاد أهم حدث فى تاريخ إنجلترا فى ختام القرن الخامس عشر فقد أنهى عهداً طويلاً من الحروب الإقطاعية التى أضعفت الكيان القومى للبلاد، وكان عهده فاتحة لعصر تقدم اقتصادى كبير، قام على سواعد أفراد من الطبقة الوسطى، قاموا بمغامرات وراء البحار حيث أفسحت الكشوف الجغرافية طريقا للاستغلال الإقتصادى، هذا إلى أن حركة النهضة وإحياء العلوم وحركة الإصلاح الدينى كان لها أثرها فى انتعاش الفكر واتساع الأفق، فانصرف الناس فى إنجلترا إلى اكتساب العلوم وجمع الثروة عن طربق التجارة، ولم تعد الخلافات السياسية أو الطائفية تهمهم كثيراً، وأصبح الملك صاحب الحل والعقد فى الشئون السياسية.

وكانت الروح الإستبدادية هى السائدة فى أوروبا فى ذلك العصر، ففى أسبانيا قضى كل من شارل الخامس وفيليب الثانى على كل حقوق الدستورية، وفى فرنسا أخذ مجلس الأمة النيابى يضعف بالتدريج حتى ألغى نهائيا عام ١٦١٤، أما إنجلترا فقد ظلت تتمتع بالحكم النيابى حتى جاء هنرى السابع الذى كان معتداً بسطوته، وقوته. فتظاهر بالتمسك بقوانين البلاد وأنظمة البرلمان، إنما كان ذلك فى المظهر لا فى الجوهر. وقد سار ابنه هنرى الثامن على نهج أبيه. كلاهما لم يعبأ بأنظمة البرلمان ولكنهما كانا يسعيان إلى جعل السلطة كلها للملك عن طريق التسلط على أعضاء البرلمان وإغرائهم بشتى الوسائل ليكونوا أداة طيّعة فى يد الملك، وبذلك ضعف الحكم النيابى فى عهد أسرة تيودور إلا أنها لم تتبدد نهائيا إلى أن أتيح لها فرص العودة والنمو والانتعاش حتى أصبحت السلطة الفعالة فى الدولة.

ولم يجد ملوك أسرة تيودور معارضة لسلطانهم وساعدهم على التسلط أن الأسرات الكبيرة انهارت خلال الحروب الطويلة التى كانت تقوم بينها وزال النظام الإقطاعى، وبلغت انجلترا فى عهد أسرة تيودور درجة من الانسجام القومى لم تشهدها من قبل.

واستطاع هنرى السابع أن يعيد السلام والهدوء إلى البلاد، وفى مقابل ذلك استطاع تدعيم الملكية بإصدار عدة قوانين أهمها القانون الخاص بتأسيس غرفة النجم Star Chamber عام ١٤٨٧ وهى بمثابة محكمة ذات سلطات واسعة لمراقبة تصرف النبلاء ومحاكمتهم، وقانون آخر يقضى بتقديم المعارضين لحكومة الملك وكذلك الذين يؤيدون المطالبين بالعرش إلى المحاكمة بتهمة الخيانة، وقانون ثالث لمنع النبلاء من جمع الأتباع طمعا فى النفوذ وأخيرا أصدر قانون يفرض سيطرة الملكية على شئون الصناعة. وهكذا استطاع هنرى السابع أن يؤسس ملكية ذات سلطة تكاد تكون مطلقة ولكنها لم تكن تمثل الملكية الاستبدادية التى سادت أوروبا فى العصور الحديثة.

ولم يهتم هنرى بالحروب، وكانت سياستة تتجة إلى التقارب مع أسبانيا عن طريق مصاهرة البيت المالك فيها. ففى سنة ١٥٠١ زوج ابنه آرثر بالأميرة كاترين بنت فرديناند ملك أسبانيا، ولم يدم هذا الزواج طويلا، إذ مات آرثر بعد خمسة شهور من زواجه فعمد هنرى السابع إلى عقد زواج ثانى أبناء هنرى من كاترين زوجة أخيه الراحل وكان ذلك منافيا لقوانين كنيسة روما. ومع ذلك فقد منحه البابا إذنا بذلك. كذلك وطد العلاقة التى تربط بين العرش الانجليزى وعرش اسكتلنده (١٥٠٣)، وكان ذلك الزواج نواة للتفكير فى توحيد المملكتين.

هنرى الثامن (١٥٠٩ - ١٥٤٧) :

اعتلى هنرى الثامن العرش بعد وفاة والده عام ١٥٠٩ ويختلف عهده عن عهد أبيه اختلافا بيّنا، إذ كان الانجليز قد سئموا عهد أبيه الراكد الذى لم يمنح إنجلترا قوة دولية تبهر الأنظار، وكان هنرى الثامن على استعداد للقيام بأعمال فى الخارج يرفع بها اسمه واسم بلاده وكان المحرك لسياسته هو الوزير العظيم تومس ولزاى Wolsely الذى تربى فى الكنيسة تربية دينية ووصل بذكائة وكفاءته إلى منصب رئيس أساقفة يورك ثم ارتقى مستشاراً دينيا فكاردينالا إلى أن وصل إلى رتبة نائب البابا، وبذلك أصبح مسيطرا على الكنيسة الانجليزية. وعندما أصبح وزيرا لهنرى الثامن، كان اليد المحركة لسياسة الملك.

وقد خاضت انجلترا عدة حروب خارجية ضد فرنسا منذ عام ١٥١٣، ثم تجددت فى عام، ١٥٢٢ وفى عام ١٥٢٥ إلى أن تهادنت مع هنرى على أن تدفع له إتاوة سخية. وكذلك حاولت اسكتلنده فى عهده غزو انجلترا ولكنها هزمت وقتل ملكها (١٥١٣) وهادنته انجلترا مشترطة عليها ألا تمد يد المساعدة لفرنسا.

وقد رأينا كيف أدت الحروب التى خاضتها فرنسا لغزو ايطاليا إلى قيام سلسلة من الحروب بين فرنسا وأسبانيا. وأن مبدأ جديدا انبثق فى أوروبا فى ذلك الحين وهو مبدأ المحافظة على التوازن الدولى. وقد أقحم ولزاى انجلترا فى النزاع الإيطالى، ولكن بغير نتيجة عادت على البلاد. وقد ناصر هنرى الثامن أسبانيا ضد فرنسا فى الحلف المقدس عام ١٥١١. وقامت قوات انجليزية بغزو فرنسا، وحازت بعض الانتصارات على الأرض الفرنسية.

وعندما كانت الحرب دائرة بين فرانسوا الأول وشارل الخامس انحاز هنرى الثامن إلى أسبانيا بتأثير من سياسة « ولزاى »، ولكن عندما حدثت واقعة يافيا (١٥٢٥) التى انهزم فيها فرانسوا حول هنرى تحالفه إلى عدوته فرنسا احتفاظا بمبدأ التوازن الدولى، ومع ذلك فلم تستطع انجلترا تحقيق أية مكاسب من إقحام نفسها على هذه الحروب.

حركة الاصلاح الدينى فى انجلترا

تعتبر حركة إدخال الاصلاح الدينى إلى انجلترا أهم ظاهرة حدثت فى عهد الملك هنرى الثامن. على أن الإصلاح لم تكن دوافعه عند الملك دينية، بل ابتدأت الحركة فى انجلترا سياسية فى أول الأمر ثم انقلبت دينية بعد ذلك، والواقع أن هنرى الثامن كان يعارض حركة لوثر منذ نشأتها وكتب رسالة ضمنها أراءه معارضا فيها مذهب لوثر (١٥٢١) مما دعا البابا إلى منحه لقب حامى حمى العقيدة Defender of the faith وهو لقب كان ملوك الانجليز جميعا يعتزون بحمله.

وقد ظهرت جماعة من انجلترا على رأسهم كولت Colet ومور More والمصلح الهولندى أرزمس عكفت على دراسة النسخة اليونانية من الانجيل (العهد الجديد New testament) من الناحية العلمية واكتشفوا مثالب ومعايب فى الكنيسة، وكان يطلق على هؤلاء لقب «مصلحى اكسفورد» The Oxford Reformers ومع ذلك فلم يكن هؤلاء من مؤيدى لوثر ولا يعطفون على حركته، ولم يناهضوا الكاثوليكية كعقيدة للكنيسة، ولكنهم كانوا يبرزون المعايب ويطالبون بالإصلاح.

ولم يكن لأى مؤرخ أن يتكهن بالدور الذى ستلعبه انجلترا فى حركة الصراع الدينى فى أوروبا لو لم تضطر الظروف هنرى الثامن ـ لأسباب شخصية محضة ـ أن يلقى بكل ثقله فى حركة تأييد الإصلاح الدينى، ولولا تلك الأسباب الشخصية لتغير موقف انجلترا تجاه الحركة.

طلاق كاترين الأراجونية.

كان هنرى الثامن عاطفيا مغرما بالمرح واللذة الشخصية، وقد ولدت له كاترين عديدا من الأطفال لم يعش منهم سوى الأمير مارى ولم تنجب له ولدا يكون وليا للعهد، وكان كاترين أكبر منه سنا ولا تشارك زوجها فى نوازعه وميوله الشخصية، وفى الوقت نفسه كان متعلقا بحب آن بولين إحدى سيدات البلاط ووصيفة الملكة، فقرر أن يتخلص من الملكة ليتزوج الوصيفة.

وكان الأمر يبدو صعبا، إذ لا بد من صدور قرار من البابا يجيز له طلاق كاترين، ولا بد من إيجاد سبب يستند إليه البابا فى إصدار قرار بعدم شرعية زواج هنرى الثامن من كاترين. وكان من عادة البابوات أن يستجيبوا فى بعض الأحيان لرغبات الملوك، ولكن فى ذلك العام ١٥٢٧ ، كما رأينا، كانت القوات الأسبانية قد دخلت روما واحتلتها، وأخذ البابا « كلمنت السابع » أسيرا عند الإمبراطور شارل الخامس وأصبح خاضعا لنفوذه ولا يسعه إغضابه.

وحاول الكردينال ولزاى أن يستصدر من روما قراراً يلغى قرار البابا الأسبق يوليوس الثانى الذى أتاح زواجهما ولكنه أخفق كما رأينا ولما كان ولزاى هو صاحب الرأى فى استصدار قرار الإلغاء من روما فقد حقد عليه وعزله وصادر أملاكه واتهمه بالخيانه ولكنه مات قبل المحاكمة سنة ١٥٣٠.

توماس كرمويل،

ولما طالت مراوغة البابا فى مسألة طلاق كاترين، تفاقم الخلاف بين هنرى الثامن والكنيسة البابوية، واختار الملك رجلا كان يعمل تحت رئاسة الكاردينال ولزاى، ولكنه كان أصلب عودا من الكاردينال، ويعتنق مبدأ « الغاية تبرر الوسيلة » وهو توماس كرمويل، الذى أشار على الملك بالانفصال عن كنيسة روما وفصل كنيسة انجلترا ووضعها تحت سيادة الملك، وذلك بأن يحذو الملك حذو الأمراء الألمان الذين تخلصوا من سلطان البابوية ونبذوا كنيسة روما وأنشأوا كنائس أهلية.

وقد اقتنع هنرى بهذا الحل واعتبر نفسه زعيما من زعماء الإصلاح الدينى، ولكنه كان فى داخلية نفسه يهدف إلى توحيد السيادة على البلاد، إذ كانت تقتسم السيادة قبل ذلك سلطتان : سلطة الكنيسة ممثلة فى شخص البابا رئيسها الأعلى، وسلطة الملكية، وبالتخلص من سيادة الكنيسة البابوية يستطيع تحقيق مآربه الثلاثة الكبرى. طلاق كاترين والزواج من آن بولين، والاستيلاء على الأموال التى كانت ترسل فى الأصل إلى كنيسة روما، وتدعيم سلطانه على الدولة الحديثة بفضل سيطرته وسيادتة على جميع رعاياه من علمانيين ودينيين.

وهكذا ظهر الإصلاح الدينى فى انجلترا بشكل دينى وسياسى معا، وقد ترك الشعب أمر اختيار المذهب الدينى لمليكه وخضع لما يصدره من قوانين دينية. وساعد الملك على تحقيق ذلك أن البرلمان بمجلسه كان خاضعا له يوافق على تشريعاته وظل لهذه الغاية سته أعوام متتالية ١٥٢٩ – ١٥٣٥ دون أن يكون لذلك سابقة [١].

---

(١) وكان البرلمان مستعدا لتأييد الملكة فى طريق الإصلاح ما دام الملك يتحاشى التعرض بسوء العقيدة نفسها.

وقد عين الملك «توماس كرمويل» نائبا عنه فى الأمور الدينية، فأخذ الأخير يعمل على محو الأديرة من البلاد ومصادرة أراضى الكنيسة.

وهكذا استطاع الملك أن يحقق استقلال الكنيسة الانجليزية ويكون هو رئيسها الأعلى واستطاع أن يحقق رغبته فى طلاق كاترين والزواج من آن بولين، وأن يملأ خزائنه بالأموال التى كانت تتدفق من انجلترا على كنيسة روما، وأن يصبح صاحب السلطان الأوحد على رعاياه من دينيين وعلمانيين.

أما الشعب الإنجليزى فكان يشعر شعورا عميقا فى تلك الأيام بضرورة الإصلاح بعد أن تنبهت الأذهان إلى المساوئ العديدة فى الكنيسة الإنجليزية عندما كانت تتبع البابا مباشرة إذ كانت مفاسد رجالها فى الكنائس والأديرة هى نفس المفاسد التى ثار عليها المصلحون فى ألمانيا وغيرها، وفى نفس الوقت كان الرأى العام مهيأ لتأييد الملكية فى مسعاها لتدعيم سلطانها. إذ فى دعمها أمان من الفوضى التى عانت منها البلاد فى حروب الوردتين، وكان الناس يفضلون أن تزول سلطة البابوية وهى سلطة أجنبية وليست قومية. وساعد على تأييد حركة الإصلاح أيضا أن أحداً ممن تصدوا للمناداة بالإصلاح لم يفكر فى مهاجمة العقيدة الكاثوليكية نفسها أو المساس بها، بل لقد تحمس البرلمان لتأييد الملكية فى الإصلاح لأن الملك لم يتعرض بسوء للكاثوليكية. وظل الحال كذلك إلى أن انحازت أكثرية الشعب للمذهب الجديد وأقدم خلفاء هنرى الثامن على إدخال البروتستنتية فى البلاد.

ومنذ شهر نوفمبر عام ١٥٢٩، عرف البرلمان باسم برلمان الإصلاح أو برلمان (السبع سنوات) لأنه انعقد سبع سنوات متتالية كان الإصلاح الدينى هو همه الأول، فقد أصدر عدة قوانين كان هدفها إصلاح مساوئ الكنيسة وإخضاع رجال الدين فى انجلترا لسلطة الملك. واشتدت الحملة لتحقيق هذه الأهداف، وبدأت بإصدار البرلمان قانون منع إرسال الأموال إلى روما، وآخر يمنع الكنيسة فى انجلترا من التصرف فى شئونها بغير موافقة الملك. وتحريم تعيين الأقارب فى الوظائف الكنسية وغير ذلك مما كان يراه النواب ضمن مفاسد الكنيسة.

وفى عام ١٥٣٣ أصدر الملك مرسوما بتعيين توماس كرانمر Cranmer رئيسا لأساقفة كنتربرى، وقد رفض البابا كلمنت السابع أن يوافق على تعيينه. ولكن هنرى الثامن لم يعبأ برفض البابا. واستصدر من كرانمر إعلانا بإلغاء زواجه من كاترين، والموافقة على زواجه من آن بولين . وكان ذلك فى مايو عام ١٥٣٣ . وبعد ذلك بعده أسابيع أصدر البابا قرار الحرمان ضد هنرى الثامن الذى كان قد تزوج آن بولين سرا قبل أن يصدر رئيس أساقفة كنتربرى موافقته الرسمية وأنجب منها «اليزابيث» التى جعلها وريثة للعرش من بعده، وألغى حق ابنته «مارى» التى أنجبها من زوجته الأولى على اعتبار أنها ولدت من زوجة غير شرعية.

وفى نوفمبر ١٥٣٤ ، أصدر البرلمان «قانون السيادة العليا» الذى نص فيه على أن الملك هو الرئيس الأعلى للكنيسة الإنجليزية وله كل السلطات الروحية والقانونية التى كان البابوات يتمتعون بها فى انجلترا، ومعاقبة كل من يتعرض لشخص الملك وحقوقه، ثم صدر قانون حل الأديرة، وتبعه قانون آخر بحل الأديرة الكبيرة حتى أصبح عدد الأديرة التى حلت حوالى ستمائة دير ذهب إيرادها الكبير لخزانه الملك، وبإضافة هذا الإيراد إلى ما صودر من إيراد الكنيسة فى أراضيها وممتلكاتها، يكون الملك قد استولى على ما يقرب من خمس الأراضى الزراعية بالبلاد، فضلا عن مقادير كبيرة من الثروة المنقولة وترتب على هذا ازدياد الملكية، والإقدام على عدة مشروعات لتقوية الدولة نفسها فأنشأ هنرى الثامن أسطولا قويا، وحصن الشواطئ، بل إنه استطاع أن يقوم بحرب ضد فرنسا (١٥٤٣ ـ ١٥٤٦) وبدمج بلاد الغال فى انجلترا ونظامها الحكومى وتقسيمها الادارى، وشرع فى تنظيم إيرلنده ووحد بين شمال انجلترا وجنوبها وحاول قبيل موته أن يضم اسكتلندا إلى التاج الإنجليزى ولكنه فشل فى هذا السبيل.

وقد أدت حياته العائلية المتغيرة إلى تغير نظام الوراثه لمن يخلفه، فقد تخلص من زوجته آن بولين وتزوج بعدها جين سيمون، وثلاث أخريات متتاليات، ولكنه أنجب ابنه ادوارد من جين سيمون الذى استصدر له من البرلمان قانونا يجعل ولاية العهد من

نصيبه، فإذا مات من غير وريث خلفته «ماري» بنت كاترين، فإذا لم يكن لها وريث خلفتها أختها اليزابيث. وهكذا انتقل الملك إلى ابنه ادوارد السادس وفي الوقت نفسه اعترف القانون بشرعية بنوة ماري ابنة كاترين. وفي سنة ١٥٤٧ مات هنري الثامن وخلفه ابنه ادوارد السادس.

الملك ادوارد السادس (١٥٤٧ - ١٥٥٣) والبروتستنتية:

كان ادوارد السادس لا يزال قاصرا في العاشرة من عمره عندما مات أبوه. فأقيم عليه خاله «ارل هرتفورد» وصيا، وقد منحه الملك لقب دوق سمرست واعتبر دوق سمرست صاحب الحماية على المملكة. وقد حدث تغيير جذري في العقيدة الانجليزية في ذلك العهد، فقد كان سمرست على المذهب البروتستنتي ولذلك ألغى كل القوانين التي اضطهدت البروتستنت، ثم تحول لمناهضة الكاثوليك وأغلق كثيرا من كنائسهم، وحول دخلها إلى خزينة الملك، وكانت نشأة الملك بروتستنتية، وفي عهده سارت حركة الإصلاح الديني شوطا بعيداً من ذلك إصدار كتاب الصلوات العامة Book of Common Prayer باللغة الإنجليزية، وهو الكتاب الذي طبع الكنيسة البروتستنتية بطابع قومي وجعل الفردية وحرية الاعتقاد أساسا للبروتستنتية الانجليزية. على أن مركز سمرست أخذ يتزعزع بسبب كثرة أعدائه، ومواجهة الصعوبات الكثيرة، منها العداء المستحكم بين انجلترا وفرنسا، هذا فضلا عن الاضطرابات الداخلية التي نشأت عن الهزات الدينية، وانتشار حركة (إغلاق الحقول Enclosures) وسببها أن أصحاب الأراضي الصالحة للزراعة فضلوا أن يحولوها مراعي للأغنام لتصدير صوفها، وأقاموا أسيجة حول الأراضي وطردوا منها المنتفعين بها من صغار المزارعين، وبذلك تحولت المساحات الزراعية الكبرى إلى حقول مسورة لتربية الأغنام، فقل العمل الزراعي وسادت البطالة واشتدت الحاجة بهؤلاء الذين طردوا منها، وكانت الطبقة التي آلت إليها هذه الأراضي أشد حرصا على جمع المال من طبقة الأشراف القدامى، وبلغ بهم الجشع أن وضعوا أيديهم على كثير من الأراضي التي تجاور أملاكهم وهي الأراضي التي كان الناس يعدونها مباحة يتعيش منها الفقراء.

وحاول «سمرست» أن يقوم بعمل من شأنه التخفيف عن الطبقة الفقيرة التى أضيرت بسبب أطماع كبار الملاك، فتعرض لسخط الفريقين، إذ اعتبره كبار الملاك مسئولا عن اضطراب البلاد، واتهموه بأنه كان مبذرا فى أموال البلاد، وأنه جمع لنفسه ثروة طائلة من مال الكنيسة، كذلك غضب عليه الرأى العام بسبب الدعايات التى دبرت ضده، وأدى كل ذلك فى النهاية إلى القبض عليه وخلعه من منصبه عام ١٥٤٩. ثم كان نصيبه الإعدام عام ١٥٥٢.

وخلفه فى منصبه إيرل وارويك Earl Warwick[١]، وهو أحد الأشراف من كبار ملاك الأراضى والذى كان له الفضل فى إخماد ثورة الفلاحين. وقد منحه الملك لقب دوق نورثمبراند Northumberland وكان من دهاة السياسة، وليست له ميول دينية معينة، إلا أنه تظاهر بالتمسك بالبروتستنتية تمشيا مع الملكية، ولأن معظم الوزراء كانوا يدينون بذلك المذهب، وفى عهده انتشر المذهب البروتستنتى فى لندن والمدن الساحلية. أما فى داخل البلاد فقد كان نموه بطيئا.

ولما مرض الملك ادوارد السادس وأشرف على الموت عام ١٥٥٢، رأى الدوق نورثمبرلند أن سلطانه مهددة بالزوال إذ آل العرش إلى مارى التى كانت كاثوليكية متعصبة، لذلك سعى فى تحريض الملك على أن يحدث تغييرا فى نظام الوراثة من بعده، بأن تلى العرش ليدى جين جراى Jane Gray . وهى حفيدة لإحدى شقيقات الملك هنرى الثامن، وكانت حجته فى هذه الفكرة أن مارى واليزابيث ابنتان غير شرعيتين[٢] ولكن مؤامرته فشلت لأن الشعب لم يكن راضيا عن هذه الخطوة، فقد كان للوريثة الشرعية «مارى» أنصار كثيرون ممن يدافعون عن مبدأ شرعية العرش القانونية. وتولت الحكم صاحبة الحق فيه الأميرة «مارى» ابنة هنرى الثامن من زوجته الأولى كاترين الأرجونية.

---

(١) الايرل لقب انجليزى أدنى من مركيز وأرفع من فيكونت.

(٢) مما يجدر ذكره أن نورثمبرلندا كان قد زوج جين جراى من أحد أبنائه.

الملكة ماري (١٥٥٢ - ١٥٥٨):

وكانت ماري شديدة التدين والتمسك بالكاثوليكية، ولذلك كان أول قرار اتخذتة هو إعادة العلاقات مع كنيسة روما، ثم ألغت جميع القوانين الدينية التى سنت فى عهد ادوارد السادس، هذا إلى أنها تزوجت «فليب الثانى» ملك أسبانيا أشد الملوك تعصبا للكاثوليكية، وقد أثار هذا الزواج غضب الشعب الانجليزى كله لما كان يحمله من بغض للأسبان وقد ترتب على هذا الزواج قيام ثورة بانجلترا تزعمها السير توماس ويت Thomas Wyatt ولكن تمكنت الملكة من القضاء على الثوار وأعدم زعيم الثورة، وأمرت فى الوقت نفسه بإعدام جين جراى مع أنها لم تكن لها يد فى قيام تلك الثورة.

ثم بدأ عهد من الاضطهاد للبروتستنت، وارتكبت الفظائع ضدهم من سجن وتقتيل وإحراق حتى لقّبها البعض بماري السفاحة، وكان حكمها حقبة خطيرة من الاضطهاد الدينى لم يسبق لها مثيل فى التاريخ الانجليزى.

وقد كان زواجها من فيليب شؤما عليها وعلى البلاد. فلم يكن هناك من يرضى أن تصبح انجلترا تابعة لأسبانيا. فغادرها ذاهبا إلى الأراضى المنخفضة، ومن ذلك الحين لم يعد إلى انجلترا إلا عندما وصلها ليحرض الملكة مارى على أن تشترك معه فى الحرب ضد فرنسا، ولبت ماري دعوته وكانت العاقبة وخيمة على البلاد، وذلك أن الانجليز كانوا قد أهملوا تحصين كاليه Calais فلما نشبت الحرب بينهم وبين فرنسا انتزع الفرنسيون المدينة عام ١٥٥٨. ولم تكسب انجلترا من مغامرة ملكتها سوى ضياع ميناء كاليه التى بقيت لها من فتوحاتها بالقارة الأوروبية فى العصورالوسطى.

وضع الشعب من سوء الحال وزاد عدد الداخلين فى المذهب البروتستنتى فقد ارتبطت الكاثوليكية فى ذهنهم بالدماء المراقة، وتضحية المصالح الانجليزية فى سبيل أسبانيا، وكان معظم الانجليز يخشون أن ينجب زواجها بفيليب وليا للعهد تجرى فى

عروقه الدماء الأجنبية، ولكنها ماتت قبل أن تحل تلك الكارثة. وخلفتها على العرش أختها اليزابيث.

الملكة اليزابيث (١٥٥٨ ـ ١٦٠٣).

اعلنت اليزابيث العرش وعمرها خمس وعشرون سنة وحكمت البلاد حتى بلغت السبعين من عمرها، ويعتبر عهدها الطويل من أزهى عصور التاريخ البريطانى حتى أن المؤرخين أطلقوا على النصف الثانى من القرن السادس عشر «عصر اليزابيث» وفيه نمت القومية البريطانية وأصبح لبريطانيا السيادة البحرية التى ساعدت على رقى البلاد وعظمتها وفيه توطد نهائيا نظام الكنيسة الانجليكانية، واتسع النشاط البرلمانى وازدهرت الحياة الأدبية.

وقد اشتهرت اليزابيث بقوة الإرادة والمشاركة الفعلية فى حكم البلاد رغم أنها استخدمت رجالا أكفاء ولكنها لم تتنازل عن دورها كملكه قوية لأنها كانت معتدة بنفسها معتقدة أن انجلترا فى ذلك العهد أحوج ما تكون إلى حاكم قوى، ولذلك كان عصرها عصر قوة وتفوق لانجلترا.

وقد استطاعت اليزابيث أن تطبع انجلترا بالطابع البروتستنتى على الرغم من أنها لم تتعمق فى دراسة أى من المذهبين، ولم تتعصب فى داخلية نفسها لأيهما، ولم تستهوها العواطف الدينية، ولذلك لم تتعجل فى قطع العلاقات مع كنيسة روما.

ولم يسعها إلا اتباع سياسة الحل الوسط معتمدة على البرلمان، باتخاذه أداة لتنفيذ هذه السياسة، وانتهت تلك السياسة بتدعيم صرح الكنيسة الأنجليكانية، أو ما سماه بعض المؤرخين بنظام اليزابيث الكنائسى، وهو النظام الذى يستند إلى قانونين: قانون السيادة العليا The act of Supermacy | وقانون المذهب الواحد The act of uniformity

أما القانون الأول فقد أكد لصاحب العرش السيادة العليا فى جميع الشئون

الروحية والزمنية على السواء، وألزم رجال الدين بأن يقسموا يمين الولاء والاعتراف بسلطان الملكة فى الشئون الكنسية وعدم الخضوع لأيه سلطة أجنبية فى جميع الشئون الدينية والقضائية. وبهذا القسم حرم الأساقفة الكاثوليك ـ الذين كانوا عماد الحركة الكاثوليكية فى عهد مارى ـ من التصرف فى أسقفياتهم.

كذلك نص قانون السيادة العليا على معاقبة المعارضين له وكل من يقبل الخضوع لأيه سيادة أجنبية فى الشئون الدينية أو الزمنية.

أما قانون المذهب الواحد فقد أقر نوع العبادة التى تضمنها كتاب الصلاة الثانى الذى صدر سنه ١٥٥٢ مع إدخال تعديلات فى تفصيلات العقيدة تسهل للمعتدلين من البروتستنت والكاثوليكية أن يقبلوه، وقد عبر ذلك القانون بعض التقاليد والطقوس بما لا يتنافى كثيرا مع الكاثوليكية وحدد الرأى فى مسألة القربان بالجمع بين الوجود الحقيقى للقربان وبين اعتباره حفلة تذكارية، ولإسداء الحمد والشكر، واعتبر زواج القسيس شرعيا مع عدم تشجيعه. كما طلب من القساوسة أن يعتدلوا فى اختيار ملابسهم بحيث تكون بسيطة متواضعة. وبذلك أصبح نظام الكنيسة الانجليكانى كاثوليكى المظهر، بروتستنتى العقيدة، ولذلك لقى فى مبدأ الأمر معارضة شديدة من جانب البروتستنت المتطرفين.

أما المعتدلون من البروتستنت فقد وافقوا على النظام الجديد عازمين على العمل بالتدريج على أن يتفق مع عقائدهم وقد عرف هؤلاء بالمتطهرين وتعرض Puritans المتطرفون من البروتستنت الذين عرفوا بالانفصاليين Separatists للمحاكمات والعقوبات التى فرضها قانون المذهب الواحد.

كذلك عارض المتعصبون من الكاثوليك نظام الكنيسة الانجليكانى، بل كانوا أشد خطرا على سيادة الملكية من البيورتان والانفصاليين حتى أن بعضهم عمد إلى التآمر على حياة الملكة اليزابيث للتخلص من النظام الانجليكانى الذى كانت تحميه. ولذلك تطلعوا إلى فيليب الثانى ملك أسبانيا وبابا روما لكى تنجح مؤامراتهم ضد العرش.

ولم يكن هناك مفر من الاحتكاك بين البروتستنت والكاثوليك على الصعيد الدولى، فانحازت اليزابيث إلى البروتستنت تؤيدهم فى الأراضى المنخفضة، وإلى الهيجونوت تؤيدهم فى فرنسا، وفى مقابل ذلك عمد فيليب إلى التدخل فى شئون ايرلنده والعمل على إثارتها ضد الحكم الانجليزى.

كذلك أفضت الحوادث إلى توتر العلاقات بين اليزابيث ملكة انجلترا ومارى استيوارت ملكة اسكتلنده (زوجة فرانسوا الثانى ملك فرنسا). فقد كانت مارى استيوارت محور المؤامرات التى يدبرها الكاثوليك ضد اليزابيث. وهدفهم الرئيسى تنصيب مارى استيوارت ملكة على عرش انجلترا بدلا من اليزابيث.

ولكن الظروف ساعدت اليزابيث على التخلص من مارى استيوارت عندما كانت تحكم اسكتلنده بنفسها بعد وفاة زوجها فرانسوا الثانى، وقام النزاع بينهما وبين خصومها من رجال الدين والنبلاء واتهامهم اياها بقتل زوجها Darnly. وثار الشعب عليها فلجأت إلى انجلترا طالبة حماية غريمتها اليزابيث وبعد عدة أعوام غدرت بها الملكة وأعدمتها عام ١٥٨٧ لأنها كانت تشعر أن بقاءها فيه خطر يتهدد عرشها واعتقدت اليزابيث أن مارى ستيوارت كان لها ضلع فى قيام الفتن والمؤامرات التى كانت تدبر فى السنين الأخيرة ضدها.

المنافسة بين انجلترا وأسبانيا وحملة الأرمادا.

كانت اليزابيث حريصة على استقلال البلاد والميل إلى السلام، ولكن المنافسة التى استمرت بين انجلترا وأسبانيا فى أواخر عهد اليزابيث لم تترك منفذا للسلام بين البلدين، فبينهما خلاف دينى شديد وصراع على التجارة وامتلاك المستعمرات فى أمريكا، وبدأ الاحتكاك بتأييد فيليب الثانى لحقوق الملكة مارى ستيوارت فى عرش انجلترا، ومساهمته فى تدبير مؤامرة لاغتيال اليزابيث لتحل مارى ستيوارت محلها، وفى الوقت نفسه كانت اليزابيث تساعد الهولنديين فى ثورتهم على الحكم الأسبانى وتمدهم بالمال و السلاح ثم ما لبثت أن أمدتهم بالعون العسكرى وبذلك صار العداء

سافرا ينتظر الشرارة التى تشعل الحرب، وكان العامل الأكبر فى قيام الحرب المنافسة الملاحية فى البحار والمغامرات التى قام فريق من المغامرين الانجليز فى المناطق التى يعتقد الأسبان أنها احتكار لهم، فتم إنشاء مستعمرة انجليزية فى فرجينيا بأمريكا الشمالية على يد السير والتررالى. وتم للسير فرنسيس دريك الطواف حول الأرض وعاد إلى انجلترا يحمل الذهب والفضة والنفائس التى سلبها من السفن والمدن الأسبانية. وكان الملاحون المغامرون من الإنجليز يعمدون إلى تخريب مدن الأسبان فى أمريكا وسلبها، وفى سنة ١٥٨٧، حمل « دريك » على ميناء قادس الأسبانية بست سفن حربية دمر بها بعض السفن الراسية فيها وقاد بعضها الآخر الى السواحل الانجليزية وقد حدث كل هذا فى الوقت الذى قرر فيه فيليب غزو انجلترا.

وقد نفذ فليب عزمه بتجهيز أسطول ضخم أطلق عليه اسم « الأرمادا » وكان على انجلترا أن تواجه الخطر المقبل عليها بما تستطيعه من قوة دفاع، وكان الأسطول الانجليزى يتكون من عدة سفن صغيرة الحجم ولكن قيادته كانت بين قواد بحريين أكفاء وأخذت السفن الحربية الانجليزية تقوم بهجمات موفقة على الاسطول الأسبانى الضخم فالتجأ إلى الساحل قرب كاليه ولما اضطره الانجليز إلى الخروج ثانية إلى عرض البحر لم تستطع سفن الأرمادا أن تقاوم الأسطول الانجليزى على صغر سفنه التى تفوقت فى الحركة والسرعة فتشتتت الأرمادا وانهزم الأسبان بعد معركة كبرى ومن نجا من سفن الأسطول حطمته العواصف الشديدة التى هبت على بحر الشمال والمحيط الاطلنطى، ولم يعد من الأسطول الأسبانى الضخم الى شواطئ أسبانيا سوى ٥٤ سفينة غير صالحة للقتال بعد ذلك.

وكان المصير الذى آلت إليه الأرمادا الأسبانية أول دليل على أن الإمبراطورية الأسبانية لم تعد فوق مستوى الهزيمة فزال شبح الخوف من الأسبان، وضاعت من ملك أسبانيا فرصة محاربة البروتستنتية فى انجلترا بل لقد أكملت هزيمة الأرمادا عمليه تحويل انجلترا إلى بلاد بروتستنتية.

الفصـــل الحادى عشر

بريطانيا فى القرن السابع عشر
(آل ستيوارث وثورة البيوريتان)

جيمس الأول (١٦٠٣-١٦٢٥)،

وعندما توفيت الملكة اليزابيث عام ١٦٥٣، ورث التاج الإنجليزى ابن مارى ستيورات الذى كان ملكاً على اسكوتلنده باسم جيمس السادس، وبتوليته العرش الانجليزى أصبح يطلق عليه إسم جيمس الأول.

وكان عهده فاتحة عهد جديد للوحدة بين إنجلترا وإسكتلنده وهى الأُمنية التى كثيرا ما تطلع إليها ملوك إنجلترا وساستها منذ عهد هنرى الرابع، ومع ذلك فإن فكرة الوحدة لم ترق لعض المعارضين، لأن الخلاف بين الشعبين كانت له جذور تاريخية عميقة، ولذلك حرصت اسكتلنده على الإحتفاظ ببرلمانها وقوانينها وموظفيها، وهكذا لم تكن الوحدة إذ ذاك تتمثل إلا فى وجود ملك واحد على رأس البلدين، ولم تتحسن العلاقات بينهما إلا بعد زمن طويل.

وكان من سوء الحظ أن تبدأ وحدة التاج بين البلدين بملك مثل جيمس الأول ذى الشخصية البغيضة والأفق الضيق، والذى اتصف بالعناد والضعف والجبن، ولم تكن أفعاله وتصرفاته مما يشرّف الملوك وهو وإن سعى لتثقيف نفسه ونال حظا وافراً من العلم إلا أن مقدرته العقلية وحكمه على الأشياء وتصرفه فى أمور الدولة أثبت أنه لم ينتفع بثقافته ولا بعلمه كذلك عجز عن إكتساب محبة الشعب ولم يحاول ذلك لأنه كان يكثر من الحديث حول حقوق الملك الإلهية فى الحكم،

وكان يرى أن من حق الملك أن يصدر أى قانون دون أن يستشير فيه أعضاء البرلمان وإن كان لا يمانع فى قبول ما يقترحونه عليه إذا راق له رأيهم وكان يدعى أنه فوق القانون بحجة أنه هو الذى يصدر القوانين وأن الملك «لا يستمد قوته من الشعب بل من الله الذى اختاره أبا لشعبه، وأنه وحده الذى منحه السلطة لتوطيد النظام وإقامة العدل فى البلاد، فهو مسئول أمام الله وحده وليس لأحد من الشعب أن يحاسبه على أعماله [1]».

على أنه كان من حسن حظه فى مجال السياسة الخارجية أنه تولى العرش فى ظروف موفقه، فقد تمكنت إنجلترا من دحر أسطول الأرمادا الأسبانى وتخلصت من أكبر خطر كان يتهددها قبل أن يلى الحكم إذ ضعفت أسبانيا فى البر والبحر وفقدت مكانتها، ورأى جيمس أن يحدد علاقة إنجلترا بها فعقد معها معاهدة سلام عام ١٦٠٤، وقد أثار فى البلاد عاصفة من السخط بسبب سياسته الخارجية الودية نحو أسبانيا، كما أثار السخط بسبب سياسته الخارجية الودية نحو أسبانيا كما أثار سخط البرلمان بسبب تجاهله للدستور وتحدى البرلمان فى اختصاصاته المالية عندما حاول أن يفرض ضرائب عير مباشرة.. أو قروضاً- متذرعاً بما له من حقوق، ولم يكتف بذلك بل لقد صارح اللوردات وأعضاء مجلس العموم أن اختصاصاتهم التى يدعونها ليست قائمة على حق لأنها منحة الملك، وأن واجب النواب قاصر على إقرار موارد الدولة والتعبير فقط عن آراء ناخبيهم، أما تخطيط السياسة القومية وتنظيم كنيسة الدولة فمن شئون السياسة العليا الذى يبت فيها الملك وحده.

وقد أثارت تلك الأفكار الاستبدادية أعضاء البرلمان فتقدموا باحتجاج سجلوا فيه «إن حرية البرلمان وامتيازاته واختصاصاته حقوق أصيلة قديمة لا شك فيها توارثها الشعب الإنجليزى، وأن المسائل الخطيرة والشئون العاجلة بالملك والدولة والدفاع عن البلاد وعن كنيسة إنجلترا، ووضع القوانيين وصيانتها وأنصاف المظاومين كلها موضوعات ومسائل من اختصاص البرلمان، يتشاور فيها أعضاؤها ويتناقشون».

---

(١) عرف هذا المبدأ فى التاريخ باسم حق الملوك الإلهى.

وقد هال الملك تلك المعارضة الجريئة من أعضاء مجلس العموم وأمر برفع تلك الصفحة من مضبطة المجلس وحل البرلمان واتهم بعض أعضائه بالخيانة العظمى وتفاقم الخلاف بينه وبين البرلمان، وظل ذلك الخلاف محتدما إلى أن مات جيمس الأول فى عام ١٦٢٥ وتولى العرش إبنه شارل الأول.

شارل الأول (١٦٢٥-١٦٤٩):

اعتلى شارل الأول العرش فورث عن أبيه تركة مثقلة بالخلاف بين الملك والبرلمان، وكان يشبهه فى نزعته الاستبدادية وصلابة رأيه، وفى عجزه عن كسب محبة الشعب وعاش حياته فى صراع دائم مع مجلس العموم ووضع ثقته فى دوق بكنجهام Duke of Buckingham الذى كان موضع سخط الشعب منذ عهد جيمس الأول، وقد حاول شارل فى مستهل حكمه أن يبهر الأمة بانتصارات حربية فى الخارج وظن أنه يستميل إليه لو أعلن الحرب على أسبانيا ولكن حملته باءت بالفشل، كذلك حاول أن يناصر الهيجونوت فى فرنسا ضد رشلييه وفشلت الحملة التى أرسلت لمساعداتهم فى «لاروشيل» ونتج عنها تدعيم قوة روشلييه وضياع هيبة الملكية الانجليزية وسمعتها فى فرنسا.

واضطر شارل إلى جمع المال بعد الخسارة الفادحة التى أصيبت بها الخزانة الإنجليزية، وكان كلما أراد مالا بطريق غير شرعى (أى موافقة النواب) يلجأ إلى وسائل نفّرت منه الشعب، إذ كان يفرض قروضاً إجبارية على طبقة التجار وأصحاب السفن والصناع وغيرهم من الطبقة الوسطى فكانت هذه المظالم سبيلاً إلى ازدياد عوامل الثورة وخصوصا أنه كان يأمر بسجن كل من يمتنع عن إقراض الملك المال المفروض عليه، وانفجر الشعب مطالبا بتحديد نفوذ الملكية بحيث لا يسجن أحد دون محاكمة عادلة، وكان لذلك صدى قوى فى البرلمان. فاجتمع أعضاؤه فى عام ١٦٢٨ وقرروا إعداد وثيقة سميت ملتمس الحقوق The Petition of Rights، وتعتبر من أهم الوثائق فى التاريخ الانجليزى، طالبوا فيها:

(أ) أن لا تفرض جباية القروض والضرائب والهبات بدون موافقة البرلمان.

(ب) أن لا يسجن أحد من الرعية سجناً تعسفياً ولا يعامل إلا بما تقضى به قوانين البلاد.

(جـ) وأن لا يجبر الشعب على إيواء الجند والبحارة فى منازل المواطنين أو إستضافتهم بأى حال من الأحوال.

وقد اعتبر الملك هذه المطالب التى جاءت فى (ملتمس الحقوق) افتئاتا على حقوقه وتقييدا لسلطته، فرفضها فى بداية الأمر ثم قبلها بعد تردد طويل، لأنه كان في أشد الحاجة إلى موافقة البرلمان على صرف الأموال التى طلبها، وفعلا قرر المجلس الموافقة على صرفها ولكنه أعد مذكرة ناشد فيها الملك أن يأمر بعزل دوق بكنجهام، فغضب «شارل» واعتبر هذا الطلب– رغم أنه صيغ بعبارات ودية نحو الملك – تدخلا فى (حقه الإلهى) فى الحكم، وتأزمت الحالة فى عام ١٦٢٩ بين الملك والبرلمان، حيث قرر شارل أن يحكم بغير البرلمان ولم يكن للبرلمان حق قانونى فى الاجتماع إلا بدعوة من الملك، ومما زاد الأمر خطورة تفاقم النزاع الدينى أيضاً بين الملك والمجلس وكان الشعب من ورائه يؤيده ضد الملك، بسبب ما ذاع من أنه يميل إلى العودة إلى المذهب الكاثوليكى، ولا سيما أن زوجته كانت تدين بالكاثوليكية[١]، واشتد سخط الملك على مجلس العموم بعد عدة جلسات ساد فيها الهياج والشغب، ورفض المجلس أن ينفض بأمر من الملك، وبقى رئيس المجلس فى مكانه وأعلن المجلس القرار التالى فى نفس الجلسة «إن كل من يدخل فى الدين بدعا كاثوليكية، وكل من يشير بجباية الضرائب قبل موافقة البرلمان، وكل من يؤدى هذه الضريبة يعتبر عدوا للملكة والمصلحة العامة».

بعد ذلك أصدر الملك مرسوما بحل البرلمان، ولم ينعقد المجلس إلا بعد إحدى عشرة سنة (١٦٢٩–١٦٤٠)، كان الملك يحكم أثناءها حكما إستبداديا مطلقاً، كان من نتائجه تهيئة الشعب للقيام بثورة أطاحت به فى النهاية.

---

(١) تزوج شارل بعد توليته العرش هنريت ماريا أخت الملك لويس الثالث عشر وبعد ذلك أشيع أنه تعهد لملك فرنسا بحماية الكاثوليك فى إنجلترا.

وفى أثناء حكمه غير الدستورى انتهز شارل الأول ووزراؤه فرصة حل المجلس لجباية الضرائب بوسائل مختلفة، وكان أشدها تعسفاً ما سمى «بضريبة السفن»، وهى الضريبة التى فرضها لإعداد أسطول كانت إنجلترا فى أشد الحاجة إليه، فلم يتبع العادة القديمة التقليدية وهى تكليف كل ميناء بتقديم عدد معين من السفن لحكومة البلاد، بل فرض ضريبة عامة لهذا الغرض يدفعها جميع المواطنين، وضج الشعب من تعسف حكومة شارل فى جمع هذه الضريبة التى لم يسبق أن وافق عليها البرلمان، وحدثت حادثة دلت على أن الشعب لا يسمح للملك أن يسير على هذا المنهج الاستبدادى، فقد امتنع عن دفع هذه الضريبة أحد أعيان الطبقة الوسطى فى الريف واسمه جون همدن John Hampden مفضلاً المحاكمة والسجن على الإذعان لأوامر الملك ولما رفع أمره للمحكمة حكم ضده المحلفون بأغلبية صغرى، ولكن محاكمته جعلت منه بطلاً وأثارت سخط أغلبية الشعب على الحكم الاستبدادى وتزعزعت الثقة التى ربطت الشعب الإنجليزى زمنا طويلا بملوكه.

وليم لود:

وكان الملك قد اختار وليم لود Wiliam Laud ليكون مستشاره فى الشئون الدينية، فقد كان معجباً به وبآرائه ومبادئه ولذلك عينه رئيساً لأساقفة كنتر أكبر منصب دينى فى الدولة (١٦٣٣)، وبدأ لود يطبق نظرياته ومبادئه، فحاول إجبار جميع رجال الدين على استعمال كتاب الصلوات ودفع الشعب الإنجليزى إلى قبول طقوس دينية كان الناس عندئذ يعتقدون أنها تميل نحو طقوس كنيسة روما، وفرض عقوبات على المعارضين الذين رفضوا قبول تعليماته فكل من يمتنع من القساوسة عن العمل بتقاليد كنيسة الحكومة الرسمية يحاكم أمام المحكمة العليا، وكان بعضهم يحرم من أرزاقه أو يحكم عليه بالجلد فى بعض الأحيان، وكان كل ذلك مدعاة لفرار أعداد كبيرة من البيوريتان الذين هاجر بعضهم إلى هولنده والآخرون إلى أمريكا حيث طبقوا النظم التى كانت تعرف باسم «نيو إنجلند» وهناك طبقوا النظم

التى كانت سائدة فى إنجلترا ولذلك احتفظت نيو إنجلند بكثير من المميزات الأساسية للحكومة الإنجليزية وظل أهل هذه الولايات أكثر عطفاً على إنجلترا من سكان بقية البلاد التى استعمرت بعد ذلك فى الولايات المتحدة.

نزاع شارل مع الاسكتلنديين:

ثم قامت ثورة كبرى ضد الملك فى اسكتلنده فقد اشتدت العداوة بينه وبين الشعب هناك لأنهم رفضوا أن يقبلوا كتاب الصلاة الإنجليكانى الذى حاول شارل الأول ومستشاره رئيس أساقفة كنتربرى أن يفرضاه عليهم، وكانوا فى الوقت نفسه يعارضون حق الملك الإلهى فى الحكم، ويحقدون على تصرفات رجال الدين الذين كانوا آلة البطش فى يد الملك، وكان الاسكتلنديون وهم من غلاة البروتستنت- قد قرروا ألا يحنوا هامتهم لتدخل الملك فى كنيستهم ومذهبم، ووضعوا ميثاقاً سمى بالتحالف القومى The National Covenant عام ١٦٣٨ تسابق الاسكتلنديون جميعاً إلى التوقيع عليه. وبموجب هذا الميثاق يتعهد كل من وقعه أن يبذل أقصى ما لديه من نفس ونفيس لمقاومة أى محاولة لفرض أى نظام دينى يخالف العقيدة، وحاول شارل الأول فى بادىء الأمر أن يفتح باب المفاوضات معهم للتوفيق أو الإقناع، إلا أنه اكتشف أنه أمام أمرين، إما أن ينحنى للعاصفة ويتخلى عن فرض سياسته وإما القتال، واختار القتال.

وكان المال أول عقبة فى سبيل القيام بحملة ناجحة ضد الاسكتلنديين، ولذلك فشلت حملته الأولى عليهم فشلاً ذريعاً واضطر إلى عقد صلح معهم عام ١٦٣٩ ، ولكنه اعتبر هذا الصلح هدنة يستعد بعدها للحرب من جديد بعد أن يحصل على المال اللازم، وهو لا يستطيع الحصول عليه إذا دعا البرلمان للموافقة على الاعتمادات اللازمة لمحاربة إسكتلندة.

واضطر مكرها إلى دعوة المجلس بعد أن دام توقفه بعد حله أحد عشر عاما، فانعقد المجلس عام ١٦٤٠ ، ورغم أن الأعضاء كانوا على استعداد للموافقة على

تدبير المبالغ من أجل الحرب إلا أنهم وجدوا الفرصة سانحة لحث الملك على أن يرفع المظالم التى كانت الأمة تشكو منها، وأخذوا يناقشون هذه المظالم، وإذا بالملك يغضب على المجلس ويأمر بحله ولم يمض على اجتماعه سوى ثلاثة أسابيع (١٣ أبريل - ٥ مايو ١٦٤٠)، ولذلك عرف هذا المجلس باسم البرلمان القصير.

وعاد شارل من جديد إلى محاولة قمع الحركة الاسكتلندية فى نفس العام (١٦٤٠) وكانت حملته الثانية أشد فشلاً من حملته الأولى مما جعله يسلم فعلا بهزيمته ويعود يائسا إلى استدعاء البرلمان بعد أن تبين له أنه لا يستطيع الحصول على المال إلا إذا كان على استعداد للقضاء على ما يشكو منه الشعب، وكان الموقف دقيقا لأن الجيش الاسكتلندى كان قد عبر نهر التويد Tweed واحتل درهام ونورثمرلند وطالب بمبلغ من المال ثمناً للتفكير فى الانسحاب.

البرلمان الطويل:

وجاء المجلس الجديد بعد انتخابات جديدة تمخضت عن عودة الأعضاء السابقين أنفسهم، ويسمى فى التاريخ باسم البرلمان الطويل The Long Parliament إذ لم يقدم ملك من الملوك على حله مدة واحدة وعشرين عاماً.

وما أن بدأ المجلس عمله حتى أثبت استقلاله بالعمل وأصبح منافساً على قدم المساواة لسلطة الملك بل لقد شعر الملك أنه أصبح تحت رحمة البرلمان، وكان أول أعمال هذا المجلس الانتقام من «إيرل استرافورد Stratford» رئيس الوزراء وكلود رئيس الأساقفة، بأن قرر زجهما فى السجن، ووجه المجلس تهمة الخيانة للأول ثم أعدم فى عام ١٦٤١ ووقع الملك بنفسه قرار الاعدام بعد تردد طويل ومحاولة يائسة فى إنقاذه، ونجا «لود» مؤقتاً من الإعدام ولكن بعد أربعة أعوام نفذ الحكم (١٦٤٥).

وبدأ أعضاء مجلس العموم يعملون على إزالة مساوئ العهد، وبدأوا بإصدار قرار بأن يجتمع المجلس كل ثلاثة أعوام على الأقل حتى وأن لم يستدعه الملك،

وأعلن أن البرلمان الحالى لا يحل إلا برغبة أعضائه، ثم ألغى المجلس المحاكم الخاصة محل محكمة «غرفة النجم Star Chamber» وهى محكمة أنشأها هنرى السابع وكانت تساعد الملوك على إخضاع الأشراف وجمع المال منهم ومن غيرهم بوسائل غير قانونية - واستخدمها شارل الأول كأداة لمعاقبة أصحاب الآراء الحرة من البيوريتان - كذلك ألغى المجلس المحكمة العليا High Commission التى كانت تحكم ظلما على المعارضين للملك ولكبير الأساقفة «لود»، ثم أصدر قرارات بإلغاء ضريبة السفن وأعلن أنها غير قانونية، وبالجملة فقد قضى المجلس على النظم التى اتبعها شارل فى حكم البلاد واضطر شارل الأول إلى مسايرة البرلمان، ولكن كان يضمر فى نفسه الإنتقام والإطاحة به فى أول فرصة تسنح له.

وقد لاحت الفرصة للملك عند ظهور الخلاف بين أعضاء المجلس على المسائل الدينية، وبقدر اتحادهم وإجماعهم على اتخاذ الإجراءات السياسية تجاه الملك، لم يتحدوا بنفس القوة تجاه المشكلات الدينية عندما عرضت للمناقشة فقد كانت هناك أقلية تعارض التطرف فى معاملة الكنيسة الانجليزية القومية وبذلك انقسم النواب بين أغلبية تريد الإطاحة بما سموه حكومة الأساقفة Episcopacy وأقلية محافظة تساير الملك وتدافع عن الكنيسة.

وقد وجد الملك فى ذلك الخلاف بصيصا من الأمل فى عودة سلطانه وممارسة سياسته القديمة وتدبير المؤامرات ضد البرلمان، ولما أحست الأغلبية البرلمانية بما يحاك ضدها صممت على فضح ما يدبر فى الظلام ليعرفه الشعب جميعاً، وحرر الأعضاء احتجاجاً أطلقوا عليه اسم «الاحتجاج الأعظم The Grand Remonstrance» (ديسمبر ١٦٤١) ضمنوه كل مساوئ شارل واحدة بعد الأخرى وهى المساوئ التى أفقدت الملك ثقة ممثلى الشعب، وطلب إلى الوزراء أن يكونوا مسئولين من ذلك الحين أمام المجلس، وقرر المجلس طبع هذا الاحتجاج وتوزيعه على الشعب فى جميع البلاد.

فأثار ذلك حنق شارل وقرر أن يقضى على المجلس باستعمال القوة، وفى ٤ يناير ١٦٤٢ ذهب على رأس حرسه إلى مجلس العموم بقصد إرهاب المعارضين والقبض على الزعماء الخمسة الذين قادوا حركة المعارضة[1]، وتقديمهم للمحاكمة بتهمة الخيانة، ودخل المجلس بنفسه للقبض عليهم فلم يجدهم، إذ علموا بما كان مخبأ لهم وفروا من مصيرهم المجهول، وعلمت لندن بما حدث فثارت الجماهير وتحرج موقف الملك ورأى من الحكمة أن يفر هو وأسرته إلى الريف خوفاً من جموع الجماهير المعادية فى لندن ومعظمهم من البيوريتان.

الحرب الأهلية تبدأ عام ١٦٤٢ (ظهور كرومول):

أصبح لا مفر من المواجهة الحربية بين الملك والبرلمان، وأخذ كل يستعد لخوض المعركة، وما لبثت الحرب الأهلية أن اندلعت فى جميع البلاد، وسمى أعوان شارل أنفسهم بالفرسان Cavaliers ومعظمهم من النبلاء، والكاثوليك وانضم إليهم قلة من أعضاء المجلس الذين كانوا يؤيدون نظام الكنيسة الانجليزية، وكان حزب الملك يسيطر على معظم المقاطعات الشمالية والغربية. أما أنصار البرلمان فقد عرفوا بذوى الرؤوس المستديرة Rond heads لأنهم قصوا شعورهم إظهارا لبغضهم ونفورهم من أعدائهم النبلاء الذين اعتادوا إرسال شعورهم حتى أكتافهم،وكانوا يسيطرون على شرق وجنوب إنجلترا.

وقد وفق ذوو الرؤوس المستديرة إلى قائد مقدام قدر له فى النهاية أن يدمر الملك ويخلعه عن العرش وينهى تلك الحرب الضارية ، وهو إليفر كرومول Olivar Cromwell.

وقد كان ألفر كرومول بيوريتانيا ورعا، ألف جيشا جديداً يمتاز أفراده بالحمية الدينية والإخلاص للمبدأ والعقيدة البروتستنتية، وكانت تلك القوة العسكرية شديدة البأس حتى استحقت اللقب الذى أطلق عليها عندما سميت بالحديدية Ironside.

(١) كان هؤلاء الزعماء هم بيم Pym وهمدن Hempden وهازليرج Hazelirgg وهولز Holles وسترود Strode.

وظلت الحرب عدة سنين، وقد تمكن الفرسان فى السنة الأولى من الحرب (١٦٤٣) أن يتفوقوا على خصومهم من حيث إستخدام سلاح الفرسان. ولكن بعد تلك السنة أصبح النصر حليف البرلمان وحزبه إلى أن انهزم الملك هزيمة نهائية فى موقعه نازبى [Nazeby sk سنة ١٦٤٥، ويئس شارل وسلم نفسه للجيش الاسكتلندى الذى كان يعسكر فى الشمال ويحارب فى صف حزب البرلمان (١٦٤٦) فسلمه الاسكتلنديون إلى أعدائه. وبقى شارل فى الأسر بجزيرة ويت مدة سنتين.

وكان فى مجلس العموم أعضاء مازالوا يميلون إلى تهدئة الأحوال وعودة الملك إلى العرش بعد المفاوضة معه على الشروط الواجب إتباعها. إلا أن كرمول وأنصاره صمموا على عدم التسامح مع الملك الذى أطلقوا عليه إسم (رجل الدماء The Man of blood)، ووجوب محاكمته وإعدامه.

وفى ٦ ديسمبر ذهبت قوة من الجنود يرأسها الكولونيل برايد Pride إلى المجلس وطرد برايد كل عضو مشايع للملك وكان عدد من طرد منهم من مجلس العموم مائة وثلاثة وأربعين عضوا ولم يبق بالمجلس سوى ستين عضوا فقط من أكبر خصوم شارل وأشد أعدائه[1]، ولكنهم من الوجهة الشرعية أصبحوا لا يمثلون الشعب كله، ولكنهم على كل حال أخذوا يمارسون سلطتهم، وكان أول قرار لهم هو محاكمة شارل، وأعلنوا أن مجلس العموم الذى يمثل الشعب والحكم بإرادته هو السلطة العليا فى البلاد ومصدر كل الأحكام، وما من حاجة إلى ملك أو مجلس اللوردات لتعطى قراراته صبغة قانونية، وقرروا فى الحال تأليف محكمة خاصة كان أعضاؤها من أشد الناس حقداً على شارل وانتهوا إلى الحكم عليه بالإعدام، وفى ٣٠ يناير ضرب عنق الملك فى ساحة هويت هول أمام القصر الملكى بلندن.

كرومول والحكومة الجمهورية:

وأعلنت الجمهورية فى الجزر البريطانية وأطلق عليها فى تلك الفترة إسم رابطة الشعوب البريطانية Commonwealth وأعلن المجلس أن حكومة انجلترا أصبحت

---

(١) سميت هذه العملية باسم تطهير برايد «Pride's Turge» نسبة إلى الكولونيل برايد الذى قاد الجنود وطهر البرلمان من أنصار الملك أو المشتبه فيهم.

جمهورية بلا ملك ولا مجلس لوردات، وحاول كرمول أن يقيم حكماً صالحاً فى البلاد وأخذ مع أنصاره يضع دستوراً جديدا أطلقوا عليه إسم «أداة الحكم Instrument of Government» وبموجب هذا الدستور أصبحت إنجلترا جمهورية من الناحية النظرية، ولكن كرمول الذى كان يحمل لقب حامى الدولة كان فى واقع الأمر يحكم كملك بغير تاج ، إذ كان يتمتع بسلطة تفوق فى بعض الأحيان السلطة التى كان يتمتع بها شارل الأول.

وعادت النظم البرلمانية القديمة بعد أن أدخل عليها بعض التعديلات ولم يكن للبرلمان الجديد سلطة دستورية كاملة، ولم تكن العلاقات بين كرومول ومجلس العموم ودية دائماً ، لأن أعضاءه كانوا يرتشون ويسندون الوظائف إلى صنائعهم وأقاربهم، فضاق كرومول بهم وأمر بحل المجلس (١٤٥٣) وإجراء إنتخابات جديدة، ولما انعقد المجلس الجديد أثبت فشله فأمر بحله أيضاً، وأصبح زمام الأمور كلها بيد كرومول (حامى الجمهورية) وحكم البلاد حكما دكتاتوريا معتمداً على براعته السياسية وجيشه القوى مدة خمس سنوات، وهو أن واجهته صعوبات جمة فى سياسته الداخلية إلا أنه كان ناجحاً فى سياسته الخارجية، فقد عقد تحالفاً مع فرنسا وساعد الفرنسيين فى حربهم ضد الأسبان، ونالت انجلترا فى نظير ذلك ميناء دنكرك وجزيرة جاميكا ومات كرومول سنة ١٦٥٨ .

عودة الملكية

ظهر ضعف النظام الذى أوجده كرومول بعد وفاته، فقد كانت البلاد فى أشد الحاجة إلى شخصية قديرة تستطيع أن تقوم بأعباء الحكم فى دراية وحكمة، ولكن ولده ريشارد الذى خلفه فى رئاسة الجمهورية كان ضعيف الشخصية على الرغم من أنه كان شاباً ميالاً إلى الخير والإصلاح، فلم يستطع أن يسيطر على الموقف كأبيه فقد واجه عدة صعوبات لم يكن فى مقدوره مواجهتها بالحزم الواجب. أولها أطماع بعض الجمهوريين الذين ظهر منهم زعماء يطمعون فى القيام بانقلابات سياسية، وثالثها الملكيون الذين يرغبون فى عودة ملوك أسرة ستيوارت، وأخيراً الأحزاب الدينية التى تريد فرض مذهبها بالقوة فى البلاد.

واتضح لريتشارد أنه أضعف من أن يواجه الموقف المعقد فتنازل عن العرش، وبقى على الجيش أن يتصرف. وكان أقوى القواد شخصية فى ذلك الحين الجنرال منك Monk وكان هذا القائد من المحافظين الذين يرغبون فى إرجاع الملكية فكاتب شارل الثانى. وهو ابن شارل الأول، الذى كان يعيش فى منفاه بهولنده، وطلب منه العودة إلى إنجلترا لاعتلاء العرش. وقبل شارل وبذلك انتهت الجمهورية وعادت الملكية إلى آل ستيوارت.

شارل الثانى (١٦٦٠-١٦٨٥):

كان الملك الجديد كأبيه يميل إلى الحكم المطلق والاستبداد بالرأى وعلى الرغم من المصير الذى لقيه شارل الأول جزاء استبداده وبطشه فإن ملوك أسرة ستيوارت الذين حكموا البلاد بعد عودة الملكية حاولوا عبثاً مواصلة الحكم الأتوقراطى القديم.

ولكن شارل الثانى كان حذراً فى علاقاته بالبرلمان الذى أطاح بأبيه، فكان يحرص على عدم إثارته أو إغضابه حتى لا يندفع البرلمان مرة أخرى فى طريق التطرف، كما أن الطبقات الممثلة فى البرلمان كانت قد سئمت الاضطربات التى حدثت بالبلاد مدى عشرين سنة، ولذلك كان المجلس الذى انتخب بعد تولية شارل الثانى يميل إلى مسالمته وجعل الوفاق سائداً بين الملك والبرلمان ولذلك ظل الحكم البرلمانى مدعماً مدى ثمانية عشر عاماً لم يحدث خلالها ما يدعو إلى حل المجلس، كذلك كان أعضاء البرلمان فى ذلك العهد على استعداد لدعم الكنيسة الرسمية. ووافق على عدة قوانين ضد البيوريتان، وكان أهمها قانون (توحيد المذاهب)، الذى صدر فى عام ١٦٦٢ ويقضى بأن كل قسيس لا يؤمن بجميع ما ورد فى كتاب الصلوات يفقد منصبه.

وكان الملك شارل الثانى يميل شخصياً إلى كنيسة روما الكاثوليكية، واتبع مع الكاثوليك سياسة التسامح، ولذلك كان الناس يتخوفون من أن يكون هدف الملك إرجاع المذهب الكاثوليكى، وبدأ البرلمان الذى ناصره فى بداية حكمه- يرتاب فى

سياسته الدينية، فأصدر فى عام ١٦٧٣ قانون (الاختبار Test Act» بأن يلتزم جميع رؤساء الدوائر والموظفون بالمشاركة فى طقوس الكنيسة الانجليزية، ويحرم إسناد الوظائف الحكومية من مدنية وعسكرية إلى غير الذين على مذهب الكنيسة الانجليزية.

وقد تبينت سياسة شارل الثانى للرأى العام الانجليزى عندما وقع معاهدة مع لويس الرابع عشر فى عام ١٦٧٠ وعد بموجبها أن يؤيد الكنيسة الكاثوليكية وأن يساعد لويس فى حروبه المتوقعة مع الهولنديين ووعد لويس فى نظير ذلك أن يمد شارل بالجنود والأموال تأييداً له ضد أية ثورة شعبية تقوم ضده فى إنجلترا عندما تسنح الفرصة له بالإنضمام إلى الكنيسة الكاثوليكية فى روما، عندئذ أدرك الشعب أن ملكهم يعبث بكرامة بلاده، فتصبح كإنها تابعة لعدوتها القديمة فرنسا، وأنه يسعى فى إقامة الحكم المطلق وترسيخ الكاثوليكية الرومانية فى إنجلترا بمساعدة دولة أجنبية.

ثورة عام ١٦٨٨،

ولما لم يكن لشارل الثانى وريث من بعده. أصبح أخوه جيمس الثانى (١٦٨٥-١٦٨٩) وريثه الشرعى. وكان جيمس معروفاً بتحمسه الشديد للكاثوليكية وعزمه على إعادتها كمذهب رسمى للبلاد مهما كلفه الأمر. وكانت وراثته للعرش مثارا للمناقشة فى البرلمان، فقد اقترح فريق من الأعضاء أن يصدر المجلس (لائحة الحرمان Exclusion) لمنع جيمس من وراثة العرش. وعند مناقشة هذا الاقتراح انقسم الأعضاء إلى فريقين، محبذ ومعارض. وكان هذا الاختلاف فى الرأى على إصدار قانون الحرمان أساسا لتكوين نظام الحزبين فى البرلمان الانجليزى، وظهر إلى الوجود حزب الهويج Whigs ويتكون من أنصار البيوريتان وهم الذين أيدوا من قبل قيام الثورة الانجليزية الأولى ضد شارل الأول. وأما الحزب الآخر فهو «حزب التورى Tories» وأعضاؤه هم المحافظون الذين يؤيدون الملك وأغلبهم من رجال الدين والنبلاء والأعيان، وبالجملة فهم ذوو الميول الرجعية المتمثلة فى حق الملك المطلق فى

الحكم، وكانوا يقولون إن الخضوع لحاكم كاثوليكى مستبد خير من إثارة حروب أهلية إذا حاول البرلمان حرمان جيمس من حقوقه الوراثية- ولكن حزب التورى لم يكن من القوة فى مجلس العموم بحيث يستطيع منع التصديق على قانون الحرمان، إلا أن مجلس اللوردات- وأغلبيتهم من هذا الحزب- أنقذ الموقف وقرر رفض القانون.

ولما فاز جيمس الثانى بالعرش فى عام ١٦٨٥، أثبت عدم جدارته بثقة الشعب والبرلمان، بل أنه فقد ثقة حزب التورى الذى ناصره ودافع عن حقوقه ورفض قرار مجلس العموم. فقد تحدى الملك البرلمان بأن أصدر «لائحة» التسامح Declaration of Indulgence التى ألغت القوانين التى صدرت من قبل ضد الكاثوليك وغيرهم من أعداء البروتستنت، وأقدم على تعيين عدد من الكاثوليك فى وظائف الحكومة ومناصب الجيش، وبهذه الاجراءات أغضب كلا من التورى والهويج على السواء. فحزب التورى كان يخشى من أن وجود ضباط من الكاثوليك على رأس قيادة الجيش، يجعل الجيش سلاحاً يحارب الكنيسة الانجليزية (الإنجليكانية)، ويفرض نفسه على تصريف الأمور فى البلاد كما هو الحال مع جيش كرومويل. وأما «الهويج» فكانوا ينقمون على الملك عدم احترامه لسلطة البرلمان ومناصرة الكاثوليكية إلى أبعد الحدود.

وكان أمل الشعب الوحيد هو أن جيمس كان مسناً، وله ابنة بروتستنتية من زوجته الأولى سوف تخلفه فى العرش، ولكن جيمس لم يلبث أن رزق ابنا من زوجته الثانية الكاثوليكية، وتبعا لقانون وراثة العرش يصبح الولد أحق بولاية العهد، وبطبيعة الحال سوف يولى على عقيدة أبيه.

ولم يعد أمام الشعب إلا حل واحد هو أن يقرر البرلمان خلع الملك وولى عهده ويدعو ابنته (مارى) إلى تولى العرش. ووافق فعلاً أعضاء الحزبين فى البرلمان على اتخاذ هذا الإجراء، ولما كانت مارى متزوجة من وليم أورانج حاكم هولنده، فقد ذهب وفد من البروتستنت لدعوة وليم إلى القدوم إلى انجلترا ليتولى العرش، ولبى

وليم وماري الدعوة، على اعتبار أنها رغبة الشعب الانجليزي، وفي عام ١٦٨٨ نزل وليم أرض انجلترا وزحف بجيشه على لندن، وناصره الشعب البروتستنتي وتخلى جيش جيمس عن الدفاع عن عرشه ففر إلى فرنسا واستطاع وليم أن يقضي على المقاومة الكاثوليكية التي حاول القيام بها زعماء الكاثوليك في اسكتلنده وإيرلنده.

وقد أطلق الإنجليز على ثورة ١٦٨٨ ضد آل ستيورات إسم (الثورة المجيدة Clorious Revolution)، واعتبروها نجاحاً سياسياً ودستوريا جعلت الشعب مصدر السلطات، لأن الشعب ممثلا في نوابه هو الذي استدعى وليم لاعتلاء العرش، والواقع أن تلك الثورة مهدت السبيل لإعلاء كلمة الشعب وأخذ الملوك الانجليز يفقدون سلطانهم الفعال على الحكومة شيئا فشيئا، ولم يجرؤ أحد من ملوك إنجلترا فيما بعد على رفض أي قرار أصدره مجلس النواب.

إعلان الحقوق:

وقد توج البرلمان انتصاره بإصدار قانون أطلق عليه «إعلان الحقوق Declaration» (١٦٨٩) بيّن فيه افتئات جيمس الثاني على حقوق الشعب. واشترط فيه على الملك الجديد ومن يليه مراعاتها وأنه لا يجوز للملك إلغاء أي قانون أو أن يقوم بزيادة الضرائب أو فرض ضرائب جديدة أو تشكيل جيش إلا بموافقة البرلمان، ومنع سجن أي مواطن من غير محاكمة قانونية. وقد وافق وليم وماري على كل الشروط التي وردت في إعلان الحقوق ، وتولى وليم العرش باسم «وليم الثالث». والواقع أن قانون الحقوق كان من الناحية العملية دستورا يقيد سلطات الملك ويحمي سلطات البرلمان.

ثم صدرت بعد ذلك عدة قوانين لتدعيم السياسة الجديدة، ومنها قانون التسامح الديني (١٦٨٩) وهو القانون الذي منح البروتستنت - الخارجين على نظام الكنيسة الانجليكانية- مزاولة طقوسهم الدينية ولكنه لم يسمح لهم بمزاولة الحياة السياسية والخدمة العامة. كذلك صدر «قانون التسوية Act of Settlement» (١٧٠١) الذي

نص على أنه لا يجوز لكاثوليكى أن يلى العرش وبذلك استبعدت سلالة جيمس عن عرش إنجلترا. وأصبح التاج بعد وليم الثالث من حق «آن» شقيقة زوجته وابنه جيمس الثانى، لأن وليم ومارى لم ينجبا وريثا للعرش.

وأخيرا صدر قانون الوحدة Act of Union وبموجبه أصبحت أسكتلنده وإنجلترا مملكة متحدة. وقد أغرى الانجليز الاسكتلنديين بقبول الوحدة بما سوف يعود على إسكتلندا من الخير العميم باكتسابهم كل امتيازات الانجليز فى المستعمرات وقوانين الملاحة وكل الفوائد الاقتصادية. ومنذ عام ١٧٠٧ تكونت المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى ، وصار المصطلح «بريطانى» يطلق على الإنجليزى والاسكتلندى.

خصائص الثورة الانجليزية:

للثورة الإنجليزية آثار بعيدة المدى إذ أصبح الانجليز فى نظر العالم المتمدين أكثر الشعوب تقدما وأعرقهم فى الحكم الدستورى. فأخذت كثير من الأمم تحاول اقتفاء أثرهم والاقتباس من دساتيرهم التى صدرت منذ القرن السابع عشر.

ويمكن تلخيص النتائج التى ترتبت على الثورتين الانجليزيتين فيما يلى:

١- المجالس النيابية:

انتشرت فكرة إنشاء المجالس النيابية لإصدار القوانين وفرض الضرائب وتقرير سياسة الدولة بعد أن كان ذلك من حق الملك أو مجلس الوزراء.

٢- تركيز الحياة النيابية فى مجلسين:

كانت الحياة النيابية تتمثل فى مجلسين، مجلس اللوردات، ويمثل الارستقراطية الانجليزية، ومجلس العموم يمثل الديمقراطية بأجلى معانيها. وكما كانت إنجلترا أسبق الدول إلى التمتع بالحياة الدستورية فقد أخذت عنها الشعوب الأخرى ولذلك نجد نظام المجلسين قد طبق فى أغلب دول العالم كفرنسا وبروسيا واليابان وأسبانيا ومصر وغيرها.

٣- التمثيل النيابى على حسب الدوائر الانتخابية:

أخذت معظم دول العالم عن إنجلترا نظامها الانتخابى حيث أصبح عضو البرلمان يمثل دائرة إنتخابية على حسب التقسيم الجغرافى الذى تراه الدولة، فالعضو لا يمثل طبقة إجتماعية أو إقتصادية معينة ولا يمثل حزباً سياسيا خاصا ولكنه يمثل جميع سكان دائرته.. وقد كان أعضاء البرلمان الانجليزى فى أول أمره يمثلون أربع طبقات إجتماعية كبيرة، الطبقة الارستقراطية الإقطاعية، وطبقة رجال الدين. والطبقة الوسطى للزراع. والطبقة الوسطى فى المدن (البورجوازى) وقد كان مجلس اللوردات يضم نواب الطبقتين الأوليين بالتدريج وأصبح ممثلو الطبقة الوسطى (البورجوازى) يمثلون الدوائر التى انتخبوا فيها سواء من الريف أو المدن.

٤- الوعى السياسى لحقوق الفرد:

كان للثورات الانجليزية على الأخص ثورة البيوريتان أثر بالغ فى إدراك الفرد لحقوقه السياسية، ففى العصور الوسطى كانت المجالس النيابية تمثل الطبقات وتدافع عن امتيازاتها ولكن فى القرن السابع عشر نمت فى إنجلترا روح الفردية التى تعارض امتياز الطبقات، وكان من أسباب نمو هذه الروح أن ثوار الطبقة الوسطى «ذوى الرؤوس المستديرة» كانوا يكرهون الاعتراف بتميز الطبقة الارستقراطية عليهم وبذلك سرت روح الشجاعة وحرية الرأى بينهم، ونادوا بالمساواة بين الطبقات وبأحقية كل فرد فى انتخاب نوابه الذين يشتركون فى وضع القوانين التى سيخضع لها. وتلك هى الفكرة التى تسود العالم الآن.

٥- نظام الحزبين Two Party System:

نشأ هذا النظام فى إنجلترا عندما إنقسم الأعضاء حزبين عندما عرض قانون الحرمان فى عهد شارل الثانى، فنشأ حزبا الهويج والتورى، وظل حزب الهويج بعد ذلك يعمل على إضعاف سلطة الملك بينما حرص حزب التورى على المحافظة على

تلك السلطة. وتطور الحزبان حتى سمى أولهما بالأحرار والثانى بالمحافظين، ويقول المعجبون بالحياة النيابية فى إنجلترا إن سر نجاح الحياة النيابية هناك يعود إلى نظام الحزبين.

٦-نظام مجالس الوزراء Cabinet System:

يعتبر نظام مجالس الوزراء كنتيجة غير مباشرة للثورات الانجليزية فى القرن السابع عشر فقد كان من عادة ملوك ستيورات أن يختاروا مجموعة من كبار السياسيين ذوى النفوذ، كانوا عادة من الأشراف كمستشارين لهم يعاونونهم فى شئون الحكم. كالإشراف على المالية أو الشئون الحربية، وكانوا يجتمعون عند الملك للمباحثة فى المسائل العامة. وقبل ثورة ١٦٨٨ كان مجلسهم يتكون من أعضاء المجلس المقربين، أما بعد الثورة، فقد اعتاد الملوك بالتدرج على اختيارهم من بين زعماء الحزب الذى يملك الأغلبية فى مجلس العموم. وعندما تولى العرش الملك جورج الأول وهو الزوج الألمانى للأميرة الإنجليزية «آن» سنة ١٧١٤، خطا نظام مجلس الوزراء خطوة أخرى، فقد كان الملك لا يعرف الإنجليزية ولا يهتم بشئون البلاد، فسمح للمجلس أن يستقل بتصريف شئون الحكم دون أن يحضر إجتماعاته.

وهكذا خطا نظام الحكم خطوتين: أولها إختصاصه بإدارة الشئون العامة. وثانيها إعتماده على ثقة الأغلبية فى مجلس العموم ثم خطا بعد ذلك خطوة ثالثة فى الربع الثانى من القرن ١٨ هى اختيار «رئيس لمجلس الوزراء» [١].

٧- تطور النظريات السياسية:

نظريات جون لوك: وأخيراً. فإن الثورات الإنجليزية قد أثرت فى تطور نظريات الحقوق الطبيعية والسيادة الشعبية، فقد ألف كبار الأدباء من مؤيدى الثورة كتبا تبحث

(١) كان ذلك عندما أطلق هذا اللقب Prime Minister لأول مرة على السير روبرت والبول Walpole زعيم حزب (الهويج).

فى أصولها ونتائجها وكان أشهرها كتاب جان لوك[1] الذى نشره بعد الثورة مباشرة، وقد كان لوك معارضا للحكم الأوتوقراطى. فقد كان أبوه من الزعماء البيوريتان الذين ثاروا ضد شارل الأول، وقد اضطر جون لوك نفسه إلى الفرار منفيا فى هولندة أيام حكم الملك شارل الثانى وجيمس الثانى. فلما قامت ثورة ١٦٨٨ استطاع العودة إلى إنجلترا حيث عين فى منصب حكومى فى عهد وليم أورنج ومارى. وقد عالج بحوثه عن النظريات السياسية التى قامت الثورة على أساسها. بطريقة منطقية رياضية (وقد كان لوك مغرماً بالرياضة والعلوم)، فقد قال أن كل فرد له حقوق طبيعية فى الحياة، والحرية، والتملك، وقد تعارف الناس على تأسيس الحكومات لحماية هذه الحقوق. فإذا فشلت الحكومة فى القيام بمهمتها، فإن للشعب الحق فى الثورة عليها وطردها من الحكم. فالشعب إذن هو السيد الحقيقى والقوة التى تسند العرش. تلك هى نظرية السيادة الشعبية، ولما كان «الشعب» هو مجموعة من الأفراد متساوين فى الحقوق. فيجب أن تتحكم أغلبية هؤلاء الأفراد فى تقرير الأمور، وعلى ذلك فقد كان من رأيه ما دامت الحكومة تهدف إلى حماية حرية الأفراد فليس من حقها أن تتدخل فى حرية المواطنين الدينية، واستثنى من ذلك الإلحاد والكاثوليكية. وقد انتشرت مذاهب لوك السياسية فى أمريكا وفرنسا وغيرها. وقد اتخذت كمبررات لقيام الثورة الأمريكية حتى لتراها مثبتة فى إعلان الاستقلال. ورددها رجال الثورة الفرنسية فى خطبهم التى حملوا فيها على الحكم الأوتوقراطى فى فرنسا سنة ١٧٨٩. وبالجملة فقد اعتبرت نظريات لوك قاعدة لمعظم دساتير العالم.

الديمقراطية ليست نتيجة مباشرة للثورات الإنجليزية:

ولكن ليس معنى هذا أن الديمقراطية التى تعتنقها الآن معظم الشعوب هى نتيجة مباشرة للثورات الانجليزية. وتتبين لنا تلك الحقيقة عند دراسة نوع الحكومة الانجليزية فى نهاية القرن السابع عشر وفى أثناء القرن الثامن عشر. أى بعد انتهاء تلك الثورات.

---

(١) John Locke : Treatises of Covernment

لم يكن البرلمان الانجليزى ديمقراطيا فى القرن الثامن عشر:

فقد كان مجلس اللوردات يتكون من الأشراف والرؤساء الدينيين الذين تعينهم الحكومة، كان مجلس العموم يتكون من النواب الذين يختارهم الشعب. ولكن لم يكن حق الانتخابات عاماً، لا تستطيع الطبقات الفقيرة أن تشترك فى الانتخابات. والواقع أن الأشراف الأغنياء كانوا يتحكمون فى انتخاب ما يقرب من نصف عدد أعضاء مجلس العموم، وكان الأغنياء فى المدن الكبيرة يتحكمون به فى انتخاب النائب، إذ كان كثير من المواطنين محرومين من حق الانتخاب. أضف إلى ذلك أن عدداً من المدن الكبيرة لم يكن لها ممثل فى المجلس، وبالجملة فقد كان البرلمان يمثل الطبقات العليا كالأشراف وكبار الملاك وأغنياء التجار فقط.

الحكومة الإنجليزية كانت أرستقراطية:

كانت تحكم إنجلترا فى النصف الأول من القرن الثامن عشر حكومة (اليجاركيه) من النبلاء وكبار الأغنياء من حزب (الهويج) وانتشر الفساد والرشوة بين الزعماء الذين اتخذوا الوطنية وسيلة للوصول إلى الحكم والثراء وإرضاء الشهوات. فكبار الملاك مثلا وضعوا قانوناً يمنحهم حق تصدير القمح– مما جعل جمهور الشعب يضج من غلاء الخبز وندرته، ومثل ذلك القانون الذى وضع لخدمة كبار التجار وأصحاب المصانع بتخفيض رسوم الجمارك على الواردات من المواد الخام والمصنوعات التى يصدرونها إلى الخارج. وبذلك يقع الغرم كله على عاتق الشعب.

والخلاصة أن الثورة الإنجليزية على الحكم الأوتوقراطى لم تتمخض عند تأسيس الديمقراطية بروحها ومعناها فى إنجلترا ولكنها أنتجت حكومة أوليجاركية من النبلاء والأعيان وكبار التجار فلم تكن حكومة تمثل الشعب بأجمعه.

أما الآثار الحقيقية التى ترتبت عليها فهى مجموعة من الدساتير والآراء والنظريات كانت هى الأسس التى قامت عليها الديمقراطية فى القرون التالية، إذ ورثت الديمقراطية منها التمثيل النيابى والمسئوليات الوزارية ونظام الحزبين. وحكم الأغلبية ونظام تقسيم الدوائر الانتخابية، ونظرية السيادة الشعبية.

الفصل الثانى عشر

ظهور روسيا

كانت أوروبا الكاثوليكية تمتد من شواطئها الغربية حتى بولنده أما ما وراء ذلك فى إتجاه الشرق- حيث كانت توجد دوقية موسكو الناشئة - فكانت الإرثوذكسية هى المذهب الشائع، والسلافية هى اللغة السائدة. ويبدأ تاريخ هذه الدوقية بوضوح فى عهد إيفان المرعب (١٤٦٢-١٥٠٥) الذى استطاع أن يعلن إستقلاله عن الامبراطورية المغولية فكان ذلك بداية لنمو دولة جديدة.

وكانت هذه الدوقية تقوم وسط سهول واسعة ممتدة شرقاً وغرباً وجنوبا وشمالاً. ولا تستطيع أن تجد بسهولة حدودا طبيعية ترتكز عليها. ولهذا كان إختلاط المسكوف بالعناصر المغولية أمرا طبيعيا ولكن حيث أن الامبراطورية المغولية كانت قد انهارت، وحيث أن السويد كان قد أصبحت دولة قوية تمد سلطانها على شواطئ بحر البلطيق، وحيث أن بولنده الكاثوليكية كانت تمثل حاجزاً قويا فى وجه أى توسع من جانب دوقية موسكو فى إتجاه الغرب. وحيث أن الأتراك العثمانيين كانوا فى ذروة قوتهم وبسطوا حمايتهم على خانات القرم فسدوا الطريق إلى البحر الأسود أمام الروس. إتجه الروس إلى الإنتشار نحو الشرق.

كان الروس فى اتجاههم شرقاً لا يقومون بمجرد عمليات غزو وتوسع. وإنما كانوا يقومون بعمل حضارى متعدد الجوانب حتى بعد أن عبروا الأورال وتوغلوا فى سيبريا. كانوا يقومون ببناء المدن ويقومون بأعمال تجارية ناجحة. أدت إلى انتعاش البلاد ماديا. ونظرا لما كان فى روسيا الشمالية من ثروة ضخمة متمثلة فى الحيوانات ذات الفراء. جاء المغامرون الأوروبيون الباحثون عن الفراء والثروة إلى روسيا. ومن أول من وصل إليها من هؤلاء المغامرين «الإنجليزى ريتشارد تشانسلار». Richard Chanceller جاءها عن طريق ميناء أركانجل الشمالى.

وهذا يبين لنا كيف أن الطرق القصيرة الموصلة بين أوروبا وروسيا كانت غير مستخدمة على نطاق واسع.

فلقد كانت الملكية فى السويد تدرك أن روسيا - وقد اتسعت مساحتها - لا يجب أن تحصل على فرص تمكنها من الاتصال المباشر مع مراكز الحضارة الأوروبية حتى لا تتطور. وحتى تستطيع السويد - فى نفس الوقت الاحتفاظ بما تحت يدها من أراض على طول الشواطئ الجنوبية للبلطيق.

أما بولندة الكاثوليكية. فكانت معادية لروسيا السلافية الأرثوذكسية بل كانت بولنده تطمع فى السيطرة على روسيا. وكان البولنديون حينذاك - إذا قيسوا بالروس - يعتبرون متقدمين عليهم تقدما كبيرا، ولذلك كانوا كذلك حجر عثرة أمام الاتصال المباشر الروسى بقلب أوروبا.

أما الدولة العثمانية فكانت عدوا تقليديا ومكروها شديد الكراهية لدى الروس. لا بسبب الخلاف فى الدين. وإنما أيضا لأن العثمانيين هم الذين استولوا على القسطنطينية مقر البطريك الأرثوذكسى الأمر الذى كان يوغر صدور الروس باستمرار ضد الأتراك العثمانيين ومن ثم كان من المستبعد أن يفتحوا طريقاً بين الروس والبحر المتوسط.

لهذا كان ميناء أركانجل عظيم الأهمية بالنسبة للروس إذ كان المنفذ الوحيد الروسى الذى يفتح أمامهم باب الاتصال بأوروبا. ولكنه كان بابا يغلق لفترات طويلة خلال الشتاء بسبب تجمد المياه. ومن ثم كان على حكام روسيا أن يسعوا إلى المياه الدفيئة ولن يتم هذا إلا بعد وقت ليس بقصير.

بعد إيفان المرعب، عانت البلاد من موجة من (الفوضى عنيفة). ولم تستقر الأمور إلى حد ما إلا بعد أن أنتخب الأمراء «ميشيل رومانوف» وكان لا يزال صبيا قيصراً عليهم (١٦١٣). فكان هذا هو مؤسس أسرة «رومانوف» - التى ستستمر على عرش روسيا حتى الثورة البلشفية فى ١٩١٧.

كانت أيام ميشيل رومانوف عصيبة، وكانت البلاد أشبه بما كانت عليه أوروبا فى أعقاب تفكك إمبراطورية شرلمان. كان للنبلاء قوة كبيرة تستطيع أن تفرض نفسها على القيصر، وكان القيصر يرى أن مستقبل البلاد يتطلب حكما مركزيا قويا. وكان حينذاك أمامهم مثال مخيف عن مصير الدولة التى لا يحكمها ملك قوى السلطة. فقد كانت بولندة تحت سيطرة وتوجيه النبلاء، وكانوا فى صراع فيما بينهم حتى أدى الأمر إلى تدهورها وكان آل رومانوف يرون أن الطريقة المثلى لتجنب مثل هذا المصير هو وضع كافة السلطات فى يد القيصر. ولذلك ستظهر فى روسيا ملكية مطلقة مستبدة مشابهة لتلك الصورة التى طالعتنا فى دول أوروبا القومية خلال فترة الانتقال من العصور الوسطى إلى عصر النهضة الأوروبية.

أما الكنيسة الأرثوذكسية فى روسيا فكانت متخلفة إلى حد كبير عن الكنيسة الكاثوليكية. وكانت السلطات الحاكمة قد أقامت بطريركية مستقلة فى روسيا فى ١٥٨٩ بعد أن تبين لها أن بطريق القسطنطينية غير حر فى تصريف أمور الكنيسة لوجوده فى قلب العاصمة العثمانية (القسطنطينية).

وليس معنى هذا أن الكنيسة قبعت وراء جدار العقائد المذهبية وإنما كانت تعيد النظر فى أحوالها وقدرتها على القيام برسالتها. وكانت مجالات الإصلاح الكنسى واسعة فى روسيا حينذاك بل وكانت ملحة منذ أن انساق رجال الدين أنفسهم إلى تقاليد أنحرفت بهم- فى نظر بعض رجال الدين - عن جادة الصواب. وتمسكوا بما تحت أيديهم من نسخ من الإنجيل محرفة. وأدرك كبار رجال الدين فى الكنيسة الأرثوذكسية أن الوقت قد حان لإعادة النظر فى هذه الأخطاء (منتصف القرن السابع عشر).

وشرع المصلحون الدينيون يغيرون ويلغون بعض ما رأوه بعيداً عن المسيحية الصحيحة. ولكن هذه الإتجاهات الإصلاحية- شأنها شأن أى إصلاح جديد- كان

يلقى مقاومة من المتشبثين بالماضى الرافضين للتعديلات. بل لقد كان عدد كبير من صغار رجال الدين يقوّم هذه الاصطلاحات ويرى فيها خروجاً عن الدين المسيحى. وكان من اليسير على صغار رجال الدين أن يحضوا الفلاحين - بصفة خاصة على عدم الانصياع لما أدخله المصلحون من أساليب ومفاهيم جديدة فى الكنيسة الارثوذكسية. ولجأ المصلحون إلى الحكومة، وإلى القوة، ولكن ستكون لهذه الاصطلاحات ولتلك الأساليب العنيفة التى استخدمت لتنفيذها نتائج خطيرة إذ أعدت أذهان الفلاحين للثورة على الحكومة عندما تحين الفرصة.

ولقد كان لدى الفلاحين الكثير من الدوافع التى تحضهم على الثورة ضد الحكومة وضد كبار الملاك والنبلاء. وكان هؤلاء النبلاء وكبار الملاك يعتمدون على إقطاعاتهم الواسعة وكان استمرار ارتفاع مدخول كبار الملاك منها يتوقف على استمرار بقاء الفلاح فى أدنى المستويات. وكلما سنحت فرصة أمام الفلاح للفرار أو الثورة على هذه الأوضاع كانت الحكومة والنبلاء وكبار الملاك يوجهون إليه أشد الضربات ويفرضون عليه أقسى القوانين التى ترغمه على أن يرتبط بالأرض وأن يصبح مجرد قن (عبد)، بل وعلى أن يصبح مجرد سلعة يتداولها كبار الملاك.

وخلال فترات الفوضى التى كانت تتعرض لها البلاد بسبب الحرب الداخلية كان الفلاحون ينتهزون هذه الفرصة للفرار من الأراضى الأمر الذى كان يصيب الانتاج الزراعى بتدهور كبير. وطبقاً للإتجاهات الفكرية السائدة فى ذلك العصر كان علاج هذه المشكلة يتم بالضغط والإرهاب وتكبيل الفلاح بقيود أشد من تلك التى كان يعيش تحتها.

ولذلك صدرت القوانين التى تعطى للنبلاء ولكبار الملاك حق استرداد الفلاحين (الأقنان) حتى ولو مضى على فرارهم أكثر من خمس عشرة سنة. وبالتالى أصبح فرار الفلاح من سيده يعنى أنه لجأ إلى الثورة والتمرد، وأن لا خلاص له من العبودية إلا إذا استمر فى ثورته وتمرده.

وفى مثل هذه الظروف، وفى بلاد مترامية الأطراف، كان من الممكن أن تتكون جماعات كبيرة العدد نسبياً من الفلاحين قادرة على حمل السلاح والعمل تحت قيادة تدافع عن مصالحهم. وكان ستيفن رازين[1] من أشهر من قاد الفلاحين فى ثورة عارمة ضخمة.

كانت ثورة الفلاحين تحت قيادة (رازين) – فى نظر بعض المؤرخين – واحدة من الثورات الطبقية التى هدفت إلى تجميع قوى الفلاحين ضد كبار الملاك والنبلاء. وكانت فعلاً ثورة لتحرير الفلاح من الظلم ومن العبودية، ولكنها كانت ذات أهداف تسلطية أكثر منها محاولة لإعادة تنظيم المجتمع مثلما حدث بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧.

وعلى أى حال كانت ثورة عارمة، استطاعت أن تجتاح الكثير من أراضى وممتلكات كبار الملاك والنبلاء، واستولت على عدة مدن ولكنها لم تكن ثورة قادرة على خلق نظام جديد حاكم تستطيع أن تستند إليه لمتابعة حركتها ضد القوى المناهضة لها، بل لقد كانت هذه القوى المناهضة للثورة الفلاحية أكثر تنظيماً، وعلى رأسها جيش الدولة نفسها. ولم تلبث أن ضعفت الثورة، وسقط قائدها نفسه فى يد أعدائه وأعدم فى ١٦٧١.

وقعت هذه الأحداث الكبرى خلال السنوات القليلة التى سبقت اعتلاء بطرس عرش روسيا فى (١٦٨٢). وكان هذا سببا فى أن تصبح البلاد فى أيامه أكثر هدوءا عن ذى قبل، وأن يحصل بذلك على الفرصة التى تمكنه من إعادة النظر فى أجهزة الدولة كلها لرفعها. إلى مستوى العصر.

لم يحكم بطرس فى أول الأمر منفردا، ولم يكن سوى صبى يشارك أخاه فى العرش تحت وصاية أختهما صوفيا[2]. ولكن الفتى كان طموحاً، وكان أخوه

(١) Stephan Razin.

(٢) Sophia.

ضعيف الفكر ناقص العقل، فلما بلغ السابعة عشرة من عمره نحى أخته جانبا، وبعث بها إلى أحد الأديرة، لينفرد هو بالحكم.

يعتبر بطرس- الذى لقب بالأكبر - واحدا من مؤسسى الدول. ولكنه كان- مثل غيره من مؤسسى الدول- شديد التمسك بالسلطات كافة. ولعل هذا هو طبيعة التطور فى مثل هذه الظروف. فمؤسس الدولة يكون عادة فى حاجة إلى سلطات استثنائية حتى يواجه مرحلة الانتقال. فالأفكار جديدة. والمعارضون كثيرون، والعقبات بعضها متوقع وكثير منها غير متوقع، والحفاظ على ما أنجز من إصلاحات يتطلب قبضة قوية تستطيع أن تواجه كافة الظروف. ولكن ذهب بطرس الأكبر فى الحكم الملكى المطلق إلى أبعد مما ذهب إليه ملوك أوروبا حينذاك.

لم تكن هناك مؤسسات قوية تستطيع أن تشاركه الحكم أو أن تفرض نفسها عليه، كان هناك مجلس الدوما[1]، ولكنه كان قد ضعف وكذلك كان حال المجلس الوطنى.

كان الأول مجرد مجلس مؤلف من كبار مستشارى القيصر، وأما الثانى فكان أشبه بأن يكون مجلساً للنبلاء ولكبار الملاك من مختلف الولايات. وكان نمو القيصرية يعنى ضعف مثل هذه المجالس.

ومن ثم كانت مهمة بطرس فى التفوق على (الدوما) وعلى (المجلس الوطنى) يسيرة. فقوض ما تبقى منهما، وعلى أنقاضهما أنشأ مجلس «الشيوخ Senato» ولكنه مجلس يأتمر بأوامر بطرس، إلى جانب هذا أنشأ حكومات محلية مهمتها تنفيذ أوامره. أو بمعنى آخر كانت الأجهزة الداخلية تحت سيطرته بوضوح.

كذلك عمل بطرس الأكبر على السيطرة بقوة على الكنيسة. خاصة وأنها تقاوم مجهوداته الكبيرة لإدخال الحضارة الغربية إلى البلاد، وكان هو يرى فى هذه المقاومة مظهراً من مظاهر التخلف، فقرر أن يتحكم فى اتجاهات الكنيسة، وأن يجعلها

(١) Dama.

أداة تسير وفق سياسته فانتهز فرصة وفاة البطريرك، وتجاهل تعيين بطريرك جديد، ثم وضع الكنيسة تحت إشراف لجنة من الأساقفة، ووضع رقيبا من قبل الحكومة على أعمال الكنيسة، ولم يلبث أن أصبح القيصر على رأس الكنيسة.

كان بطرس قد أدرك أن روسيا متخلفة عن الدول الأوروبية فى كافة مجالات الحياة. وكان يرى مستوى الفكر فى أوروبا أرقى بكثير منه فى روسيا، وأن مستوى إعداد الجيوش وتسليحها وبناء السفن والأساليب التجارية المحلية والعالمية أكثر تقدما بكثير جداً مما هو فى روسيا. وفوق هذا وذاك شاهد خلال تنقلاته فى أوروبا نظماً عسكرية أعطت الدول الأوروبية تفوقا وأمنا كانت روسيا فى حاجة ماسة إليهما لمواجهة قوى كبرى مجاورة لروسيا تحصرها فى السهول الواقعة بين الشرق الأقصى وأوروبا، فلا هى بقادرة على أن تشارك أوروبا تطورها، ولا هى بقادرة على أن تنفذ إلى بحر البلطيق ولا البحر الأسود.

لقد كانت روسيا فى حاجة إلى عملية تجديد شاملة فى الداخل، تمكنها من تنفيذ سياسة خارجية نشطة. وكان بطرس موقنا بالحاجة إلى رفع مستوى الإنتاج، بل وبأن رفع مستوى الجيش مثلا لا يعنى فقط إستخدام الأسلحة الحديثة وإنما رفع المستوى الفكرى أيضا لدى ضباط جيشه.

وعزم بطرس على أن ينقل الحضارة الأوروبية إلى روسيا، وكان هو نفسه قد عاشها فى أحواض السفن فى امستردام، وفى بلاط ملوك أوروبا. فاستقدم من أوروبا الألوف من الفنيين فى مختلف فروع الحضارة الأوروبية. وعنى بصفة خاصة ببناء جيش عصرى يستطيع أن يكسر الحصار الذى ضربه عليه السويديون والبولنديون والأتراك العثمانيون.

إن مثل هذه الخطوات الجريئة الإصلاحية التى تستهدف تغيير شكل الدول تغييراً جذريا تتطلب رءوس أموال ضخمة. وكان بطرس يرى أن الشعب مسئول عن تقديم هذه الأموال التى تنفق على رفع مستواه. وأسرف بطرس فى فرض الضرائب

حتى لقد كانت تفرض على أشياء عجيبة. وكان عبء هذه الضرائب يقع على الفلاحين أكثر من غيرهم لسبب بسيط وهو أنهم أكثر استقرارا، فى متناول رجال الحكومة. ولهذا زادت القيود المفروضة على الفلاحين (الأقنان).

وفى التجارة، عنى بطرس بفتح مجالاتها، آخذا بالمذهب الاقتصادى الشائع حينذاك (المركانتيلية Mercantilism) وهى نظرية تقوم على أساس جعل الميزان التجارى لصالح البلاد بأن تكون صادراتها أكثر - إلى أقصى طاقة ممكنة- من وارداتها. ولهذا عنى بطرس الأكبر برفع قدرات بلاده الإنتاجية حتى توفر حاجاتها من الانتاج الصناعى، وتمكن الرأسمالية المحلية - بمساعدة الحكومة - من تكوين شركات كبيرة إنتاجية، حتى ترتفع معدلات التصدير - بواسطة الأسطول التجارى الروسى الذى أنشأه حديثاً- إلى أقصى الدرجات.

وحتى خلال عملية خلق صناعات حديثه فى ذلك الوقت، وهى مرحلة كان من الممكن أن تعطى الفلاح الروسى فرصة للتخلص من العبودية بالانتقال إلى المصنع،. لم تترك هذه الفرصة له. إذ أن الفلاح القن تحول إلى عامل (قن) فى المصانع وفى المناجم. فكان هذا أسوأ تطور فى عمليات التجديد والتطوير فى روسيا على عهد بطرس.

أما فى مجال السياسة الخارجية، فقد كانت أولى جهوده موجهة ضد الأتراك العثمانيين الذين كانوا يسيطرون على سواحل البحر الأسود. وكان بطرس يدرك قيمة الوصول إلى مياه هذا البحر وجاءته فرصة طيبة لتحقيق هذا الاتجاه بعد اعتلائه العرش بمدة قصيرة. إذ انتهز فرصة اشتباك الإمبراطورية الرومانية المقدسة فى حرب مع الدولة العثمانية، وأعلن الحرب على الأخيرة وحصل من وراء هذه الحرب على « ازوف » Azou.

وبصفة عامة كانت الجبهات الخارجية التى شغلت بطرس الأكبر هى:

١ـ الجبهة السويدية وكانت من أخطر الجبهات على مستقبل بطرس نفسه.

٢ـ الجبهة البولندية، وكانت ضعيفة ولكنها تعطى الفرص لقوًى أخرى كى تتوسع على حساب بولندة وبالتالى تصبح خطرا على روسيا.

٣ـ الجبهة التركية العثمانية وهذه لم تعد مقصورة على مناطق التقاء الحدود العثمانية الروسية وإنما امتدت إلى تسابق بين القيصر والسلطان العثمانى على الاستيلاء على أكبر قدر من ممتلكات الأسرة الصفوية الفارسية المنهارة.

كانت المشكلة السويدية متداخلة مع المشكلة البولندية. فقد كانت بولندة كاثوليكية ضعيفة، وكانت جاراتها طامعة فيها، وكان على العرش البولندى رجل من أسرة فاز [١] السويدية، ولكن كان الفرع الحاكم فى بولندة متمسكا بكاثوليكيتة وكانت هذه الأسرة لا تزال متمسكة بمطالبها فى عرش السويد. كانت أسرة فازا البولندية ـ من جهة نظرها ـ تريد أن تعيد الإيمان الى السويد، وكان ملوك السويد ابتداءً من جستاف أدولف [٢] يسعون إلى تقويض هذه الأسرة الكاثوليكية، بل واحتلال بولندة نفسها.

ولربما كان فى استطاعة ملوك السويد أن يحققوا أهدافهم كاملة لو لم تتدخل الإمبراطورية الرومانية المقدسة (الإمبراطورية النمساوية) لإنقاذ بولندة الكاثوليكية من براثن بروتستنت الشمال. ولكن الأحقاد ظلت دفينة تنطلق من وقت لآخر. والآمال تنتظر من يؤججها . وعندما اعتلى شارل الثانى عشر عرش السويد تحركت آمال السويد بقوة فى اتجاه بولنده (١٧٠٠).

كان شارل الثانى عشر فتيا مزهوا بفتوته، زهوا بلغ به حد التهور، أحرز الكثير من الانتصارات على أعدائه فى ألمانيا فكان ذلك عاملا جوهريا فى إيمانه بكفاءته الخارقة، وقدرته على أن يذل أقوى الرجال والجيوش. وكان يعتقد اعتقادا راسخا أن جيشه ـ الذى كان يضرب بقوة فى ألمانيا تارة وفى بولندة أخرى ـ لا يمكن أن

---

(١) Vasc.

(٢) G. Adolf.

ينهزم أمام أولئك الروس الأجلاف الذى كوّن منهم بطرس الأكبر جيشا ليدافع به عن بلاده ضد جيش السويد الذى كان مضرب الأمثال فى التنظيم والقوة.

وكانت القوى العديدة التى أذلها السويديون تنتظر الفرصة لتتحالف فيما بينها ضد السويد. وعندما توفى ملك السويد فى ١٦٩٧ عقد بطرس الأكبر حلفا مع كل من الدنمرك وبولندة ضد السويد. ولكنهم وجدوا أنفسهم أمام ملك جيد شديد فى العنف لا يتورع عن نقل المعركة إلى قلب أراضى أعدائه. فقد انتصر على الدنمرك وعلى أمير ساكسونى ليلتحم بعد ذلك بجيش بطرس الأكبر.

كان جيش بطرس كبيرا يناهز أربعة أضعاف جيش شارل الثانى عشر. ولكن الجيش السويدى كان موقنا من النصر، وكان يعتمد على قيادة ملتهبة الحماس، وكانت التجربة قاسية بالنسبة لبطرس الأكبر فقد انقض شارل الثانى عشر على الجيش الروسى فى موقعة نافارا Navara (نوفمبر ١٧٠٠) فدحره وشتت شمله تشتيتا.

حقيقة كان بطرس الأكبر قد أدخل بعض التعديلات والتجهيزات الحديثة على جيشة قبل (نافارا) ولكنه من بعدها أسرع فى سياسة إعادة بناء الجيش على أسس أكثر عصرية. وكان بطرس الأكبر فى حاجة إلى وقت يتمكن خلاله من إعادة بناء جيشه. ولقد أعطاه شارل الثانى عشر هذه الفرصة. وأغلب الظن أن شارل الثانى عشر ـ الذى انهمك فى التحكم فى بولنده تاركا الروس لشأنهم ـ إنما كان يستخف بالروس وبقيصرهم. وكان هذا أحد الأخطاء القاتلة التى وقع فيها شارل الثانى عشر.

فقد انتهز بطرس الفرصة تماما، وأعاد تشكيل جيشه وأسند قيادته إلى قائد عبقرى هو شرمتييف Sheremetief وتولى هذا القائد مهمة الاستيلاء على الولايات

البلطيقية التى كانت تحت يد ملك السويد. ولذلك بعد أن صفى شارل الثانى عشر مشاكله مع بولنده وساكسونى والإمبراطورية النمساوية وضع خطتة الجريئة ضد روسيا موضع التنفيذ.

هبط شارل الثانى عشر بجيشة إلى روسيا، وكان هذا من مصلحة بطرس الأكبر، بل لقد أمعن بطرس فى استدراجه إلى داخل روسيا، وكانت كافة الظروف تخدم بطرس الأكبر، من حيث طول مواصلات خصمه، ومن اشتداد البرد على الجند السويديين، وكان بردا منقطع النظير فى خلال تلك العمليات العسكرية.

وفى بلتانا[1] دارت الدائرة على الجيش السويدى وتشتت حتى أنه لم يبق تحت قيادة شارل الثانى عشر سوى عدة مئات استطاع بهم أن يفر الى الأراضى التركية (العثمانية).

فتح هذا الانتصار الكبير أبواب أوروبا أمام بطرس الأكبر، وأعطى الروس ثقة بأنفسهم بعد هذا الفوز على خيرة جيوش العالم حينذاك فزحفت القوات الروسية غربا للتوغل فى بوميراليا (البانيا) ولتحاول أن تصل إلى مواجهة ستوكهلم، وتحالف بطرس مع بروسيا التى انتهزت الفرصة وتوسعت على حساب السويد كما توسع بطرس فى اتجاه ليفونيا وفى الأجزاء الشرقية من فنلنده الحالية، وأطلت بذلك روسيا على بحر البلطيق.

جاء هذا النصر فى الوقت الذى كانت فيه عمليات بناء العاصمة الجديدة ـ سان بطرس بورج – تسير قدما لتكون نافذة روسيا على الغرب، ونمت هذه العاصمة حتى أصبحت واحدة من كبريات مدن العالم[2].

---

(١) Poltava.

(٢) ستظل سان بطرسبورج عاصمة روسيا حتى تنجح الثورة البلشفية فتتخذ من موسكو عاصمة للاتحاد السوفيتى. أما سان بطرسبورج فقد تغير اسمها بعد الثورة البلشفية إلى لننجراد نسبة إلى لينين مؤسس الاتحاد السوفيتى.

أما بالنسبة لفارس فكانت لدى بطرس الأكبر آمال نحو التوسع عبر ولايات فارس القوقازية وتحويل بحر قزوين إلى بحيرة روسية. وتصادف أن كانت فارس تعانى مر العناء من غزوة أفغانية مدمرة، وصراعات متعددة بين القوى المتنافسة على العرش وكان مير محمود (الأفغالى) قد اغتصب العرش من الشاه حسين الصفوى (الشاه الشرعى) فى ١٧٢٢ . فتجنب بطرس الأكبر الاعتراف بمير محمود الأفغانى، وبعث بسفارة إلى الشاه حسين.

ادعى الروس أن الغرض من هذه السفارة هو المطالبة بتعويض عما أصاب قافلة روسية من خسائر تكبدتها على يد خان (خيوه) التابع لإيران. وأما الغرض الخفى فكان محاولة لجس نبض قوى فارس تمهيدا للقيام بعمل عسكرى ضدها.

وخلال هذه السفارة الروسية أدركت الدبلوماسية الروسية أن (مير محمود) على جانب كبير من الجهل السياسى والاستراتيجى. وذلك عندما شكا اليه الدبلوماسيون من اختلال الأوضاع فى شمال فارس. فبدلا من أن يؤكد عزمه على السيطرة والتحكم فى تلك الجهات قال للروس أنه لا يملك القدرة على السيطرة على القبائل فى تلك الجهات. فما كان من بطرس ـ بعد أن علم بذلك ـ إلا أن هبط الفولجا على رأس جيش مؤلف من ٢٢ألف مقاتل معلنا أنه لم يزحف على فارس طمعا فى أراضيها، وإنما إنقاذا لها من الطاغية الأفغانى.

استولت القوات الروسية على (دربند)، وبينما هى تتابع زحفها وتوسعها وصل مبعوث من قبل السلطان العثمانى معلنا أن استمرار الزحف الروسى على حساب الدولة الايرانية لا يعنى إلا الحرب ضد الدولة العثمانية Casus Belli ولما كان بطرس الأكبر لا يرعب فى الاشتباك مع العثمانيين فى حرب من أجل التوسع فى أرض إيرانية آثر أن يتوقف الزحف وأن يدخل فى مفاوضات مع الباب العالى لتسوية الخلافات والوصول إلى حل يرضى الطرفين على حساب إيران.

ولم تلبث أن دارت المفاوضات بين الطرفين، واتفقا على اقتسام فارس فى معاهدة وقعت فى ١٧٢٤ . قضت بأن تحصل روسيا على سواحل بحر قزوين وبعض

الولايات الفارسية الشمالية حتى نهر آراس. ولكن لم يلبث بطرس الأكبر أن توفى فى ١٧٢٥ بينما ظهر فى فارس قائد من طراز جديد عنيف ضد كل من يحاول أن يضع يده على أرض فارسية وهو نادر شاه فآثرت الحكومية الروسية أن تعيد إلى فارس ماسبق أن استولى عليه بطرس الأكبر.

حقيقة تعرضت أمور روسيا بعد وفاة بطرس الأكبر لعدة أزمات ولكن بعد أن تولت « كاترين الثانية» العرش عادت روسيا إلى نشاطها العسكرى الكبير خاصة ضد بولنده والدولة العثمانية وفارس.

فبالنسبة للدولة العثمانية انتصرت روسيا فى حربها الطويلة (١٧٦٨ ـ١٧٧٢) وأرغمت السلطان العثمانى على عقد معاهدة كوجلك قينارجى (١٧٧٤) التى تمثل نهاية قوة الدولة العثمانية. ولكن يلاحظ أن كاترين الثانية كانت منتصرة، وكانت جيوشها قد سيطرت على خانات القرم، وإلى جانب هذا كانت جيوشها من شمال البلقان صوب قلبه فى اتجاه الآستانة قادرة على أن تفرض شروطا قاسية للغاية على السلطان ولكن شروط (كوجلك فينارجى) - رغم شدتها ـ خفيفة الوطأة نسبيا، وهذا يرجع فى حقيقة الأمر إلى نظرية التوازن الدولى.

لقد كانت الإمبراطورية النمساوية وحكومة بروسيا تنظران بعين القلق الشديد إلى التوسع الكبير الروسى فى البلقان فلقد كان هذا البلقان (العثمانى) نفسه مجال الإمبراطورية النمساوية الحيوى الذى تسعى إلى التوسع فيه. أما وقد انطلقت روسيا فى اتجاه البلقان فإنها أصبحت على مستوى من التفوق يخل بالتوازن الدولى ويتطلب من الإمبراطورية النمساوية تدخلا سريعا وحاسما ضد نمو القوة الروسية هناك. ومن هنا كانت الأمور تشير إلى قرب أزمة بين سان بطرسبورج وفينا قد تتحول بسرعة الى حرب.

وكانت بروسيا لا تريد أن تقع مثل هذه الحرب التى لابد وأن تجد نفسها متورطة فيها وكانت الأحوال المالية لفردريك ـ ملك بروسيا ـ سيئة لا تتحمل حربا كبيرة أوروبية كتلك التى خاضتها بروسيا من قبل (حرب السنين السبع

١٧٥٧-١٧٦٣)، ومن ثم كان من مصلحة بروسيا أن تجد وسيلة توقف بها الصدام بين الدولتين الكبريين، وتحقق للجميع مكاسب تبقى على التوازن الدولى ولا تخل به. ولذلك تركزت الاتجاهات فيما يلى:

١- عدم انطلاق روسيا فى البلقان بأن تعقد معاهدة مع الدولة العثمانية (كوجك فينارجى) تعيد معظم ما فقدته الدولة العثمانية فى البلقان إليها.

٢- اقتسام كل من روسيا وبروسية والنمسا لبولنده.

ومعنى هذا أن التوازن الدولى أصبح أداة لتحطيم الدول، وليس أداة دولة أوروبية كبرى من التوسع على حساب دولة أخرى. لقد ذهبت بولنده ضحية للنظرية الجديدة للتوازن الدولى.

وكان نجاح التقسيم الأول لبولنده فى ١٧٧٢ مثيرا لشهية الدول الثلاث لتكرار عملية التقسيم، خاصة وأن التقسيم تم بلا حرب وبلا تكاليف بينما حصلت الدولة المعتدية على مكاسب كبيرة.

ففى ١٧٩٣ اتفقت كل من بروسيا وروسيا على اقتطاع أجزاء من بولندة بينما تعوض النمسا فى الالزاس واللورين بعد الاستيلاء عليهما من فرنسا (الثورة). ولكن الذى حدث هو أن بروسيا وروسيا حصلتا على حصتهما فى بولنده دون أن تتمكن النمسا من الحصول على الالزاس واللورين. فخرجت خاسرة من ناحية، ومن ناحية أخرى كانت النمسا ترى أن ذلك الاتساع الذى حصلت عليه كل من روسيا وبروسيا أخل بالتوازن الدولى، وأنه لابد من أن تحصل النمسا على توسع فى مجال جديد أو تنقل قواتها التى كانت تحارب فرنسا (الثورة) فى ١٧٩٥ إلى القتال ضد بروسيا وروسيا على أرض بولنده من أجل الحصول على قسم منها. فأدى هذا إلى التقسم الثالث لبولندة الذى أزالها من الخريطة.

كانت عمليات التقسيم المتتالية هذه تلاقى مقاومة من جانب الشعب البولندى، هى فى الواقع صورة من صور المقاومة القومية الوطنية المبكرة. ولكن لم تستطع هذه المقاومة أن تغير شيئا من النكبة التى حلت بالبلاد.

ومما ساعد على أن تنحدر بولنده إلى هذا المصير المروع:

١ـ أن بولنده الضعيفة كانت بين قوى عنيفة بعضها كان ناشئا (بروسيا وروسيا) وبعضها قديم (الدولة العثمانية والإمبراطورية النمساوية).

٢ـ كانت بولنده تحصل على تأييد وعطف أوروبا بسبب مجهوداتها المضنية ضد الدولة العثمانية ولكن منذ أن بدأ الوهن يدب فى الدولة العثمانية، بدأت قوى النبلاء تشعر أن البلاد البولندية أصبحت بعيدة عن الخطر، فانصرف النبلاء إلى الاقتتال على المناصب والأراضى والحكم، الأمر الذى أنهك البلاد إلى حد كبير.

٣ـ كان جعل العرش انتخابا سببا فى أن يتقاتل الطامعون فيه مما كان يصيب بولنده بالخراب والدمار من وقت لآخر، خاصة وأن نبلاء بولندة أنفسهم كانوا غير متفقين، بل كانوا مستعدين باستمرار للإستعانة بالقوى الأجنبية.

كانت هناك أقسام كبيرة من الشعب البولندى نفسه غير عابئة بمصير البلاد، فقد كان الشعب المستعبد بواسطة النبلاء غير معنىّ بما يحدث من تقسيمات لبلاده، وكان اليهود – كانوا أقلية كبيرة – لا يهمهم أن يكونوا تحت حكم نمساوى أو بروسى أو روسى إذ كانوا يعنون فقط باستمرار أرباحهم المالية.

وبينما بولندة فى طريقها إلى الزوال كانت هناك دولة كبيرة على النظام الأوروبى تظهر فى العالم الجديد.

الفصـــل الثالث عشر

ظهور بروسيا واثره على توازن القوى
خلال القرن الثامن عشر

تعتبر بروسيا واحدة من أهم الدول التى ظهرت فى العصر الحديث ومنذ أن أصبحت قوة لها مكانتها فى أوروبا منذ منتصف القرن الثامن عشر ارتبطت كثير من السياسات الأوروبية فى قلب القارة بالموقف الذى يتخذه ملك بروسيا.

والنواة التى بدأت منها بروسيا هى مقاطعة براندنبورج بين نهرى الميز والألب. وهى واحدة من المقاطعات التى انحدرت من العصور الوسطى. وكانت قد أنشئت مقاطعة براندبورج كمركز [١] متقدم ضد هجمات السلاف بين نهر الألب وبولندة.

وكان هذا المركز Mark يسند إلى موظف كبير- يلقب «ماركراف»- بواسطة إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة. ولم يلبث لماركراف أن حصل - بسبب نمو قوته خلال القرن الرابع عشر - على منصب ولقب ناخب[٢] للإمبراطور.

وقد عانت هذه المقاطعة الكثير من الاضطرابات الداخلية حتى أسند الإمبراطور سجسموند[٣] حكمها إلى فردريك هوهنزلرن[٤] الذى ستستمر أسرته فى الحكم حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٨ . أى سيمتد حكمها زهاء خمسة قرون.

---

(١) Mark, March

(٢) Elector

(٣) Sigsmond

(٤) Hohenzollern

ولم يكن موقع أو إمكانيات براندبورج يوحى بأنهاستتطول على هذا النحو الكبير لتصبح فى أواخر القرن التاسع، دولة أوروبية عظمى. ولكن مما لاشك فيه أن لأسرة هوهنزلرن دوراً كبيراً فى دفع هذا التطور فى هذا الاتجاه. وهو تطور كان يعتمد باستمرار على قوة عسكرية أكبر من المألوف. فلقد عنيت هذه الأسرة منذ اسناد براندنبورج إليها بأن يكون لديها من الأسلحة النارية - وكانت من الأسلحة المتقدمة حينذاك - ما يمكنها من أن تلعب دوراً رئيسيا فى منطقتها.

كان حكام مقاطعة براندبورج من بيت هوهنزلرن فى خضم مضطرب خلال أزمة الحروب الدينية التى اجتاحت ألمانيا خلال النصف الأول من القرن السادس عشر. وخلال هذه الأزمة، وجد ناخب براندنبورج أن مصلحته تتركز فى أن يقف إلى جانب الأمراء الألمان اللوثريين ضد الإمبراطور شارل كنت (الخامس)، بل وتحول الناخب نفسه إلى اللوثرية. ومع هذا ظل الهوهنزلرن حكام مقاطعة براندنبورج على هامش الأحداث الكبرى حتى إذا ما امتدت سيطرتهم إلى بروسيا Prussia برز دورهم فى المجال الدولى. إذ أن امتداد حكمهم إليها وإلى بوميرانيا[1] يعتبر من أهم تطورات أوروبا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ونظرة عامة على أوضاع بروسيا قبيل سيطرة الهرهنزلرن عليها تبين كيف آلت هذه المقاطعة الكبيرة إليهم.

كانت بروسيا فى القرن الخامس عشر تحت سيطرة ما عرف باسم الفرسان التيوتون Teuton. وكانوا على قوة وصلابة مشهورة فى نشر كلمة الكنيسة فى تلك الجهات الموحشة. ولم تلبث أن دارت المعارك التقليدية بين القوى المحيطة بالمنطقة. وكان طبيعيا أن يصطدم هؤلاء الفرسان التيوتون بالدولة الكبيرة المجاورة لهم (بولندة) التى كانت صاحبة الحق فى أراضى التيوتون. وبعد جهود مضنية من الطرفين احتفظت بولندة بشطر من بروسيا (بروسيا الغربية البولندية) وانفرد التيوتون بما عرف باسم بروسيا الشرقية.

---

(١) كانت السيطرة الهوهنزلرن فى أول الأمر على أجزاء فقط من بروسيا بوميرانيا، ثم استكملت فيما بعد السيطرة الكاملة عليهما.

وحيث أن نظام الفرسان التيوتون كان ملائما لتلك القرون السالفة من العصر الوسيط فإنه لم يلبث أن أخذ فى التدهور حتى أصبحت بروسيا الشرقية دوقية تحت حكم فرع من فروع أسرة هوهنزلرن الحاكمة فى براندنبورج. فكان طبيعيا أن يكون هناك تقارب وطيد بين فرعى الأسرة، وحانت فرصة ذهبية لتوحيد ممتلكات الفرعين تحت حكم منتخب براندنيورج جون سجسموند فى ١٦١٨ فى أعقاب وفاة حاكم بروسيا الشرقية دون وريث. فأصبح جون سجسموند حاكما على بروسيا الشرقية وعلى اندنبورج، وأصبح منذ ذلك الوقت أميراً له مكانته فى سياسات وسط أوروبا.

كانت بروسيا تعانى حينذاك من عدم وجود المقومات لتكوين دولة. فمن حيث القوة البشرية. كانت بروسيا الشرقية قليلة السكان بسبب الفقر المنتشر فى تربة المنطقة، وعدم توفر ثروة معدنية تعين على تجمع السكان حولها. كما أنها كانت متطرفة فى اتجاه شمال شرق أوروبا وهى مناطق أقل فى مستواها الحضارى عن بقية أجزاء أوروبا الغربية. وكان الفارق الحضارى بين بروسيا الشرقية وأوروبا الغربية واضحاً. ولكن هناك شبه إجماع لدى المؤرخين الفرنسيين والانجليز على أن هذا الشعب البروسى - رغم تلك المستويات المتدنية من الحضارة - أعطى الأسرة الهوهنزلرن طاقة بشرية صلبة العود،، تطيع حكامها «طاعة عمياء» على حد قول بعض هؤلاء المؤرخين. فعوض ذلك الكثير من نواحى النقص فى مقومات الدولة هناك.

ومن ناحية الموقع كانت بروسيا الشرقية تجاور بولنده، وكانت مملكة لها وزنها حينذاك. ولكن المعضلة الصعبة الحل - التى كانت تواجه المسئولين عن الدفاع عن بروسيا- هى أن بروسيا كانت مجرد امتداد للسهل البولندى، فلم تكن لبروسيا حدود جغرافية يمكن أن تستند إليها عسكريا وسياسيا، ولهذا كانت مسئولية الحكام من أسرة الهوهنزلرن فى برلين[1] كبيرة ومعقدة خاصة وأن وراثة الهرهنزلرن لبروسيا لم يؤد إلى قطع نهائى لما كان بين هولندة وبروسيا من علاقات إقطاعية. ولهذا عمل حكام الهرهنزلرن على التخلص نهائيا من هذه القيود الاقطاعية.

(١) إتخذتها هذه الأسرة عاصمة لها.

وفى الوقت الذى أصبحت فيه بروسيا تحت حكم هوهنزلرن براندنبورج، كان هؤلاء قد مدوا سيطرتهم (١٦١٤) على كليفز Cleves وعلى بعض الأراضى الألمانية الصغيرة الواقعة على الرين وبذلك أصبحت هناك ثلاث مجموعات من المناطق الواقعة تحت حكمهم عندما وقعت حرب الثلاثين عاماً (١٦٦٨-١٦٤٨):

١- بروسيا الشرقية وتفصلها عن براندنبورج أراضى بروسيا الغربية البولندية وبوميرانيا.

٢- براندنبورج.

٣- ممتلكات الهوهنزلرن على الرين وهى الدوقيات الصغيرة كليفس، مارك، رافنزبرج Cleves Mark, Ravensberg.

على هذا النحو كان الهوهنزلرن مسئولين عن الدفاع عن ممتلكاتهم المتناثرة فى وجه قوى كبيرة تقع على مقربة منها من شرق (بولندة) ومن جنوب (الإمبراطورية النمساوية) ومن شمال (السويد) ومن غرب (فرنسا).

إن مثل هذه الأوضاع الاستراتيجية والسياسية التى كانت تفرض نفسها على الهوهنزلرن حتتهم على اتباع سياسة خاصة سواء نحو الدول الكبرى المجاورة، أو نحو الأقاليم الواقعة تحت حكمهم، كما كانت تحث على أن يصبح توحيد هذه الوحدات السياسية وترابطها سياسيا وجغرافيا هدفا سياسيا من أهداف أسرة الهوهنزلرن.

كان يتطلب تحقيق هذا الهدف الاستيلاء على المقاطعات الفاصلة بين ممتلكات الهوهنزلرن وبالتالى كان هذا يتطلب أيضا حربا ضد القوى المتعددة سواء المالكة لتلك المقاطعات الفاصلة بين ممتلكات الهوهنزلرن، أو القوى التى كانت تكره نمو قوتهم.

ولقد كان من سوء حظ الهوهنزلرن أن نشبت حرب الثلاثين عاما (١٦١٨) فى نفس العام الذى ضموا إلى حكمهم بروسيا الشرقية. ومن ثم لم تكن هناك فرصة مواتية لأن يستخدم الهوهنزلرن إمكانيات بروسيا الشرقية فى تقوية جانب براندنبورج أمام القوى المتصارعة فى تلك الحرب الطويلة الطاحنة. وكان من سوء حظ الهرهنزلرن أيضاً أن تكون (ألمانيا) بالذات هى مسرح الحرب خلال تلك المحنة الطويلة. فأصيبت البلاد الواقعة تحت حكم الهوهنزلرن بأضرار مروعة. وهناك مثلان يضربان على مدى التخريب الذى أصاب البلاد فبرلين، عاصمة الهوهنزلرن، هبط تعداد سكانها من ١٤ ألف نسمة إلى ستة آلاف فقط. أما الثانى فيتعلق بفرانكفورت، إذ لم يبق بها من سكانها الاثنى عشر ألفا سوى ألفين فقط. هذا بالنسبة للمدن، أما بالنسبة للأرياف فقد كانت الخسائر أبشع وأكثر فظاعة. فقد تلاشت مئات القرى، وخربت مساحات واسعة بأكملها حتى باتت شبه مهجورة.

لقد كانت ضخامة الجيوش المشتركة فى حرب الثلاثين عاماً، وقسوة التخريب الذى حل بالبلاد من العوامل التى جعلت جورج وليم هوهنزلرن (١٦١٩-١٦٤٠) قزما بجوار العمالقة.

على أن فترة حكم جورج وليام هوهنزلرن كانت فى نفس الوقت مفعمة بدروس علمت الهوهنزلرن الكثير من علوم السياسية والحرب. ولقد أفاد كثيرا فردريك وليم (١٦٤٠-١٦٨٨)- الذى خلف جورج وليم - من تلك الدروس. ومما ساعده على ذلك أن اندماج بروسيا وبراندنبورج تحت حكم الهرهنزلرن كان قد مرت عليه فترة طويلة نسبيا وبدأ يؤتى ثماره. ولاشك أن شخصية فردريك وليم القوية تختلف عن شخصية جورج وليم الضعيفة. ولكن يجب أن نضع فى الاعتبار أن الظروف التى حكم خلالها فردريك وليم تختلف عن ظروف سلفه اختلافاً رئيسيا.

لقد جاء جورج وليم إلى الحكم مع بداية حرب الثلاثين عاماً، والدول الكبرى لا تزال فى عنفوان قوتها، وكانت رغباتهم جامحة فى الزحف وفى خوض المعارك، بينما بدأت مفاوضات الصلح بين القوى المتصارعة ابتداء من ١٦٤٣ . ومن

ثم كانت مهمة فردريك وليم هى المساهمة فى توزيع المكاسب على مائدة مفاوضات عقد الصلح. ومن ثم يجب أن يفرض نفسه على هذا الموقف، وأن يلفت النظر إلى قدرته فى التأثير على الأوضاع.

لقد كان فردريك وليم يدرك- بعد أن تولى الحكم- أن قدراته العسكرية محدودة، وأنه إذا كان يريد الارتفاع إلى مستوى المساهمة فى المفاوضات الدائرة فيجب أن يخلق جيشاً يحقق به هذا الهدف. وحيث أن جيشه كان مؤلفاً فى غالبيته العظمى من المرتزقة الذين لا يمكن الاعتماد على أخلاصهم المشكوك فيه، فقد سرح هؤلاء المرتزقة وكون جيشاً جديداً من رعيته هو، مرتبطاً به كل الارتباط.

وليس معنى هذا أن فردريك وليم أعد جيشاً ضخماً جراراً. فإن جيشه الجديد لم يتجاوز الثمانية آلاف جندى. إلا أن هذا العدد كان كافيا لأن يحقق أهدافاً كثيرة لفردريك وليم، والسبب فى هذا هو أن حجم الجيوش - بصفة عامة- لم يكن كبيرا، وكانت الأسلحة النارية - لا تزال - محدودة الاستخدام، وكان فى استطاعة جيش- مثل جيش فردريك - إن يتزود بأسلحة نارية تمكنه من التصدى لجيش دولة كبيرة مثل الإمبراطورية الرومانية المقدسة. حقيقة ربما يكون من العسير على جيش الهوهنزلرن ـ الصغير نسبيا ـ أن يتغلب على جيش دولة كبيرة أوروبية عريقة فى التاريخ العسكرى، ولكن ظروف العصر كانت تمكن الهوهنزلرن من أن يصلوا إلى أهدافهم فى حرب ضروس.

فلقد كانت الأمور الأوروبية والاتجاهات السياسية لا تتحكم فيها قوة الجيوش فقط. وإنما كذلك نظرية توازن القوى. وبالتالى ستكون هناك دول كبرى فى حاجة إلى جيش الهوهنزلرن ضد قوة أخرى تهدد باختلال هذا التوازن. وحيث أن ممتلكات الهوهنزلرن على مقربة من قلب الامبراطورية الرومانية المقدسة فإن جيش هذه الأسرة الحاكمة يجب أن يحسب حسابه خاصة وأن فردريك وليم عنى بتجهيزه وإعداده أعظم عناية. فلا غرو أن عرف كيف يمنع السويد من التهام كل بوميرانيا خلال الثلاثين عاما أو فى صلح وستفاليا ١٦٤٨ إذ استحوذ هو على جزء من بوميرانيا ضمه لممتلكاته.

لقد كان استيلاء فردريك وليم على هذا الجزءمن بوميرانيا من العوامل التى رسخت من مسئولية الهوهنزلر إزاء توحيد ممتلكاتهم.

كان هذا التوحيد يتطلب خطوات دبلوماسية وعسكرية. وكان فردريك نفسه فى حاجة إلى اعتراف بعض الدول الأوربية وخاصة الطامعة فى بروسيا الشرقية مثل السويد، كما كان فى حاجة لأن يصفى كافة الارتباطات الإقطاعية التى كانت تربطه بملك بولنده، ولهذا تحالف مع السويد ضد بولندا حتى حصل على اعتراف السويد به دوقا على بروسيا الشرقية. ولم يلبث أن انتصر على السويديين فى ١٦٧٥ فى معركة فهربلن Fehrbellin التى تعتبر «ارهاصا للعظمة الآتية فى الأيام المقبلة».

تابع خليفته وابنة فردريك [1] (١٦٨٨ ـ ١٧١٣) سياسة أبيه فى الحصول على مكانة سامية فى أوربا تليق بهذا الاتساع الذى بلغتة ممتلكات الهوهنزلرن. فأخذ يحث إمبراطورية الدولة الرومانية المقدسة على إعلانه ملكا على بروسيا. وظل الإمبراطور ممتنعا حتى اضطر إلى ذلك.

فقد وجد الإمبراطور نفسه فى حاجة إلى مساعدة فردريك ـ أمير براندنبورج ودوق بروسيا ـ فى حرب الوراثة الأسبانية. فوافق فردريك أن يقدم المساعدة المطلوبة فى مقابل الحصول على لقب «ملك بروسيا» ولقد كان هذا صعبا على الإمبراطور، إذ أنه بذلك كان يخلق مملكة قوية ـ إلى حد ما ـ بجواره مباشرة. ولكنه كان مضطرا فمنحه لقب ملك. وتوج فردريك نفسه فى ١٧٠١ فى كاتدرائية كونجزبرج Konigsberg.

وليس فردريك هو أول أمير أو دوق ألمانى يحصل على لقب ملك. وإنما أسرة هانوفر الألمانية التى اعتلت عرش انجلترا، وهناك منتخب ساكسونى الذى أصبح ملكا على بولنده ولكن هناك فارق بين إعلان ملكية بروسيا وهاتين المملكتين، وغيرهما فلقد كانت الملكية فى كل من انجلترا وبولنده ترتبط ارتباطا واهيا بهانوفر وسكسونى.

(١) هو نفسه صاحب براندنبورج خلال الفترة، ولكنه اكملك لبروسيا من (١٧٠١ ـ ١٧١٣).

أما بالنسبة لبروسيا فإن ملكها جعل ممتلكاته المشتتة تحت تاج واحد، وظهرت دولة جديدة على جانب من القوة والاتساع على مقربة من قلب الامبراطورية الرومانية المقدسة.

وعلى يد فردريك الأول - ملك بروسيا ابتداء من ١٧٠١ - ستبذل مجهودات كبيرة لتقوية الجيش البروسى ووضع كافة قدرات المملكة فى خدمة الجيش أولا وقبل كل شيء.

ولقد سبقت الإشارة إلى نمو ذلك الجيش الصغير نسبيا على يد المنتخب الأعظم فردريك وليم (١٦٤٠ - ١٦٨٨) وقيمته الكبيرة فى تحقيق أهدافه. ولكن عند تكوين هذا الجيش برزت له قيمه كبرى أخرى. فبينما مكانت مملكة بروسيا غير مترابطة الأجزاء وكانت عبارة عن وحدات إقليمية منفصلة كان الجيش على غير ذلك، كان الجيش بوتقة صهرت كافة الشخصيات وجعلتهم كتلة واحدة تدافع لملك واحد، وهكذا ظهر إلى الوجود جيش بروسى متحد اتحادا تاما قبل أن تظهر الدولة المتحدة.

ولقد وضع المنتخب الأعظم فردريك وليم. ومن بعده ابنه فردريك وليم. ومن بعده ابنه فردريك الأول (١٦٨٨ - ١٧١٣) الغالبية العظمى من دخل المملكة فى خدمة الجيش. وكان دخل ملكية بروسيا منحصرا فى مصدرين كبيرين رئيسيين:

١- دخل الممتلكات الملكية.

٢- الضرائب.

وعلى العكس تقريبا من بقية الدول الأوربية حينذاك كانت ممتلكات التاج تستطيع أن تنفق على الإدارة الحكومية وعلى متطلبات الجيش. وكلما زادت هذه المتطلبات وضعت الحكومة الملكية ونفذت مشاريع اقتصادية كبيرة تكون مدخولاتها وقفا على النفقات الحكومية، وبوجه خاص على الجيش. كما أصبح نمو الانتاج الاقتصادى المرتبط بحاجيات الجيش يتحكم فى مستوى الازدهار فى البلاد.

فلقد أقيمت فى برلين مصانع للأسلحة النارية (البنادق والمدافع) ومصانع لإعداد الذخائر . وغير ذلك من الصناعات اللازمة لجيش حديث بمستوى ذلك العصر.

ووجد المنتخب الأعظم فى طبقة اليونكر البروسية الأرستقراطية مصدرا هاما للضباط اللازمين لجيشه. وكان هؤلاء يمجدون العسكرية النظامية المتفانية فى خدمة الأسرة الحاكمة. ولا شك أن انتشار العقيدة اللوثرية كان له أثره الكبير فى شدة الولاء من جانب هؤلاء اليونكر ـ للأسرة الحاكمة الهوهنزلرنية. فالمعروف أن اللوثرية تفرض على اتباعها الولاء العميق بالأمير الحاكم . ومن هنا كانت صفات طبقة اليونكز ـ إلى جانب تعلقهم العقائدى بالأسرة الحاكمة ـ تضفى على الجيش البروسى مظهرا رائعا من العزه بالجيش والأرض والملك. وأسس فردريك الأول مدارس لتدريب أبناء طبقة اليونكز وأصبحوا مفخرة بروسيا من بعد.

وفى سبيل ذلك الازدهار الصناعى لسد حاجات الجيش، وسعيا وراء الأيدى العاملة الفنية، والمهارات التجارية فتح المنتخب الأعظم مملكتة أمام هجرات من سويسرا وهولنده ومن هوجونوت فرنسا. ومن اليهود المهاجرين من بولندا. وباستثناء اليهود. كانت عقيدة أولئك المهاجرين هى البروتستنتية بمختلف أشكالها.

ولكن الملوك من أسرة الهوهنزلرن لم يفتحوا أمام الفلاحين مجالات التقدم. بل أغلقوها فى وجوههم. فقد ضحى المنتخب الأعظم بالفلاحين فى سبيل كسب الارستقراطية البروسية إلى جانبه، وفى سبيل الحد من مطالباتها بنظم حكم دستورية أو تمثيلية تحد من سلطاته المطلقة، ولقد رضيت الارستقراطية باستعباد الفلاحين فكان هذا سببا من أسباب تخلف القاعدة الشعبية الألمانية عن غيرها ـ نسبيا ـ خاصة إذا قيست بمثيلتها فى انجلترا.

وأدت هذه السياسة الداخلية الصارمة إلى نتيجة أخرى هامة وهى ضعف عوامل نمو الطبقة الوسطى فى بروسيا. وكان مظهرها فى بروسيا يختلف عنه فى بقية دول غرب أوروبا. فالطبقة الوسطى فى بروسيا كانت أغلبيتها من موظفى

الدولة، وبنؤلاء فى خدمة الحكومة والجيش، ولا تستطيع أن تشكل قوة قادرة على فرض نفسها على الحكم أو الجيش

وعلى أى حال استطاعت ملكية الهوهنزلرن أن تستخدم جيشها هذا فى الحصول على مكاسب أرضية هامة، بعد أن خاضت غمار حروب مريرة فى قلب أوروبا، وفى أواسط القرن الثامن عشر وخلال حروب القرن الثامن عشر هذه انقلبت معايير التوازن الدولى. وهذا يتضح خلال حرب الوراثة البولندية[1]

وحرب الوراثة البولندية[2] (١٧٤٠ ـ ١٧٤٨) [3] وحرب السنوات السبع (١٨٥٦ ـ ١٧٦٣) فقد كشفت هذه الحروب عن قيمة بروسيا الجديدة فى توجيه سياسات أوروبا. ووضعت الإمبراطورية النمساوية فى مأزق خطيرة أكثر من مرة ووضعت فرنسا على حافة الثورة الداخلية، وجعلت من انجلترا صاحبة امبراطورية عالمية فى العالمين القديم والجديد.

---

(١) War of The Polish Succession

(٢) War of the Austrian Succession

(٣) Seven Years War

الفصـــل الرابع عشر

حروب القرن الثامن عشر
١٧٤٠ - ١٧٦٣

كان ظهور بروسيا، وظهور روسيا، وكل منهما على أحد جوانب الامبراطورية الرومانية المقدسة (الإمبراطورية النمساوية) سببا فى أن تتعقد علاقات الدول الأوروبية بعضها ببعض. فلقد كانت بروسيا ملكية بروتستنتية، وروسيا أرثوذكسية، أما الإمبراطورية النمساوية فكانت ملاذ وأمل الكاثوليكية فى أن تستعيد تفوقها ـ على حساب البروتستنت ـ فى أوروبا وخارج أوروبا. ولكنها كانت امبراطورية تعانى من التفكك الداخلى الشديد، فهى مشكلة من قوميات متعددة، وبالتالى كانت تضم عددا من المجتمعات المتباينة المختلفة التقاليد وكانت القوى التى تربط هذه الإمبراطورية بعضها ببعض قوى بوليسية عسكرية، أو مذهبية شديدة (مثل اليسوعيين).

وكانت ممتلكات الإمبراطورية متصلة ابتداء من قلب أوروبا فى اتجاه الشرق حتى مناطق الصدام الصليبى بينها وبين الدولة العثمانية فى شمال البلقان، ولكن كانت هذه الإمبراطورية النمساوية قد حصلت على الأراضى المنخفضة (بلجيكا) من أسبانيا بمقتضى معاهدة أوترخت ١٧١٣. فإذا بهذه الممتلكات المجاورة لفرنسا ـ عدوة النمسا التقليدية ـ تصبح عبئا على الإمبراطورية بسبب الصعوبة البالغة فى الدفاع عنها أمام غزو الجيش الفرنسى لها.

وكانت ظروف النمسا فى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الثامن عشر تغرى القوى المعادية المتربصة بها بأن تنقض عليها متحالفة أو فرادى وتجلى هذا فى أعقاب وفاة الإمبراطور شارل السادس فى أكتوبر ١٧٤٠. وكان شارل السادس هذا قد ضحى بالكثير من أراضى النمسا ومصالحها التجارية من أجل الحصول على

موافقة ملوك أوروبا على أن ترثه ابنته ماريا تريز [١] العرش وأراضى الامبراطورية وكانت هذه المرأة على الطراز من نساء القرن الثامن عشر العنيدات ذوات الطموح العالى دون أن تكون لديها المواهب الخارقة التى كانت تتطلبها ظروف منتصف القرن الثامن عشر الذى ظهر خلاله عدد من عباقرة الفنون السياسية والعسكرية لم يظهر أمثالهم فى النمسا. بل لقد كان جيش النمسا حينذاك ضعيفا، لا يتناسب مع مساحة تلك الامبراطورية الواسعة.

ولقد كان مجرد إسناد العرش إلى امرأة حينذاك كفيلا بأن يثير انشقاقا فى داخل النمسا نفسها، وكفيلا بأن يحث الطامعين فى العرش الامبراطورى بأن يمتشقوا الحسام لانتهاز الفرصة، وكان هناك عدد ليس بالقليل من المطالبين بالعرش. وكانت حجتهم تسندها أحيانا دول قوية معادية للنمسا. فلقد أخذت فرنسا جانب المطالبين بالعرش وهو شارل البرت[٢] منتخب بافاريا. رغم أن ملك فرنسا كان قد تعهد من قبل بالاعتراف بماريا تريزا امبراطورية بعد وفاة أبيها.

كذلك تطلبت بعض الدويلات والدول إلى اقتطاع أجزاء من الإمبراطورية انتهازا لهذه الفرصة، فأسبانيا كانت تطمع فى ما تملكه النمسا من مساحات واسعة فى إيطاليا، وتطلع ملك سردينيا شارل ايمانويل إلى أن يضع يده على ميلان. وفرنسا كانت تطمع فى الأراضى المنخفضة (النمساوية) ولوكسمبورج. وكان أوغسطس منتخب ساكسونيا يطمع فى بعض الممتلكات النمساوية متخذا من زوجتة النمساوية وسيلة لذلك.

ولكى تقطع ماريا تريزا الطريق على أولئك المطالبين والمدعين بأحقيتهم فى العرش الإمبراطورى، أعلنت زوجها امبراطورا.

---

(١) Maria Theresa وكانت متزوجة من فرانسيس أمير اللورين، وكانت لا تزال فى سن الشباب عندما اعتلت العرش، ولم تكن لديها خبرة عميقة بأصول السياسة والحرب بصفة عامة

(٢) Cahrles Albert

ولكن أخطر طامع فى ممتلكات الإمبراطورية النمساوية كان فردريك الثانى ملك النمسا (١٧٤٠ ـ ١٧٨٦) وكان رجلا عبقريا بلا جدال، وكان يدرك حقيقة هامة وهى أن مملكته صغيرة ومحدودة الموارد، وأن ملوك أوروبا فى تحالفاتهم وعداواتهم يضعون توازن القوى فى أوروبا نصيب أعينهم، وأن بلاده خلال ما سينشب من حروب ستكون ميدانا لها. ومن ثم فإن التمسك بأهداب الفضائل السياسية ـ وهى فضائل كانت تنقص كافه ملوك وحكومات أوروبا حينذاك ـ كان فى نظره من تراث الفلاسفة. وأن عليه أن يلعب بالسيف والقلم واللسان وبكافة الوسائل لمواجهة العمالقة الرابضين حول وعلى مقربة من مملكته.

ولهذا شن فردريك الثانى هجوما مفاجئا استولى به على سليزيا مفتتحا بذلك الوراثةالنمساوية

لقد كان هذا الاستيلاء الغادر لقطعة من أثمن أراضى الإمبراطورية النمساوية كفيلا بأن ترد عليه الإمبراطورية النمساوية بإعلان الحرب وخوض المعارك. ولكن عاملا آخر جعل النمسا شديدة الحماس لقتال فردريك الثانى . فبروسيا كانت فى نظر حكومة النمسا تابعا لها حتى وقت قريب. فإذا به يوجه الضربه إلى (سيده) . ومن ثم كان استيلاء فريدريك الثانى على سيليزيا ضربة قاسية جدا لماريا تريزا، وأشد منها قسوة الانتصار الكبير الذى أحرزه على جيش النمسا فى موقعة ملوويتز[1] ، تلك المعركة التى كشفت أمام ملوك وأمراء أوروبا مدى الضعف الذى كان عليه جيش الإمبراطوريةالنمساوية.

فتحرك شارل البرت منتخب بافاريا والمطالب بعرش الإمبراطورية. وتحركت من ورائه فرنسا. وأدركت انجلترا أن القوى المعادية للنمسا تستطيع أن تمزقها، فحثت الحكومة الانجليزية ماريا تريزا على أن تستجيب إلى مطالب فردريك الثانى فى سيليزيا وتتنازل عنها وبذلك تتخلص من هذه الحربة القوية الموجهة إلى قلب الإمبراطورية النمساوية.

---

(١) Mellowitz

ولقد كانت الفرصة مواتية لأن تصل ماريا تريزا مع فردريك الثانى إلى تسوية على هذا الأساس، حيث أن فردريك كان ينظر بعين القلق إلى التدخل الفرنسى. ولكن ماريا تريزا رفضت رفضا باتا أن تتنازل عن سليزيا. وبالتالى أعطت لفردريك الحجة التى جعلتة يتحالف مع شارل البرت وفرنسا فى ١٧٤١ .

ويعتبر عام ١٧٤١ من أسوا الأعوام التى مرت على الامبراطورية النمساوية فقد استولى البافاريون على ميونيخ وضغطوا على فينا العاصمة، والفرنسيون على براغ، وضغط الجيش البروسى فى اتجاه العاصمة فينا من جهة أخرى. وفى هذه السنة كان المتوقع أن تنهار الإمبراطورية النمساوية أمام أعدائها المنتصرين الذين توغلوا كثيرا فى قلب الإمبراطورية حتى لقد فرت ماريا تريزا نفسها إلى المجر بينما أعلن شارل البرت فى فرانكفورت امبراطورا باسم (شارل السابع)[1] . ولكن لم تلبث أن تحولت مجريات الأمور بعد وقت وجيز نسبيا لصالح ماريا تريزا. وذلك بسبب قيام ماريا تريزا بتحرك سياسى وعسكرى بارع أهم مظاهره.

١ - كانت ماريا تريزا بعيدة النظر عندما لجأت إلى المجر، وناشدت الارستقراطية المجرية أن تهب لإنقاذ الإمبراطورية من أعدائها ووجدت ماريا تريزا فى المجر القوة التى أعانتها على متابعة القتال.

٢ - عدلت ماريا تريزا من موقفها المتصلب إزاء فردريك وقبلت وجهة النظر الانجليزية وتنازلت عن سيليزيا له فانسحبت القوات البروسية النمساوية لتشرع القوات الإمبراطورية فى هجوم كبير على مراكز الفرنسيين والبافاريين.

٣ - تحولت الاتجاهات فى انجلترا بقوة نحو دخول الحرب إلى جانب النمسا المهيضة الجناح. على اعتبار أن هذا التفوق الفرنسى العسكرى فى قلب أوروبا وفى الأراضى المنخفضة كفيل بأن يهز هزا عنيفا «التوازن الدولى» بشكل يضرب بالمصالح

---

(١) هذه أول مرة منذ القرن الخامس يتولى أمير من غير الهابسبورج.

الانجليزية. ولهذا لم يلبث أن اعتزل السياسى الكبير الانجليزى والبول[1] السياسة، لأنه كان من دعاة السلام وخلفة فى الوزارة كارتريت[2] إذ وضع سياسته على أساس توجيه الحرب بقوة ضد فرنسا، حتى ولو لم تكن الحرب معلنة بين الدولتين. فأرسل جيشا إلى هانوفر (الانجليزية) للدفاع عن الأراضى المنخفضة النمساوية، وبدأ هذا الجيش عملياته العسكرية بنجاح ضد الجيش الفرنسى.

كان طبيعيا أن ينسج الانجليز من أعداء فرنسا حلفا كبيرا. وتمت المجهودات الانجليزية بنجاح فى جمع كل من الإمبراطورية النمساوية وشارل ايمانويل (ملك سردينيا) مع انجلترافى حلف وقع فى وورمز[3] فى ١٧٤٣.

كانت حصة شارل ايمانويل من ذلك التحالف مغرية جدا. وكان دوره عظيما أيضا. كان انضمامه إلى حلف وورمز يعنى أن فرنسا أصبحت مهددة من جهات ثلاث وربما أكثر. فالجيش الانجليزى يعمل من قواعده فى هانوفر، والجيش النمساوى يضغط على الالزاس واللورين، وها هو شارل ايمانويل يستطيع من قاعدته فى (سافوى) أن يضغط على فرنسا من الشرق.

لعبت فرنسا هى الأخرى بنشاط فى الدبلوماسية وفى مجال توازن القوى الأوروبية تستطيع أن تواجه تكاثر القوى عليها. ففى السنة التى عقد فيها «حلف وورمز» كانت فرنسا قد توصلت إلى تفاهم مع جارتها أسبانيا فيما عرف باسم «معاهدة فونتنبلو»[4] ١٧٤٣ وكان من العوامل التى ساعدت على عقد المعاهدة وجود فرع الأسرة البوربون يحكم فى أسبانيا ويطمع فى وراثة النمسا فى إيطاليا. ولهذا اتفق الطرفان الفرنسى والأسبانى على المحافظة على استمرار مملكة

---

(١) Walpole

(٢) Carteret

(٣) Worms

(٤) Fontenbleau

الصقليتين تحت حكم «دون كارلوس» ومنع القوى الطامعة فى إيطاليا والمعادية لكل من فرنسا وأسبانيا من الحصول على أهدافها هناك.

ودارت الحرب بين «حلف وورمز» و «حلف فونتنبلو» ولكن ظل هناك رجل قوى خارج هذه الأحلاف يراقب بدقة تطور الأمور ونعنى بذلك فردريك الثانى ملك بروسيا. ولقد كانت التطورات تسير بسرعة ـ حتى قبيل عقد حلف وورمز ضد فرنسا.

فقد أحرز الجيش الإمبراطورى عدة انتصارات مبدئية عندما طرد القوات البافارية من ميونخ، والقوات الفرنسية من براغ، وعندما اضطر شارل البرت إلى التنازل عن العرش نهائيا لماريا تريزا (١٧٤٢) ثم اتجهت جيوش الإمبراطورية النمساوية إلى مهاجمة الإلزاس واللورين، لتصبح فرنسا فى موقف المدافع عن نفسها، وكانت فى موقف دقيق للغاية لأن انجلترا كانت حينذاك بمثابة مدفع كبير مصوب إلى قلب فرنسا من الشمال باستمرار، ولأن شارل ايمانويل ـ ملك سردينيا ـ أصبح بمثابة خنجر فى جنب فرنسا من الشرق. أو بمعنى آخر لقد أصبحت فرنسا فى ١٧٤٢/١٧٤٢ فى موقف مشابه لما كانت عليه الامبراطورية النمساوية فى ١٧٤١ وبدا كأن هناك خطة لاقتسامها[١].

ولكن فردريك الثانى ـ ملك بروسيا ـ أدرك خطورة ذلك الانتصار النمساوى على فرنسا، فإنه إذا ركعت فرنسا على ركبتيها فدور بروسيا آت عن قريب. ولهذا تحرك فردريك الثانى فجأة وبسرعة.

ولم تلبث القوات البروسية أن تفوقت، فاستولى فردريك الثانى على براغ (١٦ سبتمبر ١٧٤٤) وهزم النمساويين فى هوهنفريدبرج[٢] وفى سوهر[٣] وأرغم

(١) أنظر فيما سبق.

(٢) Hohenfridberg

(٣) Sohr

النمسا على عقد صلح درسدن[١] التى حفظ سيليزيا وجلاتز[٢] لفردريك وبدأت تطورات الحرب - بصفة عامة - تسير لصالح فرنسا. فبينما انشغلت القوات النمساوية بمنازلة الجيش البروسى، ركزت فرنسا جهودها العسكرية ضد الجيش الانجليزى وحلفائه فى الأراضى المنخفضة وانتصر الفرنسيون فى فونتنوى[٣] (١١ مايو ١٧٤٥) ثم فى لوفلد[٤] (٢ يوليو ١٧٤٦).

ولكن آمال ملك فرنسا لويس الخامس عشر - فى إحلال شارل ادوارد، والمطالب بإعادة أسرة ستسوارت إلى الحكم، محل جورج الثانى الهانوفرى على عرش انجلترا - لم تتحقق بسبب صلابة وتمسك الشعب الانجليزى بأسرة هانوفر البروتستنتية. بل لقد استعان الانجليز بجيش روسى مولوه بأموالهم الأمر الذى أضاع آمال فرنسا فى الإبقاء على الأراضى المنخفضة.

وفى هذه السنوات بدا كأن القوى المتصارعة لا تستطيع أن تغير من خريطة أوروبا تغييرا جوهريا ولم يحرز أى من الخصوم نصر مؤزرا يرغم الطرف الآخر على الخضوع لشروطه. ولهذا اتجهت النيات إلى إنهاء الحرب وتم ذلك فى صلح إكس لا شابل[٥] فى أكتوبر ١٧٤٨، فهو صلح لم يحسم أية معضلة كانت سببا من أسباب الحرب فيما عدا إنهاء مشكلة وراثة العرش النمساوية بالطريقة التى تريدها ماريا تريزا إذ اعترف ملك فرنسا وملك أسبانيا بفرانسيس امبراطورا، وأعطيت (بارما) فى ايطاليا إلى دون فيليب الأسبانى.

أما فيما يتعلق بالعلاقات الفرنسية الانجليزية فى هذا الصلح. فقد اعترف لويس الخامس عشر بملكية الهانوفر فى انجلترا، وانسحبت قواتة من الأراضى المنخفضة التى تعتبرها انجلترا خط الدفاع الأول عن هانوفر، بل وعن انجلترا نفسها. أما انجلترا

(١) Dresden

(٢) Clatz

(٣) Fontenoy

(٤) Lauffeld

(٥) Aix-la Chapelle

فأعادت حصن لويزبورج[1] - فى كندا - الى فرنسا بينما أعاد الفرنسيون مدراس[2] - فى الهند - إلى الإنجليز (شركة الهند الشرقية البريطانية)[3].

على هذا النحو تصالحت الدول الأوروبية المتصارعة دون أن تضع حلا نهائيا للمشكلات العويصة التى كانت كفيلة بأن تؤدى إلى الحرب مرة أخرى. فلقد كانت ماريا تريزا تنظر والألم يعتصر قلبها إلى فردريك وهو يتمتع بسيليزيا الممتدة كالخنجر فى قلب النمسا، وكانت فرنسا وانجلترا فى صراع استعمارى شبه متواصل فيما وراء البحار فى العالمين الجديد والقديم. ولقد صور المؤرخ الإنجليزى[4] طبيعة هذا الصراع تصويرا رائعا عندما قال:

«لم يكن نزاعا بين بلاطين أو حكومتين، وإنما كان نزاعا بين الأفراد... وبين الملاحين والتجار والمهربين والمغامرين، وقاطعى الأخشاب والمستعمرين والتجار والأحرار والشركات التجارية المتنافسة: فهم يتشاجرون ويتنازعون إما فى البحر الأسبانى أو نيوفوندلاند أو على طول شواطئ نهر الأهيو وسانت، أو تحت سماء الهند المحرقة بين حقول الأرز...، أو حقول قصب السكر وأشجار المانجو فى البنغال. فكان لا مناص من أن تؤدى المنافسة المطلقة على التجارة والاستعمار ومحاولة السيطرة فى آسيا وأمريكا الى اصطدامات لا حصر لها بين الأنجلو سكسونيين ومنافسيهم من اللاتين. واستفحل أمر المشاحنات غير الرسمية، فأصبحت حروبا غير رسمية».

لقد كان لابد من صراع أوروبى واسع النطاق، مرة أخرى. وكان على كل قوة أوروبية فى هذا الصراع الجديد أن تبحث عن حلف تستطيع أن تعتمد عليه اعتماداً مستمراً. وبدت خلال فترة الهدنة المسلحة بين (١٧٤٨-١٧٥٦) بعض الحقائق السياسية والاستراتيجية التى لا يمكن أن يتجاهلها ملوك أوروبا عند عقد المحالفات والمحالفات المضادة.

---

(١) Louisburg

(٢) Madras

(٣) East India Company

(٤) Fisher

١ - أدركت ماريا تريزا أن العدو الحقيقى لها هو بروسيا وأنه لمن الخطر المروع على النمسا أن يقع تحالف بين بروسيا وفرنسا عدو النمسا التقليدى.

٢- أن روسيا يمكن أن تشكل ظهيرا للنمسا، وأن تغرى بالتوسع على حساب بروسيا.

٣- أن السويد هى الأخرى تنظر بعين الحقد والخوف من نمو قوة فردريك الثانى ملك بروسيا.

٤- هذا فيما يتعلق بالنمسا وعداوتها العميقة لبروسيا. أما بالنسبة لفرنسا فقد أدركت هى الأخرى أن حليفها ملك بروسيا لا يتورع عن الانقلاب عليها إذا ما توسعت فى الأراضى المنخفضة أو فيما وراء نهر الرين. وأن آمالها فى الأراضى المنخفضة لا يمكن أن تتحقق إلا برضاء النمسا رضاء سليماً وعن طريق تعاون الطرفين النمساوى والفرنسى فى إعادة رسم خريطة أوروبا بما يحقق لكل منهما أهدافه.

٥- أدركت فرنسا، أن الحرب فيما وراء البحار ستكون ضارية، ولكن اتبعت كل من فرنسا وإنجلترا سياسة مختلفة عن الأخرى لمواجهة الحرب المقبلة فى المستعمرات. فقد اعتمدت فرنسا على جيشها البرى كقوة قادرة على أن تفرض على الانجليز صلحاً لا يضيع على فرنسا مستعمراتها، بينما عنيت إنجلترا بأسطولها الحربى على اعتبار أن الحصار الحربى سيؤدى إلى سقوط المعاقل الفرنسية فى المستعمرات الواحد بعد الآخر. خاصة وأن نسبة الفرنسيين فى كل المستعمرات كانت أقل من (١-١٠٠) من حيث العدد أما من حيث المساحة فقد كانت ممتلكات الانجليز وما تحت السيطرة فى كل من العالمين الجديد والقديم (الهند) فقد كان يفوق جداً ما كان تحت يد الفرنسيين الأمر الذى كان يشير إلى رجحان كفة الإنجليز فى حروب المستعمرات الصغيرة والكبيرة على السواء خاصة وأن الحكومة والشعب الانجليزى كان معنيا أكثر بأمر الامبراطورية البريطانية فيما وراء البحار بعكس الحكومة الفرنسية

هذه الظروف كانت موضوعة تحت عين السياسى العجوز النمساوى مستشار الإمبراطورية النمساوية منذ ١٧٥٣ الكونت ونزل فون كاونتز ريتبرج[1] الذى بذل جهده من أجل تحطيم التحالف الفرنسى - البروسى. وعزل فردريك الثانى، ثم سحقه بمساعدة كل من فرنسا وروسيا. ولم تثمر الجهود الأولى التى قام بها كاونتز فى أول الأمر إلا قليلا. ولكن كانت الاتجاهات تشير إلى أن إمكانية النجاح ليست مستحيلة.

ترأس كاونتز بنفسه بعثة دبلوماسية بين ١٧٥٠-١٧٥٣ ولكنها لم تستطع أن تقنع البلاط الفرنسى بأهداف السياسة النمساوية. ألا أن الموقف بدأ يتغير لصالح سياسة كاونتز عندما تصاعدت الصدامات بين الفرنسيين والانجليز فى المستعمرات خلال صيف ١٧٥٥.

انتهز النمساويون هذه الأزمة وعادوا إلى عرض مقترحاتهم على البلاط الفرنسى. ومما ساعد على أن يعيد الفرنسيون النظر فى موقفهم أن دى برنيس- سفير فرنسا لدى بلاط فينا لعدة سنوات مضت- كان مقتنعاً بهذا الاتجاه فكلفه لويس الخامس عشر بأن يتسلم المقترحات التى عرضها السفير النمساوى ستار همبرج.

وكان طبيعياً أن يسارع فريدريك الثانى ملك بروسيا إلى اتخاذ إجراءات مضادة لذلك التقارب النمساوى الفرنسى وإلا أصبح بين شقى الرحى، بل لقد أدرك أيضا أن قوى شرق أوروبا تتكتل ضده. فلقد أصبحت سياسة روسيا الخارجية توجه بواسطة الكونت بستوزيف رومين المعروف بعدائه لبروسيا والذى كان مستعداً كل الاستعداد لأن يضع يده فى يد «ماريا تريزا».

كان على فريدريك إذن أن يسعى إلى التقليل من عدد أعدائه إلى أقل درجة ممكنة ووجد أن فى استطاعته أن يبعد فرنسا عن ألمانيا عن طريق الاتفاق مع إنجلترا فقد كان يعلم أن الحرب بسبب المستعمرات وشيكة الوقوع بين فرنسا وإنجلترا فدعا

(١) Count Wengel Von Kaunitz- Rietberg

الانجليز إلى ضمان حياد ألمانيا فى هذه الحرب المقبلة وتم هذا الاتفاق بين الطرفين فى يناير سنة ١٧٥٦ فيما عرف باسم إتفاقية وستمنستر[١].

أدت هذه الاتفاقية البروسية الانجليزية إلى ردود فعل شديدة فى كل من باريس وفينا فقد استشاط سياسيو قصر فرساى من تلك الاتفاقية التى عقدها فردريك الثانى مع أعداء فرنسا (إنجلترا).

وهناك من المؤرخين من ينتقد هذا الموقف الفرنسى أشد الانتقاء ويتهم بلاط فرساى بأنه أساء استخدام هذا الاتفاق ووجهة نظر هؤلاء المؤرخين الانجليز أن هذا الاتفاق كان يعطى لفرنسا فرصة واسعة لكى تجهز جهودها العسكرية ضد إنجلترا فى الصراع الاستعمارى فيما وراء البحار وأن هذا الاتفاق الإنجليزى البروسى- علاوة على ذلك لم يشر لا من قريب ولا من بعيد إلى مصير الأراضى المنخفضة النمساوية تلك الأراضى التى كانت عينا فرنسا باستمرار عليها والتى كانت فى متناول الجيوش الفرنسية بكل سهولة.

وفى اعتقادنا أنه انتقاد يقوم على أسس واهية ذلك لأن الاستراتيجية الفرنسية طبقا لخطط مستشارى لويس الخامس عشر كانت تعتمد أساسا على الانتصار فى المعارك البرية فى قلب القارة الأوروبية وكان من العسير جدا على فرنسا أن تبعث بجيوشها إلى كندا أو إلى الهند بالنسبة للأراضى المنخفضة فإن إنجلترا- بل وروسيا نفسها- كانت ترى فى استيلاء فرنسا على الأراضى المنخفضة تهديداً مباشراً لها.

لقد دفع ذلك الاتفاق البروسى الانجليزى لويس الخامس عشر- بتحريض من عشيقته الجميلة غير السياسية مدام بمبادور[٢]- إلى أن يعمل على الانتقام من فريدريك الثانى. فعقد فى أول مايو ١٧٥٦ م الحلف الدفاعى المعروف باسم حلف فرساى الأولى وفيه اتفق الطرفان على أن ينزل كل منهما ٢٤ ألف مقاتل فى حالة تعرض أى منهما لهجوم دولة ثالثة.

---

(١) Westminster

(٢) Mme de Pampad

ولكن هذه المعاهدة ليست نصراً سياسياً أو عسكرياً «لكاونتز» أو «ماريا تريزا» حيث أن هذه المعاهدة لم تشتمل على الهدف الرئيسى «لماريا تريزا» وهو إذلال فريدريك الثامن- الذى كان يحتقرها- واسترداد سيليزيا منه.

ومع هذا فلا شك أن هذه المعاهدة كانت فاتحة إنقلاب دبلوماسى كبير اشتهر «بالثورة الدبلوماسية»[1].

نتيجة أخرى هامة نتجت عن ذلك الاتفاق الانجليزى البروسى (إتفاقية وستمنستر) وهى أن بلاط القيصرة اليزابيث الحانقة على فريدريك الثانى - بسبب النكات البذيئة التى كان يطلقها عليها- أدرك أن إنجلترا تقف ضد التوسع الروسى على حساب بروسيا. وترتب عن هذا تقارب بين بلاطى سان بطرسبرج وفينا يهدف إلى تعاون ثلاثى روسى فرنسى نمساوى ضد بروسيا ولن يتم هذا التعاقد إلا فى آخر يوم من عام ١٧٥٦.

كان فردريك يرقب بعناية تلك التطورات الدبلوماسية العسكرية، وأدرك أنه لا يستطيع انتظار إنقضاض العمالقة عليه متجمعين، وأدرك أنه عليه أن يبدأ التحرك فجأة وبسرعة حتى يضرب النمسا بالذات قبل أن تستكمل استعداداتها العسكرية. وحتى يتمكن من أن يضرب كل جيش من جيوش أعدائه على حدة.

بدأت حرب السنوات السبع بهجوم شنه فردريك الثانى على ساكسونيا فى أواخر أغسطس ١٧٥٦ فأرغم جيش ساكسونيا على الاستسلام فى برنا[2] فى أكتوبر ١٧٥٦ ولكن لم يلبث أن منى الجيش البروسى بالفشل الذريع فى يونيو ١٧٥٧.

ولكن الأشد من هذا على بروسيا أن فرنسا وقعت مع النمسا فى أول مايو سنة ١٧٥٧ معاهدة فرساى الثانية وفيها تعهدت فرنسا بأن تحتفظ بجيش فرنسى يبلغ

(١) Diplomatic Revolution

(٢) Pirana

١٠٥ آلاف من المرتزقة الألمان وأن تدفع للنمسا مبلغاً ضخما كمساعدة نقدية وفى مقابل كل هذا لم تطلب فرنسا إلا أربع مدن فى الأراضى المنخفضة النمساوية على أن يحكم دون فيليب[1] – زوج إبنة لويس الخامس عشر – الجزء الباقى من تلك الأراضى المنخفضة. هذه الشروط كلها كانت تتوقف على إسترداد «ماريا تريزا» لسليزيا.

وهكذا تعهدت فرنسا بأن تخوض حربا مكلفة جدا لا تتوقع من ورائها أى مكسب إلا إذا أحرزت نصرا حاسما ونهائيا.

لم يلبث أن وقعت روسيا والنمسا محالفة دفاعية هجومية (مايو ١٧٥٧) وانضمت السويد إلى هذا التحالف الكبير الموجه ضد روسيا (مارس ١٧٥٧). وتحولت الأمور بشكل قاس ضد فردريك الثانى فى مختلف الميادين حتى فى هانوفر التى كانت يعتمد عليها إلى حد كبير. فقد اجتاحت الجيوش الفرنسية هانوفر وأرغمت دوق كمبرلاند[2] على عقد هدنة فى سبتمبر ١٧٥٧ هى أقرب إلى الاستسلام منها إلى الهدنة. وغزا جيش روسى بروسيا الشرقية فى أغسطس (١٧٥٧). واستولت القوات النمساوية على برلين فى أكتوبر من نفس تلك السنة.

لقد أصبح موقف فريدريك الثانى غاية فى الحرج، وسعى إلى إنقاذ نفسه وبلاده بالوصول إلى تفاهم مع لويس الخامس عشر وإحياء ما كان بين بروسيا وفرنسا من تحالف قديم، ولكن دون جدوى، ولم يعد أمام فريدريك الثانى إلا أن يخوض المعركة معتمداً على مقدرته وصلابة جيشه.

وفى روسباخ[3]، فى نوفمبر ١٧٥٧ أحرز فريدريك إنتصارا ضخماً على الجيش الفرنسى وبعد أسابيع قليلة أحرز إنتصاراً آخر رائعاً على الجيش النمساوى فى موقعة ليوثن[4] واستطاع فريدريك بعد هذا أن يقف بقوة أمام القوى الكبيرة المحدقة

(١) Don Philip

(٢) Duke Of Cumberland

(٣) Rossback

(٤) Leuthen

به. وأن يهزم جيشاً روسيا فى زورندوف[1] التى تعتبر أكثر معارك القرن دموية وضحايا خلال القرن الثامن عشر.

كذلك تحسن الموقف فى الميدان الذى كان يعمل فيه الجيش الانجليزى. فقد حمى الجيش الإنجليزى– وما معه من قوات ألمانيا فى وستفاليا – الجناح الغربى لبروسيا – أى هجوم قد يشنه الفرنسيون.

وليس معنى هذا أن فريدريك كان قادرا على أن يتحول إلى الهجوم وإلى التوسع على حساب جيرانه الكبار. فلقد كانت هناك أخطار كبيرة لا تزال تهدد بروسيا تهديداً مباشراً. ففى نفس العام الذى انتصر فيه فريدريك الثانى فى «زورندورف» قام الجيش السويدى بغزو (بومبرانيا)، كما أحرز الجيش النمساوى انتصاراً على البروسيين فى (١٧٥٩) فى موقعة هشكيرش[2] فى ساكسونيا.

لقد كانت بروسيا – مهما كانت الأوضاع – فى متناول جيوش الأعداء. وكانت الحرب من جانب دول كبرى يبلغ تعدادها تسعين مليونا ضد بروسيا التى لا تزيد إلا قليلا عن خمسة ملايين نسمة. ومن ثم كان فى إستطاعة أعداء بروسيا أن يعيدوا بناء جيوشهم، وإنزال الجديد منها إلى حومة الوغى.

ولكن بالنسبة لبروسيا، كانت الطاقة البشرية فيها محدودة. وحتى إذا تمكن فريدريك من تجييش جيش جديد ليحل محل القوات الكثيفة التى خسرها خلال القتال الذى دار ١٧٥٧/١٧٥٦ فإنه ما كان ليستطيع أن يعوض خسارته فى زهرة الجيش البروسى التى فقدها خلال معارك تلك السنوات الأولى من الحرب. لقد حافظ فريدريك على مستوى قواته رغم الخسائر الكبيرة التى نزلت به، وظلت له مكانته كصاحب جيش رهيب، ولكن فى الحقيقة لم يعد الجيش الجديد قادراً على أن يلبى حاجات فريدريك وبروسيا مثلما كات عليه الحال من قبل.

---

(١) Zornorf

(٢) Hochkirch

وخلال ١٧٥٩/ ١٧٦٠ بدا واضحا أن جيش فريدريك - الذى هبط تعداده إلى الثلث[١] - لايستطيع أن يستمر فى القتال على تلك الصورة أمام جيوش كثيفة يمكن هزيمتها ولكن يمكن أن يقود غيرها إلى الميدان. حقيقة كان الانجليز يقدمون إليه مساعدات عسكرية كبيرة، ولكنها لم تكن كافية لمواجهة احتمالات الحرب وتطوراتها المضطربة.

وبلغت متاعب ومخاوف فريدريك أوجها عندما هزمه الجيش الروسى فى معركة «كندرسدورف»[٢] (أغسطس ١٧٥٩). حتى أنه كتب إلى وزيرة فنكنشتين[٣]:

«..... إننى لاعتقد أننى فقدت كل شىء. ولن أبقى على قيد الحياة لأشاهد خراب بلادى».

ولكن الحقيقة أنه كانت لا تزال أمام فريدريك الثانى فرصة لاستعادة مكانته. وأكبر فرصة كانت تخدم فردريك هى أن أعداءه النمساويين والروس كان كل منهم يشك فى نيات الآخر، وإن تصاعدت هذه الشكوك لدى القائد الروسى سالتيكوف[٤] عندما كانت القيصرة اليزابيث تحتضر ووضعت الأمور فى يد الدوق الكبير بطرس المعجب بفريدريك. ولهذا لم يتابع سالتيكوف تحركاته بعد انتصاره الكبير فى «كندرسدورف» فأعطى الفرصة لفريدريك الذى انتهزها ووضع يده على معظم ساكسونيا.

وفى نفس هذا الوقت كذلك كانت الحكومة الفرنسية قد أدركت عظم تعهداتها إزاء النمسا وصغر العائد عليها من وراء تلك الحرب المكلفة، فدخلت فى مفاوضات جديدة مع النمسا وانتهت المفاوضات بمعاهدة فرساى الثالثة (مارس ١٧٥٩) التى خفضت إلتزامات فرنسا نحو النمسا إلى النصف عسكريا وماليا.

---

(١) من ١٥٠ إلى ١٠٠ ألف فقط

(٢) Kunersort

(٣) Finckenstien

(٤) Saltykiv

وتوباجو فى جزر الهند الغربية ومينورقة فى الحوض الغربى للبحر المتوسط كما حصلت على فلوريدا الأسبانية. وبذلك تكون إنجلترا قد خرجت من الحرب وقد ربحت مستعمرات شاسعة فى العالم الجديد ولو أضفنا إلى هذا إلى أنها صاحبة اليد العليا فى الهند- بعد طرد الفرنسيين من معظم معاقلهم - لتبين كم أصبحت عليه تلك الإمبراطورية من الاتساع.

٢- أما فرنسا فقد خسرت معظم مستعمراتها، ولكنها احتفظت بلويزيا، وببعض المواقع الصغيرة المحاطة بالإنجليز فى الهند. مع حقوق الصيد فى نيو فوندلاند.

٣- وأما أسبانيا فقد خسرت فلوريدا، ولكنها استردت هافا ومانيلا.

وإذا كانت حرب السنوات السبع التى قوضت الخزينة الفرنسية، ووجهت ضربة قاسية للملكية الفاسدة ولطبقة النبلاء الجوفاء وأضاعت على فرنسا مستعمراتها ومهدت بذلك للثورة الفرنسية، فقد مهدت حرب السنوات السبع كذلك لثورة سكان المستعمرات الإنجليزية فى أمريكا الشمالية وتحولت هذه الثورة إلى حرب الاستقلال الأمريكية.

الفصـــل الخامس عشر

حرب الاستقلال الأمريكية

تعتبر حرب الاستقلال الأمريكية واحدة من أبرز معالم تاريخ القرن الثامن عشر وأسباب وتطور هذه الحرب مرتبط ليس فقط بالتطورات التى وقعت فى المستعمرات البريطانية فى أمريكا الشمالية أو فى أوروبا خلال أزمة حرب السنوات السبع، بل أنها ترتبط بالطريقة التى بدأ بها الإنجليز عملياتهم الاستعمارية فى أمريكا الشمالية.

شارك الانجليز فى حركة الكشوف فى أواخر القرن الخامس عشر عندما وصل جون كابوت إلى نيو فوندلاند وسار بحذاء الساحل معطياً لملك إنجلترا الحق فى الادعاء بملكية ما عرف بعد ذلك باسم الولايات المتحدة الأمريكية. فقد أسس الانجليز أولى مستعمراتهم هناك فى ١٦٠٧ وعرفت باسم جيمستون، وكان أتباع الحكومة لسياسة الشركات التى تتولى استعمار الأراضى لحسابها- بما يفيد الوطن الأم- من العوامل الجوهرية التى وطدت الاستعمار الإنجليزى فى أمريكا. ولكن الهجرات المتتالية من انجلترا بالذات إلى العالم الجديد كانت من أهم عوامل نجاح هذا الاستعمار وزيادة عدد السكان هناك.

ومما ساعد على نمو عدد السكان أيضاً الاضطهادات الدينية فى إنجلترا التى أدت إلى هجرة البيوريتان وفى فرنسا التى أدت إلى هجرة الهيجونوت.

وباتساع نطاق هذه المستعمرات الإنجليزية أصبحت تكون وحدات كبرى (١٣ ولاية) لكل منها حكمها الذاتى ولكنها جميعاً تحت سيطرة ملك إنجلترا والبرلمان الانجليزى

حقيقة كانت الحكومة البريطانية تشجع رعاياها على الاستعمار وتمنحهم التسهيلات ولكنها فى أول الأمر لم تكن تنتظر الكثير من الفوائد من وراء الاستعمار فى أمريكا، بل كانت هناك منذ البداية مخاوف من أن تهتز العاصمة الإنجليزية إقتصادياً بسبب نمو إقتصاديات المستعمرات على حساب إقتصاديات الوطن الأم. فقد كانت هذه المستعمرات لا تتاجر مع بريطانيا فقط فى أول الأمر وأدركت حكومة لندن أن ربط تجارة المستعمرات مع بريطانيا قد يعود على حكومة لندن بالفوائد الكبيرة ولذلك صدرت القوانين الملزمة بالمتاجرة فقط مع بريطانيا منذ منتصف القرن السابع عشر. وكانت هذه القوانين من الصرامة لدرجة أن ماسوشستس تمردت مرتين على هذه القوانين (١٦٧٤؛ ١٦٨٩). ولكى تظل المستعمرات الأمريكية مجالا مفتوحا أمام المنتجات الانجليزية حرم عليها إنشاء صناعة الحديد بواسطة البرلمان البريطانى فى ١٧٥٠.

وبمرور السنين، ثبت أن المستعمرات الإنجليزية كانت أكثر قوة وأعظم إنتاجاً لو قيست بالمستعمرات الأسبانية والبرتغالية والفرنسية وذلك يرجع إلى عدة أسباب.

١ - استعمر الإنجليز أقاليم ضيقة قبل أن يتوغلوا فاتحين صوب الداخل بعكس البرتغاليين والأسبان الذين توسعوا وفتحوا بلادا شاسعة للغاية قبل أن يبنوا المستعمرات.

٢ - كان الانجليز مثل البرتغاليين والأسبان والفرنسيين يهدفون أول ما يهدفون إليه من وراء الكشف إلى الحصول على المذهب والتوابل. ولكن ما أن إستقروا لسبب أو لآخر فى العالم الجديد وخاصة فى السواحل الشمالية من الولايات المتحدة - حتى تخلوا عن البحث عن الذهب -- الذى بدا لهم بعيد المنال -- وعملوا فى الأرض ينتجون المحاصل الزراعية التى تجلب إليهم الذهب فقد كان الأسبان والبرتغاليون والفرنسيون فى حاجة إلى الأهالى الأصليين لكى يحصلوا على الذهب، ثم لكى يحصلوا على الأيدى العاملة الرخيصة بطرق شرعية أو غير شرعية. أما الانجليز فكانوا يحتلون المنطقة. ويبيدون سكانها الأصليين، أو يبعدونهم عن منطقتهم عندما ينشئون مستعمراتهم.

وكانت هذه المستعمرات الانجليزية من حدود كندا (الفرنسية) إلى أقصى الجنوب ليست متشابهة. وإنما كانت هناك اختلافات واضحة منذ البداية بين الشمال والجنوب.

فقد كان التنظيم فى الجنوب أرستقراطيا يقوم على أساس الأراضى المتسعة التى يعمل فيها العبيد المجلوبون من أفريقيا الذين كانوا أكثر عدداً من البيض، وكانت المدن فى الجنوب أقل عدداً على العكس من الشمال وكان الشمال- من ناحية أخرى- يقوم على أسس ديمقراطية، والأرض يحتلها ويزرعها البيض، ولهم فيها مدن مطردة النمو، وكبار رجال الأعمال والملاك والعقاريون كان أكثرهم فى الشمال.

ولكن بصفة عامة كانت الطبقة العليا فى كل مستعمرة هى الطبقة المتوسطة من التجار وأصحاب المزارع، ولكن بجوارهم قلة من الأثرياء. وكانوا نموذجاً من التجار والزراع الانجليز الذى أبادوا أهالى البلاد من الهنود الحمر أو وضعوا الرقيق الزنوج المستوردين من أفريقية فى خدمتهم بغض النظر عن أى حق لهؤلاء سوى حق الحياة بما يسد الرمق أو أقل.

وكان الحكم فى المستعمرة مركزاً على ثلاث قواعد: الحاكم، المجلس الإستشارى، المجلس التمثيلى. وكان الحاكم يعينه الملك، وهو قائد الحامية، والمسئول عن الأمن ويرعى مصالح المستعمرين على أن لا يضر بمصالح التاج. وله الحق فى الاعتراض على قرار المجلس. وإذا كان المجلس (الإستشارى) ليست له سلطات قوية. فقد كان المجلس التمثيلى منتخبا بواسطة الشعب وأشبه بأن يكون (مجلس العموم). وكانت له صلاحية فرض الضرائب وإمكانية التحكم فى رواتب الموظفين إبتداء من حاكم عام الولاية وبالتالى استطاع أن يفرض المجلس كلمته على الحاكم وأن يعطى للولاية مظهراً من مظاهر الحكم الذاتى فى إطار السيادة الملكية البريطانية.

كان تطور الاستعمار البريطانى فى العالم الجديد يحمل فى ثناياه الحكم الذاتى أو انفصال المستعمرات عن الوطن يوما ما، وذلك لأن التكوين الاجتماعى لأهالى

المستعمرات، والبناء الاقتصادى، كان أوروبيا.، إنجليزيا، أو بمعنى آخر كان يحمل مفاهيم الحكم والادارة والبرلمان والفكرة القائلة بحق الشعب فى أن يتولى حكم نفسه بنفسه.

فلقد كان من المستبعد أن يصبح أهل المستعمرات «مواطنين إنجليز». ورفضت الحكومات البريطانية الاعتراف بهم مواطنين إنجليز ومن ثم كان المستعمر فى العالم الجديد فى حاجة إلى شخصية أخرى غير تلك تستطيع أن ترفعه إلى مستوى أفكاره وأن تزيل عنه وصمة أنه من سلالة الفارين من وجه الاضطهاد الدينى، أو الفقر الوضيع أو من وجه العدالة فإذا كان ذلك ينطبق على المستعمرين فى الأجيال الأولى خلال القرن السابع عشر فالأجيال الأولى اختلفت عن تلك ورأت فى نفسها - عن حق- أنها لا تقل مستوى عن المواطنين الإنجليز فى الوطن الأم.

ففى الوقت الذى كانت فيه روح الاعتداد بالنفس والشعور بالمساواة مع أى مواطن إنجليزى فى بريطانيا، والشعور بالمقدرة على إدارة أمور المستعمرات بكفاءة لا تقل عن كفاءة الحكام الانجليز، فى هذا الوقت نفسه كانت فكرة السيادة المطلقة للدولة الأم على مستعمراتها تزداد قوة لدى الملك جورج الثالث وحكومته، وكان من الأمور التى لا يتصورها الملك بالذات فكرة إنسلاخ المستعمرات عن الوطن الأم أو أن مثل هذه الأفكار قد يتفتق عنها تفكير أهل المستعمرات، وأنه لابد أن يستمر أهل المستعمرات خاضعين للحكومة الأم حتى ولو لم يكونوا ممثلين فى برلمان لندن. وأن تستمر السيادة البريطانية حتى ولو كرهت بعض المستعمرات ذلك.

ولكن غاب عن الحكومة البريطانية - فى رأى بعض المؤرخين إن ذلك قد ينطبق على مستعمرة يتكون أهلها من غير الأوروبيين، وأنه لا يمكن أن ينطبق على مستعمرات (إنجليزية التكوين) رضعت لبن الحكم الذاتى. وحكم الشعب وتراث الماجنا كارتا، وغذتها آداب وروائع أوروبا فى القرن الثامن عشر بأفكار تقدمية كانت ارهاصا للمبادئ التى أدت وقامت عليها الثورة الفرنسية الكبرى.

وإذا كانت تلك المشاعر قابلة للكبت لفترات طويلة، فإنه كان من المتعذر كبت المصالح الاقتصادية المتضاربة بين أهل المستعمرات والحكومة البريطانية، وخاصة بعد أن تضخمت متاعب الحكومة البريطانية المالية بسبب النفقات الباهظة التى تكبدتها خلال حرب السنوات السبع، ولاتجاه الحكومة البريطانية إلى جعل المستعمرات تتحمل شطراً ليس بالقليل من مثل هذه الأعباء المالية، وأن تتحمل المستعمرات كذلك عبء إنشاء جيش ثابت للدفاع عن نفسها ولكن هذا يعنى حق الحكومة البريطانية فى أن تفرض بنفسها الضرائب على أهل المستعمرات متجاوزة بذلك ما كان يتمتع به المجلس التمثيلى فى كل مستعمرة.

وكانت لأهل المستعمرات وجهات نظر تخالف تلك التى تبنتها الحكومة البريطانية فى هذا الصدد. فقد كانوا يرون أن تلك الأعباء المالية خاصة المتعلقة بجيش ثابت- تجىء بعد انتهاء الحاجة إليها، ثم إن قيام الحكومة البريطانية بفرض الضرائب هو إلغاء لمظهر جوهر من مظاهر الحكم الذاتى التى تمتعت به المستعمرات منذ زمن طويل، وتمسك أهل المستعمرات بهذا المظهر خاصة وأنهم غير ممثلين فى مجلس البرلمان البريطانى ذلك المجلس الذى توطد وجوده على أساس المبدأ العظيم Notaxation Without Representation أى لا ضرائب إلا بالتمثيل النيابى للشعب.

ولكن اصطدمت تلك الرغبات بأهداف وظروف مضادة من جانب الملك الإنجليزى جورج الثالث وحكومته.

فقد تشبث الملك بحقوق السيادة المطلقة على المستعمرات وأن فرض الضرائب هو أبرز مظاهر هذه السيادة. وبالتالى أصبح الطرفان على طرفى نقيض.

وكان الملك الإنجليزى عنيداً فى هذا الصدد. وكان لا يقدر المجتمع الأمريكى حق قدره وفى مقابل ذلك تمسك الأمريكى بشخصيته وكيانه، وحقه كأوربى فى أن يعيش على مستوى العصر وعلى قدم المساواة مع أخيه فى الجزيرة البريطانية نفسها.

كل هذا يفسر لنا إصرار الحكومة البريطانية على فرض الضريبة بعد الضريبة، رغم المقاومة العنيفة التى واجهت الحكومة البريطانية فى تنفيذ تلك الضرائب.

حدث هذا عندما حاولت الحكومة البريطانية فرض ضريبة الدمغة (١٧٦٥) فقد واجهت الحكومة مقاومة شديدة من جانب المستعمرين الذين تمسكوا بحقهم فى فرض وتحديد الضرائب حتى لقد عقد مؤتمر فى نيويورك إشتركت فيه تسع ولايات (فى ١٧٦٥) وقامت بعمل مشترك إزاء القضية بأن طالبت الحكومة البريطانية بإلغاء القانون.

حقيقة ألغت الحكومة البريطانية ضريبة الدمغة، ولكنها تمسكت فى نفس الوقت بحق برلمان لندن فى أن يفرض الضرائب على المستعمرات، ومن ثم ظلت النار مشتعلة تحت الرماد لم تلبث أن اندلعت عندما فرضت الحكومة ضريبة على إستيراد الشاى وعندما حاولت أن تفرضها بالقوة فى بوسطن الأمر الذى أدى إلى (مذبحة بوسطن) (١٧٧٠) وأصبح أمر إلغاء إو بقاء ضريبة الشاى يعنى الصراع بين الدكتاتورية التى تمارسها حكومة لندن، وحق الشعب فى أن يحكم نفسه بنفسه ولو حكما ذاتيا فإذا عمدت الحكومة إلى الإستمرار فى فرض الضريبة عمدت جماهير الشعب إلى مقاطعة الشاى (الإنجليزى) بل وإلى القائه فى البحر (حفل الشاى فى بوسطن ١٧٧٣)- وعندما أغلق الملك وحكومته ميناء بوسطن. وطلبت معونة كاثوليك كندا ضد المستعمرين الإنجليز فى الولايات. إشتد سخط هؤلاء المستعمرين وعقدوا المؤتمر الأمريكى ١٧٧٤ وأسسوا الكونجرس الأمريكى الأول- من مندوبى الولايات الذى انعقد فى فيلادلفيا (١٧٧٤).

لم يطالب المؤتمر بالانفصال، وإنما حذر الشعب الإنجليزى من أن حكومته تنذر بنشوب حرب طائفية بين الكاثوليك (كندا) والبروتستنت فى المستعمرات الأمريكية. وطالب المؤتمر بوقف الأعمال التعسفية، ولكن الحكومة البريطانية استمرت فى سياستها وأرسلت القوات الجديدة إلى بوسطن، ودارت المعارك، وبدا واضحاً أن طرق العودة إلى علاقات أحسن بات مستحيلا، وفى هذه الظروف عقد

المؤتمر الثانى للولايات فى فيلادلفا (مايو ١٧٧٥)، وسادت فيه إتجاهات قوية نحو أن تتولى المستعمرات حكم نفسها وأن تنشيء المستعمرات جيشاً للدفاع عنها.

وكانت هناك فرصة أخيرة وإن كانت واهية، للوصول إلى حل وسط عندما أرسلت المستعمرات التماسا إلى الملك جورج الثالث بإعادة النظر فى تلك الإجراءات التعسفية، ولكن الملك كان يضع موضوع السيادة فوق أى إعتبار آخر، وأصر على ضرب الثورة بالقوة فكان أن أعلنت الولايات استقلالها فى ٤ يوليو ١٧٧٦.

كانت هناك عوامل رئيسية أدت إلى نجاح الثورة وثبات حركة الاستقلال على الصعيدين المحلى والدولى.

١ - كانت هناك قوى عديدة أوروبية تنظر بعين القلق إلى خروج إنجلترا من معظم الحروب الأوربية خلال القرن الثامن عشر منتصرة، فكانت فرنسا قد فقدت لصالح إنجلترا معظم مستعمراتها فى العالمين الجديد والقديم وأسبانيا كانت ترى أن بريطانيا دولة امتازت على حقوقها البحرية والتجارية، ومع هذا فقد كانت أسبانيا تكره أن تؤدى الثورة الأمريكية إلى ظهور دولة مستقلة أمريكية تكون سابقة ومثلا تحتذيه المستعمرات الأسبانية، ولكن الخطر البريطانى على مستقبل أسبانيا كان أعظم من خطر ظهور دولة أمريكية، مستقلة، خاصة وأن دخول فرنسا الحرب ضد بريطانيا كان عاملا مشجعا إلى جانب الثورة الأمريكية وكل منهما كانت تكره ذلك التفوق البريطانى الساحق فى ميدان الاستعمار والمستعمرات.

٢ - لقد كانت نداءات الأمريكيين مسموعة فى أوربا، لأنهم كانوا يمثلون فكرا أوروبيا [1] متجاوبا مع الفكر الأوروبى. وكانت هناك تطلعات أوروبية نحو الحلول محل بريطانيا فى الولايات الأمريكية، خاصة من حيث التبادل التجارى، وإلى

(١) سنلاحظ أن ثورات تحررية عديدة فى آسيا ضد الاستعمار البريطانى لا تلقى آذانا مصغية من أوربا بل على العكس ستعرض عنها أوربا وذلك لان الفكر التحررى الأوربى كان مقصورا على الأوربيين ولا يشمل الآسيويين والأفريقيين أو أهالى العالم الجديد الأصليين.

جانب هذا فلا شك أن فرنسا كانت مستعدة لأن تبذل من أبنائها وأموالها ما يخدم قضية الإنسان المضطهد على يد الحكومة البريطانية. وفعلا مدت فرنسا معونتها العسكرية للثورة الأمريكية.

ولكن، لماذا فشلت الحكومة البريطانية فى إحراز نصر ولو نصر محدود ضد الثورة الأمريكية، بل لماذا لقيت الهزائم العديدة ؟ بينما كانت إنجلترا قبل ذلك لا تدخل إلا حربا رابحة وكانت أساطيلها قادرة على ضرب أعدائها، فضلا عن قطع خطوط المواصلات بين الدول الأوروبية (وخاصة فرنسا) ومستعمراتها.

والسبب الجوهرى هنا أن قطع الأسطول البريطانى لخطوط المواصلات البحرية لم يكن فى جداول التكتيك الإنجليزى العسكرى إلا بعد دخول فرنسا الحرب. وإنما كانت إنجلترا فى حاجة إلى جيوش كبيرة لتحارب على أرض معادية فى أمريكا، ولتحارب شعبا وليس جيشا محدود العدد جاء من أوروبا ويعتمد على ما يأتيه من وراء البحار، هذه الأوضاع أعطت للقوات الأمريكية تفوقا عسكريا، فضلا عن التفوق المعنوى الذى كان لديها لأنها كانت تدافع عن قضية عادله آمنت بها تناصرها فرنسا ذات الصيت الذائع.

وتوالت الانتصارات الأمريكية وكان آخرها استسلام القائد الإنجليزى كورنوالس فى بوركتون أكتوبر ١٧٨١ فى أعقاب هزيمة الأسطول عند السواحل الأمريكية بفضل الفرنسيين.

أما وقد عجزت الحكومة البريطانية عن الوصول بالقوة الى أهدافها فقد لجأت إلى تصفية الموقف بالتفاوض لتوقيع الصلح الذى تم فى ١٧٨٣ ، وبمقتضاه اعترفت حكومة بريطانيا باستقلال الولايات المتحدة واعتبار نهر المسيسبى حدها الغربى. ولم تلبث أن تحسنت العلاقات بين الجمهورية المستقلة الجديدة، والحكومة البريطانية ويبدو أن حكومة الثورة فى فرنسا (بعد ١٧٨٩) كانت تعتقد أن حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ستقف إلى جانبها ضد إنجلترا بعد أن وقعت الحرب بين الطرفين

(١٧٧٣) اعترافا بجميل فرنسا لما سبق أن ضحت به من أجل استقلال الولايات المتحدة الأمريكية. ولكن حكومة الرئيس واشنجتن آثرت أن تقف على الحياد المشوب بالميل نحو بريطانيا نتيجة للعلاقات الاقتصادية التى تربط البلدين، بل لقد عقدت الولايات المتحدة الأمريكية معاهدة تجارية مع بريطانيا فى (١٧٩٤) نكان ذلك من أسباب سوء العلاقات بين فرنسا والولايات المتحدة، ومن الأسباب أيضا حصول فرنسا علي يد نابليون ـ على لويزيانا (الأسبانية) مع أن الولايات المتحدة كانت تتطلع إلى استكمال وحدة أراضيها بضم نيو أورليانز إليها.

ولكن الطرفين كانا يريدان استمرار السلام والتفاهم بينهما وفعلا حصلت الولايات المتحدة بالشراء على لويزيانا ونيو أورليانز ومماسهل الوصول إلى هذا الحل أن نابليون كان يدرك عدم استطاعته الدفاع عن نيو أورليانز إذا تمسك بها. وكان التمسك بها يعنى فعلا الحرب مع الولايات المتحدة الأمريكية حيث أن نيوأورليانز هى مفتاح المسيسبى.

ومن ناحية أخرى كانت العلاقات بين فرنسا وبريطانيا تتدهور بسرعة صوب الحرب (١٨٠٣) ومن ثم كان الوصول إلى حل سلمى يرضى الولايات المتحدة فيه كسب لفرنسا وإبقاء على الصلات الطيبة مع الولايات المتحدة،و تلك الصلات التى يمكن أن توجه ضد انجلترا فى المستقبل.

وكانت الولايات المتحدة تريد فعلا أن تستمر على الحياد بين إنجلترا وفرنسا ولكن ظروف الحصار البحرى الذى فرضته إنجلترا على السواحل الأوروبية كإجراء ضد الحصار القارى الذى أعلنه نابليون ضد بريطانيا سنة ١٨٠٦ هذه الظروف أدت إلى أن تتعرض السفن الحربية الإنجليزية للسفن الأمريكية وتفتيشها، الأمر الذى رفضه الأمريكيون، ولما تمادى الإنجليز فى ذلك وقعت الحرب بين إنجلترا والولايات المتحدة فى ١٨١٢ واستمرت بعض الوقت اتفاقية غنت Chent ١٨١٤ التى أعادت الأمور إلى ما كانت عليه، خاصة وأن ظروف أوروبا كانت قد تغيرت بسقوط إمبراطورية نابليون.

نظام الحكم فى الولايات المتحدة الأمريكية

فى الوقت الذى كان فيه الشعب الأمريكى يخوض حرب الاستقلال، كان يواجه كذلك مشكلة عويصة هى مستقبل وشكل الحكومة التى ستتولى أمر البلاد، وحيث أن المستعمرات كانت تتمتع فعلا بنوع الحكم الذاتى والمجالس، فقد كان الاندماج الكامل فى دولة قومية من الأمور المستبعدة، وحيث أن ظروف الحرب كانت تتطلب تكتلا عسكريا بين الولايات فقد بات على هذه الولايات أن تكوّن اتحادا فيما بينها لا وحدة كاملة، ومن هنا كان ظهور الاتحاد الفيدرالى بين الولايات، أو الولايات المتحدة.

لقد كان هناك إجماع على أن البلاد يجب أن تحكم حكما دستوريا ولهذا بذلت جهود مضنية بعد إنتهاء حرب الاستقلال لوضع دستور ترضى عنه كافة الولايات. وكانت ثلاث عشرة ولاية.

كانت المشكلة الأولى التى واجهت واضعى الدستور هى إصرار الولايات الصغيرة أن يكون لكل ولاية فى البرلمان أو الكونجرس صوت بغض النظر عن عدد سكانها بينما تمسكت الولاية الكبيرة بأن يكون التمثيل فى الكونجرس بنسبة عدد السكان فى الولاية وأدى ذلك إلى ظهور مجلسين (الكونجرس) :

١ـ مجلس النواب: ينتخب النواب فيه على أساس عدد السكان.

٢ـ مجلس الشيوخ: تمثل فيه كل ولاية بعضوين اثنين بغض النظر عن عدد السكان.

ونص الدستور فى نفس الوقت على أن أى تشريع لا يمكن أن يصبح قانونا سارى المفعول إلا إذا وافق عليه كل من المجلسين.

أما السلطة التنفيذية فقد وضعت فى يد الرئيس المنتخب الذى هو مرشح الحزب الفائز فى الانتخابات. والمعروف أن الولايات المتحدة الأمريكية اتبعت منذ البداية وباستثناءات ضئيلة، أسلوب الحزبين المتنافسين.

وليس فى الولايات المتحدة مجلس وزراء على الصورة المعروفة فى أوربا، إنما يقوم الرئيس الأمريكى قبيل تسلمة مهام منصبه بتعيين سكرتيرين هم أشبه ما يكونون بالوزراء لمختلف شئون الحكم والادارة. وهم مسئولون أمامه هو ومسئولون عن تنفيذ سياسته.

وتمشيا مع قاعدة «فصل السلطات» كانت السلطة القضائية مستقلة عن السلطتين الأخريين (التنفيذية والتشريعية) .

على هذه الصورة كان نظام الحكم الذى نص عليه دستور ١٧٨٨ الذى وافقت عليه الولايات الثلاث عشرة.

ولا جدال أن الدستور الأمريكى راعى إلى حد كبير ظروف الولايات المتحدة الأمريكية ووضع متأثرا بحقوق الانسان وبما ألفه دعاة الفكر التحررى فى ذلك العصر من أمثال مونتسكيو (صاحب روح القوانين) كما استمد الدستور الأمريكى بعض مقوماته من الدستور البريطانى.

ولكن واضعى الدستور الأمريكى لم يرتفعوا إلى مستوى العمل من أجل الإنسان كإنسان بغض النظر عن لونه أو عنصره فحقوق الإنسان بمقتضى ذلك الدستور ـ كانت مكفولة للأوربى أو صاحب الثقافة الأوربية، أما ما عدا ذلك فليسوا جديرين بتلك الحقوق.

فلا غرو أن تجاهلت الثورة التحررية الأمريكية حقوق الزنوج الذين استرقهم البيض واستعبدوهم وعاملوهم أبشع ما يعامل به الإنسان.

الفصـــل السادس عشر

أوروبا فى أواخر القرن الثامن عشر

فى أواخر القرن الثامن عشر كانت أوضاع أوروبا ـ من مختلف الجوانب ـ قد تغيرت عما كانت عليه فى مطلع عصر النهضة، ليس فقط من حيث ظهور دول جديدة، مثل الأراضى المنخفضة وروسيا وبروسيا، ولكن كذلك من حيث النمو الكبير في القدرات الاقتصادية والعسكرية لبعض الدول وتفوقها على دول كان لها المكان الأول فى أوروبا.

فإنجلترا تحولت من دولة قومية إلى امبراطورية مترامية الأطراف من العالم الجديد إلى العالم القديم، وكانت صاحبة أكبر أسطول محيطى، وتفوقت بذلك على أسبانيا والبرتغال وفرنسا وهولنده (الأراضى المنخفضة).

حقيقة أدت الثورة الأمريكية إلى استقلال الولايات المتحدة الأمريكية عن (الدولة الأم) إنجلترا ولكن المستعمرات الأخرى ـ مثل (كندا) و (الهند) ـ كانت تقدم لإنجلترا مجالات استثمارية واسعة النطاق، امتدت حتى الصين وبدأت تخترق الشرق الأوسط.

على أن الثورة الصناعية التى ظهرت أول ما ظهرت فى انجلترا فى أواخر القرن الثامن عشر هى التى دفعت بالتفوق الانجليزى إلى مراحل عليا تجلت خلال القرن التاسع عشر.

أما فرنسا التى بهرت العالم بما أحرزته من تقدم حضارى خاصة فى عهد لويس الرابع عشر فقد توالت عليها المحن العسكرية خلال عهد الملك وخليفته لويس الخامس عشر، وأصبحت أوضاع فرنسا الاجتماعية والادارية والاقتصادية فضلا عن الفكرية تتطلب تغييرا جوهريا.

وإلى الشمال من فرنسا كانت دولة (الأراضى المنخفضة) التى تميزت بنشاط استعمارى واسع لم يكسر شوكته إلا منافستها لإنجلترا ولقد عانت الأراضى المنخفضة كثيرا من موقعها بين دول كبيرة متضاربة المصالح. وكانت الأراضى المنخفضة فى القرن الثامن عشر تضم ما يعرف حاليا بهولنده وبلجيكا.

وفى أقصى الشمال كانت دولة السويد التى كانت تضم حينذاك النرويج. وكانت لها مواقع قوية فى شمال ألمانيا لم تستطع الحفاظ عليها أمام الضربات التى وجهت إليها من روسيا وبروسيا. بل لقد أصيبت السويد فى أواخر القرن الثامن عشر بانقسامات داخلية مريرة أضعفت من مكانتها.

وفى شبه جزيرة أيبيريا كانت أسبانيا لا تزال تحتفظ بامبراطورية واسعة فى أمريكا اللاتينية. ولكن أسبانيا كانت قد فقدت أيام عزها، وتعرضت لمحن عسكرية خاصة أيام حرب الوراثة النمساوية وحروب لويس الرابع عشر الأمر الذى أفقدها الكثير من فعاليتها ولكن ظلت من الدول الأوروبية التى يحسب حسابها.

وأما البرتغال فقد إحتفظت بالبرازيل ولكن امبراطوريتها الشرقية كانت قد تهاوت. ولكن فى القرن الثامن عشر استعادت البرتغال بعضا من قدرتها وساعدها فى ذلك التحالف بينها وبين بريطانيا حتى لقد أصبح هذا التحالف أمرا تقليديا.

وعلى العكس كانت شبه الجزيرة الإيطالية قد ظلت مقسمة إلى العديد من الدويلات والامارات المتنافرة. وكانت إيطاليا لا تزال مجرد تعبير جغرافى. وكانت للإمبراطورية الرومانية المقدسة اليد العليا فى إيطاليا.

وكانت الإمبراطورية الرومانية المقدسة ذات تاريخ ومكانة كبيرة تحت حكم أسرة الهابسبورج فى فينا، وكانت تعانى من نمو الدول المجاورة ومن الضغط العثمانى فى البلقان حتى ضعفت الدولة العثمانية فأصبح البلقان منطقة تتنافس عليها روسيا والإمبراطورية الرومانية المقدسة على حساب الدولة العثمانية.

وفيما وراء أوروبا كانت الولايات المتحدة الأمريكية هى الدولة الوحيدة التى تصطبغ بصبغة الحضارة الأوروبية مع طابع محلى متميز. أما البلقان فكان ميدان صراع صليبى بين الدولة العثمانية والإمبراطورية الرومانية المقدسة كانت روسيا قد تولت هى الأخرى مسئولية تقويض الدولة العثمانية وكذلك إيران، وىم تتجة روسيا حتى أواخر القرن التاسع عشر نحو الإمبراطورية البريطانية فى الهند، وكانت انجلترا تتابع بنجاح توسعها فى القارة الهندية، وفى السيطرة على التجارة الشرقية.

ولم يكن فى الشرق الأقصى من دولة على مستوى الحضارة الغربية فالإمبراطورية الصينية كانت تتقلص وتتدهور بينما كانت اليابان لا تزال فى عصرها الاقطاعى. وكانت بلاد دول الشرق الأقصى لا تزال غير قادرة على تكوين صورة واضحة عن العملاق الأوروبى الذى كان يتهيأ بقوة ليفرض نفسه ـ عندما تسنح الفرصة ـ على الشرق الأقصى.

وبصفة عامة نمت إمكانيات أوروبا الاقتصادية وتزايدت أعداد السكان وتطورت أساليب البحث وأدى ذلك إلى كشوف عملية واسعة النطاق فى مختلف المجالات ونمت الحركة الأدبية والفنية والموسيقية وأصبحت أوروبا تعنى الحضارة الحديثة المتقدمة.

وترتب على كل هذا نمو حجم التجارة المحلية والتجارية العالمية وما تبع ذلك من استخدام نظم جديدة مالية، جعلت عملية انتقال رؤوس الأموال وتداولها تتمتع بنوع من السرعة والسيولة جعلتها هى المتحكمة فى أسواق النقد الدولية فى عصر كانت فيه الشركات الكبرى تنمو بسرعة وتتحكم فى التوجيه السياسى.

واذا ما ألقينا نظرة سريعة على الفكر الفلسفى فى القرن الثامن عشر فإنها تقودنا بسرعة إلى القول أن الفلسفة بلغت مراكز رائعا لا نزال متأثرين به حتى الآن. وهذا الفكر الفلسفى ما هو إلا جزء من تيار فكرى مجدد ظهر فى مختلف المجالات، حيث ظهرت مؤلفات وموسوعات ونظريات وضعت العالم على طريق تطور جوهرى وقعت أحداثة المعقدة فى ألقرن التاسع عشر.

وإذا كانت هناك نقاط تحول كبرى رئيسية فهى تلك الثورة الصناعية والكشوف العلمية العديدة والثورة الفرنسية فلقد غيرت تلك التطورات من وجه أوروبا فى أواخر القرن التاسع عشر عنه فى أوائل القرن التاسع عشر.

دار الفكر العربى

مؤسسة مصرية للطباعة والنشر والتوزيع

تأسست ١٣٦٥ هـ ـ ١٩٤٦م

مؤسسها : محمد محمود الخضرى

الإدارة : ١١ ش جواد حسنى ـ القاهرة.
ص . ب : ١٣٠ الرمز البريدى ١١٥١١.
فاكس : ٣٩١٧٧٢٣ (٠٠٢٠٢).
ت : ٣٩٢٥٥٢٣ ـ ٣٩٢٠٩٥٦.

نشاط المؤسسة ١ ـ طبع ونشر وتوزيع جميع الكتب العربية فى شتى مجالات المعرفة والعلوم.
٢ ـ استيراد وتصدير الكتب من وإلى جميع الدول العربية والأجنبية.

تطلب جميع منشوراتنا من فروعنا بجمهورية مصر العربية

فرع مدينة نصر
وإدارة التسويق : ٩٤ شارع عباس العقاد ـ المنطقة السادسة.
ت : ٢٧٥٢٩٨٤ ـ ٢٧٥٢٧٩٤ فاكس : ٢٧٥٢٧٣٥

فرع جواد حسنى : ٦ أ شارع جواد حسنى ـ القاهرة ت : ٣٩٣٠١٦٧

فرع الدقى : ٢٧ شارع عبد العظيم راشد المتفرع من شارع محمد شاهين ـ العجوزة ت : ٣٣٥٧٤٩٨.

وكذلك تطلب جميع منشوراتنا من الكويت من مؤسسة دار الكتاب الحديث
شارع الهلالى ـ برج الصديق ـ ص ب : ٢٢٧٥٤ الصفاة 130880 الكويت
تليفون ٧/ ٥/ ٢٤٦٠٦٣٤ ـ فاكس : ٢٤٦٠٦٢٨ (٩٦٥)

رقم الإيداع	٨٤٧٩/ ٩٤
الترقيم الدولى I-S-B-N	977-1٥-0708-4

تطلب جميع منشوراتنا من دار الكتاب الحديث. الكويت